

التراث العربي



مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب بدمشق

السنة 13 - العدد 52

التراث العربي

مجلة فصلية تصدر عن اتحاد الكتاب العرب

المدد : ٥٢ - صفر ١٤١٤ هـ توزع في يوليو ، ١٩٩٣ م - السنة الثالثة عشرة

المدير المسؤول د. علي عقله عرسان
رئيس التحرير د. عبد الكريم اليافي

أمين التحرير
عبداللطيف أزاؤوط
هيئات التحرير
د. إبراهيم الكيلاني د. عدنان البُشّري
د. أدهم السَّمان د. عدنان درويش
د. محمد زهير البابا

ترسل المواد والراسلات الى العنوان التالي :

المدير المسؤول - اتحاد الكتاب العرب ، مجلة التراث العربي ، دمشق ، ص.ب: ٣٢٣٠ - ٢٤٤٢٩٩ - ٢٤٤٣٢٩





مكتبة لسان العرب

مكتبة لبنان العربي

المواضيع المنشورة في المجلة تعبّر عن رأي أصحابها

الاشتراك السنوي

داخل قطر	للأفراد	: ١٠٠ ل.من
في الأقطار العربية	: ٢٠٠ ل.من أو (١٠) دولار أمريكي	
خارج الوطن العربي	: ٣٠٠ ل.من أو (١٥) دولار أمريكي	
الدوائر الرسمية داخل قطر	: ٢٠٠ ل.من	
الدوائر الرسمية في الوطن العربي	: ٣٥٠ ل.من أو (٢٠) دولار أمريكي	
الدوائر الرسمية خارج الوطن العربي	: ٥٠٠ ل.من أو (٢٥) دولار أمريكي	
أعضاء اتحاد الكتاب	: ٥٠ ل.من	

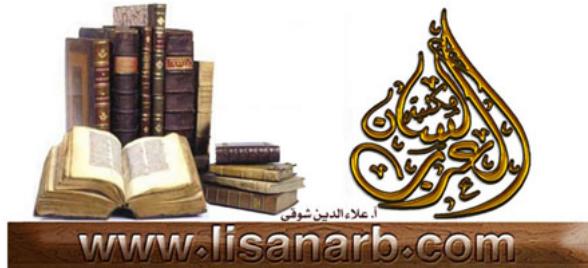
■ الاشتراك يرسل حوالات بريدية او شيك او يدفع نقدا الى : (محاسب مجلة التراث العربي) ■

الإخراج الفني : أكرم أفسدار



المحتوى

- نجد ومقاتله الشعرية
د. ميدالكريم اليامي ٧
- وحشيات أبي تسام
دراسة : محمد كمال ٢٨
- البعد المكاني في سور ذي الرمة الفنية
اسامة سلمان اختيار ٤١
- مقومات الأخلاق عند الفزالي
مجزت السيد احمد ٦٦
- ابن شخيص الأندلسي - حياته وشعره
أحمد عبد القادر صلاحية ٩٢
- النباتات الطبيئة : تاريخها - قصصها - واساليبها
د. جوزيف كلاس ١٠٣
- ★ من كتب التراث :
□ القلم - لأبي محمد السراج النعوي
عبدالعزيز الساوري ١٣١
- ★ نشاطات في خدمة التراث :
□ التراث والثقافة في مهرجان البنادرية الثامن
عبداللطيف ارناؤوط ١٣٩
- فهرس السنة الثالثة عشرة من مجلة التراث العربي
إعداد : مثار ارناؤوط ١٥٦



نجد و مفاتئ السرية

د. عبد الكريم اليافي

الأقوام تُحبُّ أوطانها وتتعلق بها وتفديها بالأرواح .
وقد يمأّ قال ابن الرومي أبياتاً تعابيرت على الأفواه :

وحبب أوطان الرجال إليهم مأرب قضاها الرجال هنالك
إذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم عهود الصبا فيها فعنوا للنلا
والوطن للأنسان كالجسد للروح : وإنما تقوم الروح بالجسد :
فقد الفتنه النفس حتى كانه لها جسد ان بان غور هالك
وقال أيضاً :

ولبست ثوب العيش وهو جديد
وعليه اغصان الشباب تميد

بلد صعبت به الشيبة والصبا
فإذا تمثّل في الضمير رأيته

وقبله قال أغرايي :

أحببه بلاد الله ما بين منتعج
بلادها بها نيطت عليّ تمسامي
وأول أرضي من جلدي ترابها (١)

ولكن هل تعرف أيها القارئ الكريم بلدًا بين سائر البلاد أينماه من حاضر وباد ومقيم وظاعن أشد الناس تعلقا به ومحبة له في مقامهم وحنينا اليه في ظعنهم وترحالمهم ؟ هل تعرف بلدًا لهج الشعراء من أبنائه يذكره في أشعارهم ، واشتد شوقهم اليه وتشوّفهم نحوه في أسفارهم وتزورهم اليه أينما ساروا وأتى حلوا ، حتى ان حنينهم اليه أشبه ما يكون بالهياق والصباة وأقرب ما يكون من السقام الذي يدعى في اللغات الأجنبية « نُسْتَلْجِيَا » وهو الابابة في تراث اللغة العربية .

أغلبك قد عرفت ذلك البلد الذي تعشقته قلوب أبنائه وسكنته نفوسهم اذا كنت من عشاق الأدب العربي وقراء كتبه الننية الكثيرة .

انه هضبة متراصة الأطراف في الجزيرة العربية تقع بين صحراء النفود في الشمال والربع الغالي في الجنوب وبين العجاز غرباً والأحساء شرقاً ، ينخفض ارتفاعها بالتدريج من الغرب الى الشرق، رملية في بعض الجهات، بركانية في جهات أخرى ، تضم بين أرجائها واحات خضراء أو وديعة تسيل اذا مطرت السماء واحفل الشرى ، تنبت فيها الزروع والأزاهير والرياحين الى جانب ما قد علا وورف من مختلف الأشجار ومتباين الجنبات مشمرة وغير مشمرة .

وصفتها رؤبة بن العجاج حسب الفصول فقال : « شهر ثرى ، وشهر ترى وشهر ترعى وشهر استوى . وذلك أن المطر إذا وقع الأول منه على الأرض تمكث الأرض تراباً رطباً فهو قوله ثرى . ثم تنبت فيرى النبات فهو قوله ترى . ثم يكون في الشهر الثالث مراعي . ثم يستوي النبت في الربع فيكتهل »^(٢) .

إن تلك الأرض منبت العرار والغزامي والحوذان والأقعوان والأذّخir والعيَّثُران والنَّصِّي وسائر الريحان .

إنها مهد النخيل أجمل الأشجار قاطبة . منها هاجر النخيل الى وادي الكنابة وما بين النهرين ثم الى سائر الأقطار كما يروي المؤرخون وعلماء العحضارات . إنها بلد الدّوّم والبغضا والدّوح والأراك والأيك والضال والرند والسلم والسمّر والأثل والكتّنهبّل الذي طوحت به الزوبعة كما في آخر معلقة امرئ القيس .

إنها بلد يخنق بالحب والحرية والمرؤة والشجاعة والنجدة والكرم والبلاغة.

بلد الشعراء الكبار ، بلد المهلل بن ربعة وأوس بن حجر وزهير بن أبي سلمى وامرئ القيس^(٢) وطرفة بن العبد ولبيد بن ربعة والعارث بن حلزة وعبيد بن الأبرص وعنترة بن شداد والملمس وأعشى باهله وبشر بن أبي خازم وعروة بن الورد الذي يقول :

القسم جسمى في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

والذى تمنى عبد الملك بن مروان لو كان عروة من آياته^(٤) .

وبلد دريد بن الصمة والطرماح وعامر بن الطفيلي والعباس بن مرداش وعلقة بن عبدة وتميم بن مقبل وزيد الغيل والخمساء والخطيبة وغيرهم من الأبطال والأجواد والبلغاء .

ثم هي منشأ جرير والفرزدق . وهي في الخلاصة موطن الشعراء والأبياء الذين صانت خزائن الأدب العربي أشعارهم وأفواههم وما زالت تتردد تلك الأقوال والأشعار على صفحات الكتب تليدها وطريفتها وعلى أفواه الأدياء وطلاب الأدب العربي في القديم والحديث . وقد عكف علماء اللغة والأدب على التقاطها كالدر المتوجه وعلى صونها والاستشهاد بها خدمة للتنزيل الكريم وإيضاً لبيانه وبالغته ، وبذلك حفظت في ساداتها جواهر البلاغة في عباب اللغة الخضم الواسع .

إنها نجد^(٥) ، بلد حاتم الطائي الذي امتاز بجمعه صفات المرؤة والرجولة والفروسية والبلاغة مثل غيره . ولكنها اشتهرت إلى ذلك كله بالكرم المستفيض ولم تتبدل طباعه ولا سلوكه في حاله فقره وغنائه فهو القائل :

فنينا زمانا بالتصلك والفنى وكلا سقاناه بكاسيهما اللهر
فما زادنا تيهنا على ذي قرباه غنانا ولا ازري ياحسابنا الفقر

وهو الذي كان اذا اشتد البرد ليلاً في الشتاء أمر غلامه فأوقد ناراً في يفاع من الأرض لينظر إليها من ضل عن الطريق . وفي ذلك يقول :

اوقد فان الليل ليل قر والريح ياغلام ديع صر
عسى يرى نارك من يمر ان جلبت ضيفا فانت حر^(٦)

الانسان عنده أخو الانسان فهو مسؤول عن رعايته وحمايته وعونه . لا بد حين نذكر هذه السجية عنده أن نقاولها بما كتبه بعده بما يقرب من أحد عشر قرناً فيلسوف انكلترة المشهور توماس هوبز ، إذ يرى أن المرء يخشى الغريب ويغاره . والدليل أنه متى جاء المساء وجنَّ الليل يعمد القاطن في انكلترة الى نوافذ البيت فيغلقها والتي مصاريع الأبواب فيعكم سدها . الانسان - على حد قوله - ذئب على الانسان .

على خلاف ذلك تقاد تبديو الذئاب وغيرها من الموحش والسباع في نجد وبباقي الجزيرة العربية كأنها أصدقاء الانسان بل أهله وذريوه . ألم يقل الشنفرى في لامية العرب مؤنباً قومه :

ولي دونكم اهلون سيدة حملئس وأرقط نحلول وعرفام جيال
هم الأهل لا مستودع السر ذاتع لدتهم ولا العاجاني بما جر يغذل

سبق عمرو بن مالك الأزدي اليمني (اسم الشنفرى ونسبة) في هذا الموقف الكاتب اليوناني الحديث نيقوس كازنتراكسن الذي تناقل الأدباء في هذا العصر قوله : «في الغابة المنعزلة الثقيت نمراً ففرحت به وصحت : مرحبًا بك يا أخي» . حتى الفرزدق بعد الشنفرى بعิน من الدهر يصادف ذئبًا في الليل فيدعوه إلى الطعام معه واقتسم زاده خيلاً أو حقيقة :

وأطلس عسالٍ وما كان صاحباً دعوتْ بساري موهينا فاتانى
فلما دنا قلت ادنْ دونك انتي وايساك في زادي لمشتر كان
قبت اسوسي الزاد بيني وبينه على ضوء نار مرة ودخان

ولما جاء الاسلام ازدادت مكانة العيون وغدا الاحسان اليه مما يغفر الذنوب وتعظم به الأجور . جاء في الحديث الشريف : «في كل ذات كبرٍ حرّى أجر» . وفي رواية «في كل ذات كبر طيبة أجر .» والحرارة والرطوبة هي حرارة العيادة ورطوبتها .

كل الأوقات بدبيعة سواحر في نجد . يفتر ثغر الفجر يستأ ناعم لطيف ، ثم تهفو النجوم السواهر وتتنفس فتفيب شيئاً فشيئاً ، ثم يقوى النور ويعمر

الأفق ويتلون بالأصباغ المحببة وتشرق الفرازة فتمس حبات الرمل مساً رفيقاً وتكسوها ألوانًا ذهبية براقة ، ثم تتوقل في كبد السماء ويَضْسُحُ كل شيء ويدفعاً بأشعتها الوهاجة . ثم تحلّ الظاهرة بضوئها الساطع وتقاصر الظلال أقصر ما تقصر . ثم تشرع فتطلول بالتدريج ويحلو الأصيل الممتع ثم تدنو الشمس من الفرسوب ويتشَّح الأفق الشرقي بألوان الشفق الطريفة . وفي الليل تتزين السماء بالنجوم والكواكب وتسري مواكبها بتزدة وهوادة وتبعد في تلك السماء الصافية القريبة البعيدة كأنها أكبر حجماً وأشد تألقاً منها في بقية الأفاق . وإذا لاح القمر حفت به النجوم كأنه أمير أمير . صُور السماء بنجدٍ في آناء الليل ملأى بالأسرار تخلب الألباب وتروع العقول والسرائر والأ بصار .

وكما تتمايز آناء الليل والنهار جمالاً ورقة وحسناً وروعة ورونقًا ، كذلك تتمايز الفصول فتوناً وسحراً بمجاليها البديعة ومعاحسنها الصافية وملامحها الأنثقة وروائعها الغامض وخصائصها المتنامية والمتكاملة .

يُخيّلُ اليـنا أن شعوراً عميقاً مستـرـاً قد نـشـأ طـوال قـرون بين أـرـضـنـجـدـوـمنـاخـهـاـوـنبـاتـهـاـوـوـحـشـهـاـوـطـيـرـهـاـوـسـكـانـهـاـ .ـ فـهـمـ يـعـيـونـ حـيـاةـ تـلـكـ الـأـرـضـ وـيـسـتـمـتـعـونـ بـمـاـ تـمـنـعـهـمـ بـمـاـ طـيـبـ وـعـذـاـوـةـ وـصـفـاءـ ذـهـنـ وـحـرـيـةـ وـسـلـامـ طـبـ وـانـطـلـاقـ وـجـوـدـةـ قـرـيـعـةـ وـحـدـةـ نـظـرـ .ـ زـرـقـاءـ الـيـمـاـمـةـ الـتـيـ يـرـوـيـ أـنـهـ كـانـتـ تـبـصـرـ مـسـافـةـ ثـلـاثـةـ أـيـامـ لـيـسـ إـلـاـ رـمـزاـ إـلـىـ تـلـكـ الـعـدـةـ .ـ وـكـانـ سـكـانـ نـجـدـ كـانـوـاـ يـعـتـبـرـونـ أـنـفـسـهـمـ قـطـلـعـاـ مـنـ تـلـكـ الـأـرـضـ يـتـغـدوـنـ جـنـاـهـاـ وـيـرـشـفـونـ سـلـسـالـهـاـ وـيـتـنـسـمـونـ شـذاـهـاـ وـيـتـفـيـؤـونـ ظـلـالـهـاـ وـيـسـتـمـعـونـ إـلـىـ هـدـيـلـ حـمـامـهـاـ وـتـرـجـيـعـ وـرـقـهـاـ وـتـفـرـيدـ عـنـادـلـهـاـ .ـ بـلـ إـنـهـ يـكـادـونـ يـسـمـعـونـ خـلـجـاتـ تـلـكـ الـأـرـضـ مـعـ خـلـجـاتـ قـلـوبـهـمـ وـيـشـعـرـونـ بـنـبـضـهـاـ الـخـفـيـ مـعـ نـبـضـ عـرـوـقـهـمـ .ـ كـانـوـاـ كـانـهـمـ وـالـأـرـضـ جـمـيعـاـ شـخـصـ وـاحـدـ تـحـتـ سـمـاءـ وـاحـدـةـ يـدـرـكـونـ أـدـقـ الـفـروـقـ بـيـنـ الـبـكـرـ وـالـلـهـجـةـ وـالـأـصـائـلـ وـالـعـشـيـاتـ وـآنـاءـ اللـيـلـ وـالـنـهـارـ .ـ فـوـضـعـواـ لـكـ ذـلـكـ أـسـمـاءـ دـقـيـقـةـ تـمـلـأـ بـسـوـادـهـاـ بـيـاضـ كـتـبـ الـلـنـغـةـ .ـ كـانـوـاـ كـانـاـ مـاـ يـصـفـونـ إـلـىـ مـاـ تـحـدـثـهـمـ بـهـ الـأـشـيـاءـ فـيـ تـلـكـ الـأـرـضـ وـيـفـهـمـونـ مـكـنـونـ ذـلـكـ الـحـدـيـثـ فـهـمـاـ عـفـوـيـاـ سـهـلاـ لـالـبـسـ فـيـهـ وـلـاـ تـعـقـيـدـ .ـ رـبـماـ كـانـ أـجـلـ بـقـاعـ الـأـرـضـ الـبـلـادـ الـبـسيـطـةـ الـطـيـبـةـ الـتـيـ تـحـافظـ عـلـىـ نـقـاءـ سـكـانـهـاـ .ـ وـتـدـنـوـ مـنـهـمـ وـكـانـهـاـ تـعـدـهـمـ بـلـغـةـ وـدـيـةـ وـبـيـانـ مـأـلـوـفـ لـهـيـمـ وـبـاحـسـاسـ مـرـهـفـ وـصـدـاقـةـ سـازـجـةـ

طبيعية . لذلك تجدهم إذا دنا فراق أحد هم لتلك الأرض بث لوعجه ووجده قبل أن يفارقها ونفت ش枷ه لروابط عميقة لا حدود لها تصله بها .

هل سمعت أو قرأت شعراً أجمل وأشجع مما قاله أحد أبنائهما يزيد قبل فراقها أن يستمسك باللحظات العابرة **بَلْهُ** الأيام والشهور التي لا يكاد المرء يشعر بانقضائها :

بنا بين المنيفه والضمار	اقول لصاحبى والعيس تهوى
فما بعد الشيبة من مرار	تمتع من شيم عرار نجد
وريتا روضه غبة القطار	الا يا جبذا نفحات نجد
وانست على زمانك غير ذار	وأهلتك اذ يحل العي نجدا
بانصاف لهن ولا سرار	شهور ينقضين وما شعرنا

وأذكر أنتي منذ حفظت في صباع أبيات الصمة القشيري التي يودع بها نجد ما زالت هذه الأبيات تتعدد في خلدي في العين بعد العين وأشعر تلقاءها بخشوع عميق كما يشعر المرء بالخشوع تلقاء قطعة فنية رائعة أيا كان نوع تلك القطعة الفنية رسمأ أو موسيقى أو شعراً أو غير ذلك :

وقل لنجد عندنا ان يودعا	قفا ودعا نجدا ومن حل بالعمى
وما احسن المصطاف والمتربيعا	بنفسى تلك الأرض ما أطيب الريا
وجيـعـتـ من الاصفاء ليـتاـ واخـلـهاـ	تلـقـقـتـ نحو العـيـ حتى وجـدتـنيـ
علـىـ كـبـلـيـ من خـشـيـةـ ان تصـلـهاـ	واذـكـرـ اـيـامـ العمـىـ ثم اـنـشـيـ
علـىـكـ ولـكـ خـلـ عـيـنـيـكـ تـدـعـاـ	ولـيـسـ عـشـيـاتـ العمـىـ بـرـواـجـعـ

ذكر ياقوت في « معجم البلدان » أنه لم « يذكر الشعراء موضعًا أكثر مما ذكروا نجداً وتشوقوا إليها من الأعراش المتضررة » ويورد بعض ما يحضره من أبيات :

أبناء نجد الذين غادروا لأمر من الأمور يتخللون بالنظر إلى جهتها كان النظر نحوها يرسم يخفف سقام هذا العنين :

اكدر طرفني نعو نجد وانني
 حنينا الى ارض كان ترابها
 بلاده كان الاقحوان بروضه
 وما نظري من نحو نجد بنافعي
 في كل يوم نظرة ثم عبرة
 متى يستريح القلب اما مجاور

اليه وان لم يدرك الطرف انظر
 اذا مُطِرَتْ عُودٌ ومسك وعنبر
 ونور الاقامي وشي بُرْدِ منجبر
 اجل لا ولكنني الى ذاك انظر
 لينيك مجرى مائها يتخلو
 بعرب واما نازح يتذكر

يدرك الشاعر النائي ان التفاتاته نحو جهة نجد ونظره اليه على بعد لا ينفعه
 في شيء . ولكننه ينظر ، ثم ينظر كل يوم ، ثم تجري عبراته ويتنزّى قلبه فلا
 يستريح ما دام مشاركاً في حرب أو نازحاً بعيداً من وطنه وأهله .

كانت بلاد الشام والمرأق ولا سيمادمشق وبفداد مراكز الحضارة في العالم
 اجمع . فيها مفاتن المدنية من كل شيء . ولكن أولئك النجدين يهفون الى ربوع
 وطنهم التي تذوقوا فيها نعمي الانطلاق والحرية والحياة الطبيعية البسيطة النقاء.
 يسأل أغرايبي نجدي عن نجدي آخر لعله يلقاه في القرية ولعلهما يتعاونان على
 البكاء كما تتعاوب حمامتان مطوقتان ترجمان ثم يتأنّث النجدي الشاعر في
 الليل نحو نجم سهيل وهو نجم جنوبي وينظر كرامة أخرى إليه ويدرك مدى البعد
 من وطنه فيشتد شوقه وينشد :

خليلي هل بالشام عين حزينة
 وهل باائع نفسا بنفس او الاسى
 واسلمها الباكون الا حمامه
 تجاوبها اخرى على خيزرانة
 نظرت بعيني مؤنسين فم اكد
 فكذبت نفسى ثم راجعت نظرة
 تبكي على نجد لعلى اعينها
 اليها فاجلاها بذلك حنينها
 مطوقة قد بان عنها قرينها
 يكاد يندّتتها من الأرض لينها
 أرى من سهيل نظرة استبينها
 فهيج لى شوقا للجد يقينها

كذلك يستشرف عبد الرحمن بن دارة بعيني غريب كأنهما رمداوان لمله
 يرى برقا يومض من عالية نجد ويتأمل هيئة ومضه تعللاً . وهو يحن غب البرقة
 والمطر الى اللعان ورقاء تسجع على أيكة في وادي عاقل ييس بها الفصن الناعم الذي

تفرد عليه . ثم ينظر في نفسه فيشعر بلوعة فراقه نجداً . أوليس هو ونجد خليلين
كانا متلازمين ؟ ! أوليسا هما قرينيں کاتامتصلين اتصال طاقات العجل فقطعت تلك
الطاقة بعد شد عقدها ؟ ! وهو الآن لا يملك الا أن يدعو لنجد بالسقيا على
قرب المهد منه وقد صرفه بالبعد عنه شغل شاغل :

كان فريبات العيون بها رمد
نظرت وبدور من تصيدين دوننا
لکیما ارى البرق الذي اومضت به
ذر المزن علوبیا(٧) وكيف لنا يبلو
يميل بها من عاقل غصنة ماء
فاني ونجدنا كالقرینین قطعا
قوی من جبال لم يشد لها عقد
عدانا العدا عنه وما قدم العهد
وقال نوح بن جریر بن الخطفی وربما كان يتلو : « وما تدری نفس بأی
أرض تموت » :

الا قد ارى ان المتأيا تصيبني
فالى عنهن انصراف ولا بد
اذا العرش لا يجعل بيقاد ميتي
ولكن بنجد حبذا بلدا نجد
وهو قد هي بط بيقاد في نُزُل متواضع كما يهي بط أمثاله من الاعراب لا في
قصر منيف فهو يشكو من البراغيث التي لا توجد في نجد وانما تلتقي فيها الظباء
والبقر الوحشي والحيوان الجميل :

بلاد نات عنها البراغيث والتلى
بها العين والأدراهم والغفر والرید
وقال عبد الرحمن بن دارة :

خليلي ان حانت بمحصن منيتي
فلا تدفناني وارفعاني الى نجد
وقال أعرابي ذهب مع الجيش الى ارض الروم :
تبذلت من نجد ومن يعلته محله جند ما الأعaries والجند
وأصبغت في ارض البنود وقد ارى زمانا بارض لا يقال لها بند

المجند مفرد الأجناد وهي تقسيمات إدارية ينزلها الجنود بأرض الشام كالبنود
بأرض الروم والكور بالعراق والطسايسيج لأهل الأهواز والرساتيق لأهل العجال
والأعراض بالحجاج والمخالف لأهل اليمن .

وإذا رَمَتِ النوى نجدياً وطنُه العَزْنُ بنجد . وهو من أَجلِ مَرَاجِعِ
العرب ، وطْرَحْتَه في مدِينة صُول من بلاد الغَزْر في نواحي باب الأبواب فما أشدَّ
العنين ! يَطَّاولُ الليل على الغَرِيب النَّائِي حتى كَانَ الليل موصول بالليل وهو
يَتَمَلَّمْ تَعْتَه عَبْءَ الدَّجَى تَمَلَّمْ الْحَيَاة المَقْتُول بالسوط وَيَنْتَظِر عَبْثاً بِزُوْغ غَرَة
الْفَجْر . الفجر غائب غياب الحصان الأَغْرِي المَعْجِل . كلامها وسيلة خلاص ونجاة .
أين الفجر وأين الحصان هل هو مشكول لا يغطوا كالليل ؟ وكيف له بهما ؟ لئن لاح
الصَّبَح وَظَفَر السَّاهِر أخيراً به لاستمسكت كفه به كما يستمسك الفارس بعُرْفِ
حصانه . ويَسْتَسْلِم النَّائِي بعده بشَه وشَكْوَاه إلى قدرة الله القوي الذي وحده يستطِيع
أن يرده على بعد الدار إلى أهله ووطنه، يقول حندج المري :

كَانَمَا لِيلَه بِاللَّيلِ موصول
فِي لَيلِ صُولِ تَنَاهِي الْعَرْض الطَّولِ
وَانْ بَلَّتْ غَرَة مِنْه وَتَعْجِيلِ
كَانَه حَيَّة بِالسوطِ مَقْتُولِ
وَاللَّيل قَدْ مَنَّعَتْ عَنْه السَّرَابِيلِ
كَانَه فَوقَ مِنْ أَرْضِ مَشَكُولِ
كَانَمَا هَنَّ فِي الْبَعْوِ الْقَنَابِيلِ
مِنْ دَارِه العَزْنِ مَمْنَ دَارِه صُولِ
حَتَّى يُرَى الْرَّبِيعُ مِنْه وَهُوَ مَاهُولٌ

لَا فَارِقَ الصَّبَحَ كَفِيَ انْ ظَفَرَتْ بِهِ
لَسَاهِرٍ طَالَ فِي صُولِ تَمَلَّمْهِ
مَتَى أَرَى الصَّبَحَ قَدْ لَاحَتْ مَخَايِلِهِ
لَيْلَ تَعَيَّنَرَ ما يَنْعَطُ فِي جَهَةِ
نَعْوَمَهِ رَكَدَ لَيْسَ بِزَائِلِهِ
مَا أَقْبَرَ اللَّهُ أَنْ يُدَنِّي عَلَى شَحَطِ
الله يَطْوُي بِسَاطِ الْأَرْضِ بِيَنْهَمِا

وَكَانَتِ الْعَرب تَقُولُ : « مَنْ تَرَبَّعَ العَزْنَ وَتَشَتَّتَ الصَّمَمَانَ وَتَقَيَّظَ
الشَّرَافَ فَقَدْ أَخْسَبَ »^(٨)

ولرسوخ المعبة والتواصل بين الأرض والسكان نجد الشعراً يلهجون
بالموضع التي عاشوا فيها أو مرروا بأطلال لهم بها لهو" أو متاع" أو ذكري طيبة . ثم
بقيت هذه الأطلال شاخصة بعد ترحيل أهلها عنها تقاوم الرياح والأحوال لتصون
في قلوب الركب الوفية ذكريات الأيام والليالي الخالية . كلُّ طلل أو موضع
حرف" مشعر في سجل الأدب العربي العاقيف، أو هو شعر أو لحن تهتز على إيقاعه
القلوب . بل كأن لهذه الموضع أرواحاً خالدة . وحقاً رفعها الفن الأصيل من
صعب الواقع إلى عالم الخلود المضيء .

أحب أن أعيد هنا طائفة من الأبيات التي ضمت أسماء الأماكن بنبضها الشاعري الذي ما يزال حياً في أندتنا نحن عشاق التراث العربي؛ والاعادة ضرب من التمجيد والتزييل :

منذ صبانا حفظنا من معلقة أمرىء القيس الفاظ سقط اللوى والدخول وحومل وتوضّح والمقرأة وداره جبل .

فقال نيك من ذكرى حبيب ومنزل بسقوط اللوى بين الدخول فعوْمَل
ما نسجتها من جنوب وشمال ٠٠

ثم يقول الملك الضليل في أحبابه :
الأرب يوم لك منهـ صالح

وماتقوله في الوصف الفني الشاعري للموضع التي تتخلل معلقة أمرىء القيس تقوله أيضاً في برقـة ثـهمـد من معلقة طرفة :

لغولة اطلال ببرقة ثـهمـد تلوـح كباقي الوشم في ظاهـرـ اليـدـ
وكذلك في حومةـةـ الدـرـاجـ والمـتـثـلـمـ والـرـقـمـتـينـ اللـتـيـنـ هـمـ رـوـضـتـانـ بـنـاحـيـةـ
الـصـمـانـ منـ مـعـلـقـةـ زـهـيرـ بـنـ أـبـيـ سـلـمـيـ :

بعـوـمـانـةـ الدـرـاجـ فـالـمـتـثـلـمـ
مـرـاجـيـعـ وـشـمـ فيـ نـوـاـشـرـ مـعـصـمـ
وـدـارـ لـهـاـ بـالـرـقـمـتـينـ كـانـهـاـ
وـالـجـوـاءـ فـيـ مـعـلـقـةـ عـنـتـرـةـ :

يـاـ دـارـ عـبـلـةـ بـالـجـوـاءـ تـكـلـمـيـ
وـعـمـيـ صـبـاحـاـ دـارـ عـبـلـةـ وـاسـلـمـيـ
وـخـازـىـ وـالـمـقـيقـ وـشـخـصـيـنـ مـنـ مـعـلـقـةـ الـعـارـثـ بـنـ حـلـزـةـ :

فـتـنـورـتـ نـارـهـاـ مـنـ بـعـيدـ
بـغـرـازـىـ هـيـهـاتـ مـنـكـ الصـلـاءـ
أـوـقـدـتـهـاـ بـيـنـ الـعـقـيقـ فـشـخـصـيـ

وهـكـذـاـ بـقـيـةـ الـمـوـاضـعـ مـنـ أـشـعـارـ أـولـئـكـ الـشـعـرـاءـ النـجـدـيـنـ مـهـبـوـاـ سـبـلـ
الـشـعـرـ العـرـبـيـ وـزـرـعـواـ روـضـاتـهـ الفـرـ بـالـرـيـاحـيـنـ وـالـأـزـاهـيـرـ الزـكـيـةـ .

كلـ مـوـضـعـ بـنـجـدـ شـعـرـ وـمـوـسـيـقـيـ وـتـصـوـيرـ وـفـنـ أـيـ فـنـ .

ألا ترى الى امرئ القيس هو وأصحابه قد قعدوا في مكان بين واحة ضارج
وواحة العذيب يتأملون على بعد عاصفة ممطرة يضيء وميض البرق فيها كما
تحقق مصابيح الرهبان في الليل الداجي . وقد أطبق الدجن في مساحة كبيرة
فلاح بالنظر البعيد فوق جبل قطان على اليمين وجibli الستار ويدبل على الشمام
وشرع يسحّ والبله وينسكب صبيه فيقتشر الأرض قشراً وباتت الرياح الزعازع
تقلع دوح الكنهيل من أصوله وتلقيه على أم رأسه .

ثم تجاوز السعاب المتراكم الى جبل القنان فغضش الأوعال وأنزلها من أماكنها
الشاغنة الحصينة في أعلىه كما اقتلع جذوع النخل الباسق والأطام في مدينة تيماء لا
ما كان منها راسخ الأصول كالمبنادل . وكمنما انقضع جانب ظهرت طيور الماء في الفدأة
الباكرة تسجع كأنها سكري وخرجت الوحوش من مكانتها تمشي غرقى في الطين
كأنها أصول البصل البري وبرز جبل أبيان الشامخ قد غسله المطر فكانه ملتف بشوب
تشيب خطته مجريي السيل فبدأ مهياً تغالله كبير القوم وقد حمل السيل زبدأ
وورقاً باليه واستدار حول جبل المغير مساءً فبدت ذراه كأنها فلكة مغزل . ثم
أنبتت صحراء الغبيط (حزنبني يربوع) أنواع الأزهار البرية من كل زوج بهيج
بالألوانها المتنوعة المرصعة حتى يغيل للناظر أن تاجرًا يمانأ حلًّ هناك ونشر
على الأرض والأكام ما حمله من ثياب منسوقة متنوعة بدعة الأشكال :

كلمع اليدين في حَبَّيرِ مَكْلُل	أصالح ترى برقاً أرييك وميشه
أهان السليط في الذباب المفتر	يضيء سناء أو مصابيح راهب
وبين العذيب بـعندما متاملي	قطعت وأصحابي له بين ضارج
وأيسره على الستار فيذبل	على قطان بالشيم أيمن صوبه
يكتب على الأذقان دوح الكنهيل	وأضحي يسحّ الماء عن كل فيقة
صُبْخَنَ سلافاً من رحيق مقلقل	كان مراكبي العواء غديبة
فأنزل منه العصم من كل موئل	ومرَّ على القنان من نفيانه
ولا أطئماً إلا مشيداً بجندل	وتيماء لم يترك بها جذع نخلة
كبير اناس في بجدادِ مزمول	كان أبانا في أفالين ودقه

كان ندا راس المعيمر غدوة من السيل والفتاء فلكرة مغزل
 كان السباع فيه غرقى عشية بارجائه القصوى أنابيش عنصل
 والتى بصحراء الفبيط بعاصه نزول اليمانى نى العياب المعلم

لقد استطاع ملك الشعراء أن يرسم باللفظ والإيقاع صوراً فنية ملونة وصادقة ومتحركة للعاصفة ولمكانها ولآثارها ما زلنا نتأملها ونتملها ونعجب بها نحن محبي الشعر العربي القديم كأعجابنا بلوحات الرسوم العالمية الخالدة ٠

كان نجد يمور بحركات القبائل تنتبه موقع الفيث وتلتمس مشهور المراعي وميسورها فتترحل القبيلة من مكان الى آخر بأهلها جميماً مع ظعائنهما وهوادجها ومطايها وأنعامها ٠ وكان نجد يمسيس بقمات الأحباب في موافق الوداع التي تُشير الأسى في النفوس ٠ ولكن المحب أو الصديق المتخلّف عن الركب كان يرافق في خياله أحبابه وأصدقاءه وألاّفة ويتصور الأماكن التي يمرون بها أو يُخيّمون على بطاحها أو يُعرسون عندها، ويحسب مدى إقامتهم لدى كل منزل يتزلّون به أو مخيم يخيّمون فيه أو معرس يعرسونه على طريق رحلاتهم التي قد تكون قصيرة أو طويلة ٠ وذلك كما نفعل نحن اذا سافر لنا ولد أو قريب أو صديق يتصور في أي المطارات يعط وباي الفنادق ينزل وهل يوصل المطار رأساً الى البلد الذي يؤمه أو هو مطار مرور وانتقال ٠

تغيرت وسائل الانتقال وتطور اتساعها ولكن قلب الانسان المحب بقي ذاته ٠ يتذكر زهير بن أبي سلمى أحبابه المترحلات عن بلد العلياء المشرف على ماء جرثُ ثم فيصف الأنماط الكريمة المفروشة في الهوادج والكيل الوردية والرحال الواسعة الجديدة المطرزة ٠ جعلن في مسيرهن جبل القنان ومرعى العزن عن يمينهن وكم في هذا الجبل من صديق ومن عدو ٠ ثم ظهرن من وادي السوبان ليقطعننه ثم عرض لهن الوادي مرة أخرى للتواه فقطعنه أيضاً ٠ وقد نزلن في بعض معالم الطريق وكانت تُتف الصوف المنتشر من الهوادج ومن الفراش المصبوغ في تلك المنازل بعد ترحلهن عنها شبيهة في الوانها بالحب الأحمر من النبات المسمى عنب الشلub ٠ ثم طلع عليهن الفجر فسرن سحراً حتى وصلن الى وادي الرؤس فخيّمن فيه قريباً من جمام الماء الزُّرق الصافية ٠

ولا ينسى الشاعر حركة الدلال الناعم تَثْنِي قبود الأحباب وهنَّ يمضين
لطيفهن في الهوادج القشيبة ولا الاشارة الى الوانها . يورد ذلك بعاطفة هادئة
وتصوير بدائع دقيق . ولا غرو أن هؤلاء الأحباب بهوادجهن وكسوتها البديعة
الملونة الجميلة من مستوى عالٍ في القبيلة حتى إنهم ليجتذب بن الأ بصار فهـي تتوسـم
مظـهرـهـنـ الأنـيقـ المـتنـمـ :

تعملن بالعلـيـاءـ منـ فوقـ جـرـشمـ
ورـادـ حـواـشـيهـ مـشاـكـهـ السـمـ
وكـمـ بـالـقـنـانـ مـنـ مـعـلـ وـمـخـرـمـ
عـلـىـ كـلـ قـيـنـيـ قـشـيبـ وـمـفـامـ
عـلـيـهـنـ دـلـ النـاعـمـ المـتـتـعـمـ
نـزـلـنـ بـهـ حـبـهـ الفـنـاـ لـمـ يـحـطـمـ
فـهـنـ وـوـادـيـ الرـئـسـ كـالـيدـ لـلـفـمـ
وـضـعـنـ عـصـيـ العـاـضـرـ المـتـتـخـيـمـ
أـنـيـقـ لـعـيـنـ النـاظـيرـ المـتـوـسـمـ
تبـصـرـ خـلـيلـيـ هـلـ تـرـىـ مـنـ ظـعـائـنـ
عـلـوـنـ بـاـنـمـاطـ عـيـاقـ وـكـلـةـ
جـعـلـنـ الـقـنـانـ عـنـ يـمـيـنـ وـحـزـنـهـ
ظـهـرـنـ مـنـ السـوـبـانـ ثـمـ جـزـ عـنـهـ
وـوـرـكـنـ فـيـ السـوـبـانـ يـعـلـونـ مـتـهـ
كـانـ فـتـاتـ الـعـهـنـ فـيـ كـلـ مـنـزـلـ
بـكـرـنـ بـكـورـاـ وـاسـتـحـرـنـ بـسـحـرـةـ
فـلـماـ وـرـدـنـ المـاءـ ذـرـقاـ جـمـاـمـهـ
وـفـيـهـنـ مـلـهـيـ لـلـصـدـيقـ وـمـنـظـرـ

والحنين الى مواضع بنجد كالعنين إلى نجد آنات متواترة وآهات متراوفة
تشجي الغلي ولا تسلي الشجي ، قَطْنَنُ"الذي حدد امرؤ القيس أيمن صوب
العاشرة عليه جبل لبني عبس مستديراً ململماً بين وادي الرمة وأرضبني أسد
كثير المياه والنخل تجري من رأسه عيون . يشتاقه وينزع إليه أحد الأعراب فيقول:

سـلـامـ مـنـ كـانـ يـهـوـيـ مـرـةـ لـقـنـاـ
جـبـاـ اـذـاـ عـلـنـتـ آـيـاتـهـ بـطـنـاـ
وـلـيـتـاـ لـاـ نـرـيمـ الـدـهـرـ سـاحـتـهـ
مـاـ مـنـ غـرـبـيـ وـانـ أـبـدـيـ تـجـكـلـدـهـ
سلـامـ عـلـىـ قـطـنـ انـ كـتـ نـازـلـهـ
أـجـبـهـ وـالـذـيـ أـرـسـىـ قـوـاعـدـهـ
يـالـيـتـاـ لـاـ نـرـيمـ الـدـهـرـ سـاحـتـهـ
مـاـ مـنـ غـرـبـيـ وـانـ أـبـدـيـ تـجـكـلـدـهـ

ومن المواضع التي اشتهرت بذكر الشعر لها قرقى وهي أرض فيها قرى
وزروع ونخيل كثيرة ، كما جاء في معجم البلدان .

يذكر ياقوت أن يحيى بن طالب العنفي كان مولى لقريش وكان شيئاً دَيْنَا بُقْرِيَّه أَهْلَ الْيَمَامَةَ . وكانت له ضيعة باليماماة يقال لها البرة العليا ، وكان يشتري غلات السلطان بقرقرى وكان عظيم التجارة وكان سعيداً . فأصاب الناس جدب فجلاً أهل البادية فنزلوا بقرقرى ففرق يحيى بن طالب فيهم الغلات وكان معروفاً بالسخاء فباع السلطان أملاكه ، وعزَّه الدَّيْن فخرج من اليماماة هارباً من الدَّيْن ي يريد خراسان . فلما وصل إليها قال :

أيا إثاث القاع من بطن توضع حنيني إلى أظلالكن طويل(١)
وبنَ وجلوى غيركِن قليل
ويا إثاث القاع قلبِي موكل
مسيري فهل في ظلكن مقييل
إلهَي شم الغزامي ونظرة
فأشرب من ماء العجَّلاء شربة
أحدث عنك النفس أن لست راجعا
أريد انحدارا نحوها فيصداني

قال أبو بكر الأنباري : وقد غنى بهذه الأبيات عند الرشيد فسأل عن قائلها فأخبر فأمر بردهه وقضاء دينه . فسئل عنه فقيل إنه مات قبل ذلك بشهر ، وقد قال :

على البرة العليا صدور الركائب
ولا في سبيل الله يحيى بن طالب

ومن أشد القصائد تأثيراً في النفس أن ينفت الشاعر حنينه إلى وطنه وهو يشعر أنه لن يراه كما فعل مالك بن الريب حين مرض عند قفول سعيد بن عثمان بن عفان من خراسان وكان قد استصحبه في الجيش . فلما أشرف على الموت قال قصيدة المشهورة التي تأتي في مستهلها هذه الأبيات يذكر فيها الفضا وهو واد ينجد :

بعنْبِ الْفَضَا أَزْجِي الْقَلَاصِ النَّوَاجِيَا
وَلَيْتَ الْفَضَا مَاشِي الرَّكَابِ لِيَالِيَا
بِطَوْنَ الْفَضَا حَتَّى أَوْرَى مَاوَرَائِيَا (٢)
مَزَارٌ وَلَكِنَ الْفَضَا لَيْسَ دَانِيَا
الْأَلَيْتَ شَعْرِيَ هَلْ أَبَيْتَ لِيَلَةَ
فَلَيْلَتِ الْفَضَا لَمْ يَقْطَعْ الرَّكَبْ هَرَضَه
وَلَيْلَتِ الْفَضَا يَوْمَ ارْتَعَلَنَا تَقَاسَرَتْ
لَقَدْ كَانَ فِي جَنْبِ الْفَضَا لَوْ دَنَا الْفَضَا

يرد لفظ الغضا مرة في البيت الأول ثم مرتين في البيتين الثاني والثالث ثم ثلاث مرات في البيت الرابع ايقاعاً بعديات لزيادة التعلل باللفظ والاعراب عن اللوعة والعرقة . وفي القصيدة أبيات مؤثرة حقاً حين يتذكر الشاعر مواضع كان ينزلها حيे مجتمعين مع أنعامهم عشية ويسرّ حون الأنعام ترعي :

الا ليت شعري هل تغيرت الرحي رحى المثلث او أمست بفلج كما هي
اذا العي حلوكها جميماً وانزلوا بها يقرأ حم العيون سواجيا
رعين و قد كاد القلام يعنها يسفن الغزامي مرة والأقاخيما

هذه الأبيات الثلاثة لوحة تصويرية تحتاج الى رسام مثل جان فرنسوا ميلي الفرنسي كي ينقلها الى مجال البصر كمارسم لاقطات السنبل ساعة الغروب .

وقبل مالك بن الريب النجدي كان عبد يغوث فارساً جاهلياً يمانياً وسيد قومه من بني العارث وشاعرًّا بليناً وقد أسرته يوم الكلاب الثاني قبيلة تيم . فلما تبين له عزمهم على قتلته ناداهم : يا بني تيم اقتلوني قتلة كريمة . قالوا : وما تلك القتلة ؟ قال : اسوقوني الخمر ودعوني أنوح على نفسي فجاوه بالشراب وسقوه وقطلوا عرقه الأكحل وتركوه ينزف ومضوا . فقال قصيده المشهورة التي قصيدة مالك على وزنها ورويها . وأولها :

فما لكم في اللوم ما بيا الا لا تلوماني كفى اللوم خير ولا لينا
الم تعلما ان الملامة نفعها قليل وما لومي أخي من شماليَا
فياراكبا اما عرضت فيلتفن نداماي من نجران ان لا تلاقينا

قال الجاحظ في البيان والتبيين: ليس في الأرض أعجب من طرفة بن العبد وعبد يغوث . فان ذلك اذا قسنا جودة أشعارهما في وقت إحاطة الموت بهما لم تكن دون سائر أشعارهما في حال الأمان والرفاهية⁽¹¹⁾ .

ونحن نزيد على قول الجاحظ مالك بن الريب .

وكلما قرأت قصيدة مالك وقصيدة عبد يغوث تمثلتها لعنين جنائزيين عند الغربيين يذكرا نبي اللعن الجنائزي الذي كتبه الموسيقي النمساوي المشهور متشارت وهو يكابد غصص النزع وي Mane كرب الموت .

نجد بلد العشق والمشاق . أذكر أن أول شعر حفظته في صبائي بالمدرسة الابتدائية كان شعر ابن الدمينة . وما يزال هذا الشعري يرن في سمعي وفي خاطري:

فقد زادني مسراكِ و جداً على وجلي
على فن غض النبات من الرند
وذبت من الوجه المبرح والصد
جزوعاً وأبديت الذي لم تكن تبني
يمل وأن الناي يشفى من الوجه
على أن قرب الدار خير من البعد
إذا كان من تهواه ليس ببني ود

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد
ان هتفت ورقاء في رونق الصعي
بكية كما يبكي العززين صبابية
بكية كما يبكي الوليد ولم تكن
وقد ذعموا أن المعجب اذا دنا
 بكل تداوياً فلم يشف ما بنا
على أن قرب الدار ليس بنافع

وكيف لا تكون نجد بلد العشق وفي نسائها صباحة وفي رجالها عفة ! وكيف لا تكون كذلك وبنات نجد شهيرات بالجمال الطبيعي : عيون سود سافية وثبور نقية وقدود مائسة وضفائر مسبلة على الكتفين وحديث ناعم وشذا فاغم أو كما وصفهن أحد بنى عذرة : محاجر بُلْجَ ترشق بالأعين الدُّعْج فوقها الحواجب النُّرُج وتحتها المباسات الفُلُج وشفاه سمر تفتر عن ثنايا غير كأنها بَرَد أو دُر^(١٢).

وكأنما أشار إلى هذه المعاحسن أبو الطيب المتنبي في قوله :

حسن العضارة مجلوب بتطرية
وفي البداوة حسن غير مجلوب
مضغ الكلام ولا صبغ العواجيب
أفلبي قباء فلاة ما عرفن بها
تركت لون مشيبي غير مغضوب
ومن هوى كل من ليست مُمَوَّهَة
رغبت عن شعر في الرأس مكتوب

الصور والاستعارات والتاشية التي يستعملها الشعراء في نجد مأخوذة من بيئتهم الطبيعية الساحرة ؛ يتذكر جميل كلام بشينة وَعَدْها له ويذكر حين سمعه ثغرها يفتر كوميض البرق ولكنه وميض خلب :

وكان طارقها على عجل الكرى والنجم وهنا قد دنا لتغور
يستاف ريح مدامنة معجونة بذكري مسك أو سعيق العنبر

انني لا حفظ فيكم ويسرنى اذ تذكرين بصالح ان تذكري
ما انت والوعد الذي تعديننى الا كبرى غمامه لم تمطر
اما جبه لها فهو خالد

يهواك ما عشت القواد فان امت يتبع صدای صداك بين الاقبر

ويذكر عنترة حبيبته وبنت عمها عبلة وابتسامها له وهو في اخرج المواقف
شجاعة وبطولة وإقداماً فيقول ما هو أحلى شعر حماسي معروف :
ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي
فوعدت تقبيل السيف لأنها لعست كبارق ثغرك المتسم

وسيد المشق الانساني في العالم كله قد يه وحديثه يمثله حقيقة او رمزاً قيس بن الملوح ، قيس الجنون ، مجنونبني عامر ، أخباره ملأ الكتب والروايات .
قييل من الجنون برجلين قد صادا ظبية فربطاها بجعل وذهبها . فلما نظر اليها وهي تركض في حبالهما دمعت عيناه وقال لها حلاً ما وخذنا مakanها قلوصاً من إبلٍ :
فأعطاهما حلاً ما ، فولت تعدو هاربة فقال وهو ينظر إليها وهي تعدو :
أيا شِنَه ليلي لا تُزْعِمِي فانتي لك اليوم من وحشية لتصديق
ويا شبَّه ليلي لو تلبثت ساعة لعل فؤادي من جواه يفيق
تفرَّ وَقد أطلقتها من وثاقها فانت لليلى لو علمت طيق

وقدرأينا كيف أن الوحش في الجزيرة العربية تندو أهلاً وأصدقاء لفريق
من الناس تتعايش معهم وتأكل من زادهم فكيف بالظباء والوعول والماها السائنة في
أرجاء تلك الواحات والرمال ! إنها صور للتأمل والاعجاب .

بيد أن نجداً على اتساعه ورحب أراضيه يضيق بالمحب الهيمان :
تكاد بلاد الله يا أمَّ مالكِ بما رَحْبَتْ يوماً علىْ تضيق
وعندئذ لا بد من التداوي والتتعلّم والتسلّي ما أمكن بالسياحة وبالشعر .

يرى الجنون السيل فتجري دموعه كالسيل حينينا الى الوادي الذي سال منه
ومر بالقرب من حي العبيبة . ويحوّل الحب ماء السيل الأجاج عذباً طيباً عند
مروره به :

جرى السيل فاستبكاني السيل اذا جرى
وما ذاك الا حين ایقنت انه
يكون اجاجا دونكم فاذا انتهى
اقل غريب الدار في ارض عامر.

واهضت له من مقلتي فسروب
يكون بواه انت منه قريب
اليكم تلقشى طيكم فيطليب
الاكل مهجور هناك غريب

وكم ارتاد قيس جبل التوباد وكان يرعى هو وليلي غنمهما عنده لما كانا
صفيرين حتى صار الجبل ذاته وهو جماد يستعصم كثرة اختلافه اليه :

وأجهشت للتوباد حين رأيته
ونادى باعلى صوته فلعناني

وكم علا سفعه وصعد في شعافه ! وكم أشرف أيقاعاً أخرى !
فما أشرف اليفاع الا صبابة ولا انشد الأشعار الا تداويا
ومع ذلك فلا بد من بصيص الأمل مadam في المحب رقم :
وقد يجمع الله الشيتين بعلما يظنان كل القلن ان لا تلاقيا
روى صاحب كتاب الأغانى قال (١٢) :

أخبرني عمي قال حدثني الكرانى قال حدثنا العمرى عن الهيثم بن عدى
وأخبرنا حبيب بن نصر المھلبي وأحمد بن عبد العزيز الجوهري قالا حدثنا عمر بن
شبة قال ذكر الهيثم بن عدى عن أبي مسكين قال :

خرج منا فتى حتى اذا كان بيثر ميمون إذا جاءه فوق بعض تلك الجبال وإذا معهم
فتى أبيض طوال "جَعْدٌ" كأحسن من رأيت من الرجال على هزال منه وصفرة . وإذا
هم متعلقون به . فسألت عنه ، فقيل لي : هذا قيس المجنون خرج به أبوه يستجر
له بالبيت وهو على آن يأتى به قبر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ليدعوه له
هناك لعله يكشف ما به ، فانه يصنع بنفسه صنيعاً يرحمه منه عدوه ، يقول :
آخر جوني لعلى أتنسم صبا نجد فيخرون فيتوجهون به نحو نجد ، ونحن مع ذلك
نخاف أن يلقي نفسه من الجبل . فان شئت الأجر دنوت منه فأخبرته أنك أقبلت
من نجد . فدنوت منه ، وأقبلوا عليه فقالوا له : يا أبا المهدى ! هذا الفتى أقبل

من نجد . فتنفس تنفسة ظننت أن كيده قد انصدعت . ثم جعل يسألني عن وادٍ
وموضع موضع ، وأنا أخبره وهو يبكي أخر بقاء وأوجهه للقلب ، ثم أنشأ يقول:

لطول الليالي هل تغيرتا بعدي
ألا ليت شعري عن عوارضتي قتنا
على عهEDA أم لم تندوما على العهد
وهل جارتانا بالبتيل الى العمى
بريج الغزامي هل تهبا على نجد
وعن علويات الرياح اذا جرت
اذا هو أسرى ليلة بشري بعد
وعن القوسان الرمل ما هو فاعل
وهل انقضنَ الدهر افنان ملتي
على لاحق المتنينِ متلقي الوحد
وهل أسمعن الدهر أصوات هجنة
تحدر من تشنز خصيب الى وهد

* * *

غدا نجد ورباه ونسيمه الفاظاً شاعرية يستعملها الشعراء لتزيين نسيبهم .
قال القاضي أحمد بن الحسين الأزرGANI في مطلع قصيدة :
اضم على قلبي يلني من الوجد اذا ما سرى وهنا نسيم د'يا نجد
وقد يقابلون بيته وبين تهامة وبين الانجاد والاتهام في باب المحسنات
البدعية يقول أبو تمام :

وانجدتم من بعد اتهام داركم فيما دمع انجدني على ساكتي نجد
ويقول صاحب القصيدة اليتيمة (الدعدية) :
ان تنهمي فهامة وطنى او تنجدلي ان الهوى بعد

* * *

لزايا نجد ومفاتنه الشعرية تلك التي قدمنا إضمامة منتقة منها نهد
صدقينا الشاب الأديب الدبلوماسي السيد خالد المخنن الى جمع الأشعار التي ورد
ذكر نجد فيها محبة منه لوطنه وإجلالاً لتلك العواطف الطيبة النبيلة المتاحة
التي اعتلجم بها صدور الشعراء مواطنيه القدماء وإكراماً لتلك المشاعر العرة
الصادفية التي خامت نفوسهم . ومن حق الأبناء وكرم طباعهم ونبيل غرائزهم

وسباحة أخلاقهم أن يجرروا على سَنَنِ الآباء ويعافظوا على عهود المعبه والآلة
والانتماء . هذا ولو فكر في جمع الأشعار التي وردت فيها أسماء الموضع في نجد
لاستفاضت بها دواوين كثيرة .

وقد قفَّى على ماجمعبه بترجمة طائفة من أولئك الشعراء المشاهير تنويهاً
بأنسائهم وتخلidiaً مؤكداً لذكراتهم ومجيداً لبلاغتهم ورهافة إحساسهم ، مع
أن قسماً لا يأس به من الشعراء الذين تَقْنَّوا بِنَجْدٍ ومفاتنه مجهولون . على
أنه بذلك قدَّمَ يدأ بيضاء وخدمة جلىًّا لمن يحلو لهم مطالعة أوابد الشعر العربي
المؤثر التليد وترعرَّفُ نُبَذَ من حياة أعلامه الأصلاء الحالدين .

إن سائر البلاد العربية والإسلامية عندنا مقدسة مجده بالعلماء والمصلحين
والأدباء والشعراء والفنانين الذين عاشوا في أرجائها الواسعة وبما عَبَدَ الله فيها
حق عبادته . ولا شك أن الجزيرة العربية هي مهد الحضارة العربية الإسلامية التي
قل أن تفوقها حضارة بما عرف فيها من قيم إنسانية فضلى ورائحة .

قلنا آنفاً إن نجداً قلب الجزيرة العربية . أما الحجاز فهو روحها المستسرُّ بل
هو في رأينا روح العالم أجمع .

* * *

يساورني وأنا أختتم هذا الحديث جرس بيت القشيري الذي مرَّ
آنفاً :

وليست عشيَّات العُمَى برواجعٍ عليك ولكن خل عينيك تدمعا

فأثرور به حين أتأمل مكباتنِ البَلَادِ الْعَرَبِيَّةِ وطاقاتها الكامنة وقوتها مبتعمة

وأجيالها مُشَرَّبةً مستشرفةً متحفزةً فأنشدَ :

لعمرك تلك الأرض مهد قلوبنا نعنِّيهَا حالي وختَّعا

وكم من عشيَّاتٍ تصرَّمنِ رؤوها تفتحت الدنيا عليها نضارة

إلى أن يعود العيش فينسان أروعا سنجهد وسْعَ النَّفْسِ فِي خلعةِ العلا

وسوف يقول المجد أبهى وأبدعا عصور تقصَّتْ كُنْ بايَّدْ حَفْتَلا

ونعَاوَلْ أن نبني حياةً كريمةً نعَاوَلْ أن نبني حياةً كريمةً

نَجُومٌ خَلَالِ اللَّيْلِ ضَوَّانٌ بِلْقَعَا
يَحْقِقُ جَيْلَ مَجْدَنَا الْمُسْتَطَلِّعا
نَصْوَنَ قُلُوبًا أَنْ تَسْوُهُ وَتَطْبِعَا^(١)
طَوَالَ الْمَدْنَى نَهْدِي سُرَّاً وَضَيْعَا

وَأَحَلَّمَنَا هَذِي تَرْفٌ كَانَهَا
نَعِيشُ بِهَا حِينَا وَنَمْضِي لِعِلْمَا
إِذَا أَفْسَدَ الْفَسِي الْقُلُوبُ فَانْسَا
وَلَوْ شَحَضُوءُ النَّعْمَ كَنَا وَلَمْ نَزِلْ

★ ★ ★

□ العواشي :

- ١ - منع واد يصب من النهاء ، وسلمي أحد جبل طيء وهو اجا وسلمي . وهو في شمالي نجد على تل منع ما كان يعني بلاد الشام .
- ٢ - كتاب النبات للأصمسي ، تحقيق عبد الله يوسف الفتيش من ٣٠
- ٣ - جاء في كتاب «جمهورية اشعار العرب» (ص ٣٤) قال أبو عبيدة اشعر الناس اهل الورب خاصة وهم أمرؤ القيس وزهير والنابية . فأن قال قائل ان أمرؤ القيس ليس من اهل نجد فلمعري ان هذه الديار التي ذكرها في شعره دياربني اسد بن خزيمة .
- ٤ - الأغاني طبعة دار المكتب ج ٣ ص ٧٤
- ٥ - نجد ذكر باعتبار لفظه وأنه بلد ويعود فيه التأثير باعتباره أرضا أو هضبة أو بلادا .
- ٦ - نهاية الأدب ج ٣ ص ٢٨
- ٧ - علينا : نسبة إلى عالية نجد جاء على غير قياس . وربما غاب هذا النسب عن كثير من الناس . وعالية نجد اسم لكل ما كان من جهة نجد من المدينة من قراها وعماراتها إلى تهامة فهي العالية . وما كان دون ذلك من جهة تهامة فهي السافلة . وقد كانوا أيضًا على قياس (معجم البلدان والقاموس المحيط) .
- ٨ - معجم البلدان مادة حزن يربوع . والصومان أرض عذبة فيها غلظ وارتفاع وفيها قيمان وخياري تبت السلسلي . ورياض مشبحة . وكانت الصمان في قلب النهر لبني حنظلة والحزن لبني يربوع والنهاه لجماعتهم . والصومان متاخم للنهاء . والشرف في الأصل المنفوذي المكان المرتفع . وهو هنا كبد نجد وكان منازل بني أكل المزار من ملوك كندة .
- ٩ - في نسخ معجم البلدان مادة قرقى اطلالن وهو تصحيح اطلالن جمع ظل . وبجمع الظل ايضا على ظلال وظلول .
- ١٠ - في نسخ معجم البلدان بطول وهو تحريف بطنون .
- ١١ - البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٩٨
- ١٢ - ذهن الآداب - المطبعة الرحمانية - نشر ذكي مباركه طبعة ١ - ج ٣ ص ١٤٢
- ١٣ - الأغاني ج ٢ ترجمة الجنون .
- ١٤ - تطبع : تدنس .

★ ★ ★

— تصحيح —

الرجاء قراءة السطرين العشرين والواحد والعشرين في الصفحة (١٨) من المدد السالف (٥١) على الشكل الآتي :
ولا بد من أن يمن الزمان في المصوّر المصطربة بكاتب وشاعر فكه فجاء أبو الحسن علي بن سودون الجركسي ..

وحسناً أني تسلّم

دراسة: محمد كمال

بدأت فكرة الاختيارات الشعرية منذ العصر الأموي بدعوافع متفاوتة الأهمية مختلفة المقاصد، فمنها ما يتصل بالنزع القبلي وما يقتضيه من ضرورة الحرص على مآثر القبيلة وفضائلها وتغليب مكارها، وهذا لا يكون إلا بجمع أشعارها المتفرقة والعفاظ على دواوين شعرائها أن كانوا من المكثرين، فقد ذكر صاحب «الفهرست» أن الشيباني جمع أشعار أكثر من ثمانين قبيلة، وأن السكري جمع أشعار ذهل وشيبان وكثانية وغيرها من القبائل، كما جمع دواوين أمراء القيس والفرزدق وغيرهما من الشعراء، ومنها ما يتصل بالتاريب الغلقي العام وما يستتبع من تعليم الفصاحة والبيان وتربية النشء على مآثر الأجداد وفضائلهم، ومن هذا النوع كتاب المفضليات الذي جمعه المفضل الضبي مؤدب المهدى بن المنصور، فأشار عليه المتصور بأن يختار لكل شاعر أجود ما قال، فانفرد المفضل أشارته فكانت المفضليات^(١)، ثم تلا تلو المفضل الضبي في هذا النهج عبد الملك بن قريب الأصمي فصنع الأصميات، وأبو زيد القرشي فصنع جمهرة أشعار العرب، ومنها ما يتصل بالغوف على اللغة وبعد اتساع الدولة وتمازج الشعوب من أن تشوبها العجمة فتذهب بفصاحتها وصفاتها، فنهض العلماء يثبتون قواعد اللغة والنحو مؤيدة بما وصل إليهم من فضيح الشاعر جاهليه ومغفرمه، ولو لا القرآن الكريم وهذه المجموعات الشعرية لاختلت موازين اللغة وضعفت السلاطق وحار الدليل.

على أن هذه الاختيارات بالإضافة إلى الملقات لم تكن إلا اشتغالاً مختلطة من جبار القساند وروائع المقطمات لا تقوم على وحدة تقصد ولا نسق يراد، إلى أن جاء أبو تمام شاعر العربية الكبير فوضع ديوان العمامة، فكان أول اختيار يقوم على التصنيف والتبويب

(*) استاذ اللغة العربية.

ويعتمد على الفنون الشعرية الرا migliحة التي بلفت في ذلك المسر غاية الامتياز والوضوح، ثم اتبعه بالوحشيات وهو الحماسة الصغرى التي ستف عندها بعد قليل .
وكان ذكره الحماسة قد راقت عدداً من الأدباء بعد شيوخها وانتشارها وتدين أهميتها، فنهضوا يقلدونها ويؤلئون على غرارها كتابيسوها الحماسة أيضاً جمعوا فيها ما تناوله من القصائد والمقطمات التي تجمع شرف المعنى وسمو المقصود ونادر الفرض إلى براعة الأداء وجمال المبارزة وحسن التعبير ، حتى بلفت هذه الحماسات عشراً هي بحسب تتابعها الزمني : « حماسة البعثري ، وحماسة أبي بكر بن المربان ، وحماسة أحمد بن فارس القزويني ، والحماسة العسكرية لأبي ملال العسكري ، وحماسة الظرفاء من أشعار المحدثين والقدماء لأبي محمد عبدالله البذكاري الروزنبي ، وحماسة الأعلم الشنتربي ، والحماسة الشجرية لهبة الله الملوى بن الشجري ، والحماسة البصرية لصدر الدين البصري ، والحماسة المغربية لأحمد بن عبدالسلام الجراوي والحماسة للعباس بن علي البغدادي النجفي »^(٢) .

على أن هناك مجموعات أخرى من المنتسبات والمختارات بلفت الثلاثين تقريباً لم تلتزم بتسمية الحماسة وكان لها الفضل في جمع الشعر العربي وحفظه إذ لا تزال مصدراً من المصادر التراثية الواقية .

وهذه الحماسات منها ما تلزم أو قارب الالتزام بمنهج أبي تمام في تقسيمه حماسة وتسمية أبوابها ، ومنها ما شذ عنه شذوذأ بعيداً ونحو نعوا آخر وفقاً لقواعد ذوقية أو أسس فكرية خاصة ، فإذا كان أبو تمام قد جمل حماسته في عشرة أبواب هي : باب الحماسة فالمراثي فالأدب فالتشبيب فالهجاء فأفضياف والمديح فالصلفات فالأسير والنعاس فالمطلع فنذمة النساء فإن الشاعر البعثري قد فصل وأوسع فجعل حماسته في منه وأربعة وسبعين باباً ، وإن ابن الشجري قد جمل حماسته في خمسة عشر باباً وعشرين فصلاً ، أما الوحشيات فقد جاءت مطابقة في عدد أبوابها وتسمياتها للحماسة الكبرى ، مع تغير طيف تسمية الباب الثامن وهو باب السير والنعاس ، إذ أطلق عليه أبو تمام في الوحشيات باب المشيب .

ولقد طارت شهرة الحماسة في الآفاق وانتزعت اعجاب القدماء من رجال الأدب واللغة ، وتناثرت الآراء على أهميتها حتى « وقع الإجماع من النقاد على أنه لم يتفق في اختيار المقطمات أنقى مما جمعه أبو تمام »^(٣) ، كما حكى الصولي أنه سمع المبرد يقول : سمعت الحسن بن رجاء يقول : ما رأيت أحد أقطط أعلم بجيد الشعر قد يمه وحديثه من أبي تمام »^(٤) ، ونقل التبريزي « أن أبي تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره »^(٥) ، بل إن كتاب الحماسة أصبح مضرب المثل في الحسن والاتقان ، فهذا البيهقي يترجم للقبصي أحد علماء الفلك في عصر سيف الدولة ويثنى على كتابه « المدخل إلى علم النجوم » فيقول « وهو في كتب النجوم مثل كتاب الحماسة بين الأشعار » .

فكان لا بد للحماسة بعد ذلك أن يشمل للعناية بها وشرحها عدد من العلماء اختلاف مذاهبهم وتنوعت اتجاهاتهم واهتماماتهم ، فمنهم من شغلته المانعية الشعرية فأقبل يفسرها

ويوضحها ، ومنهم من قصر شرحه على مسائل الاعراب أو اللفظ ، ومنهم من تتبع النصوص فذكر الأخبار والأسباب التي قيل من أجلها الشعر ، ومنهم من وقف شرحه على تصحيح نسبة الأبيات الى أصحابها مع العناية ببيان اشتقاق أسمائهم ، فلا غرابة اذا رأينا الأستاذ فؤاد سizar كين يحفظ لنا في سفره الجليل « تاريختراث المربّي » أسماء هذه الشروح التي بلغت ستة وثلاثين شرحاً(١) ، على أن شرحى المرزوقي فالتبيرى يعدان من أوسع هذه الشروح وأبديها شهرة وانتشاراً .

أما الوحشيات أو العماسة الصفرى فلم تدل ما نالته العماسة الكبرى من العظوة والاقبال ، ولم يلتفت إليها العلماء بالشرح والدراسة ، وقد يعزىها بعض المزاء أن أدبها كبيراً في عصرنا الحاضر هو الأستاذ عبد الله الطيب قد أصدر مجموعة مختارة من الشعر العربي أطلق عليها اسمه « العماسة الصفرى » ، والأشد من ذلك أن كتاب الوحشيات لم يأت على ذكره أحد من رجال الأدب القدماء إلا التبريزى في مقسمة شرح العماسة ، والقاضى الباقلانى في كتابه امجاد القرآن : ١٢٧ ، والعينى في شرح شواهد الآلئفة بهامش الخزانة : ب ٢ ٤٠٤ ، أو لم يذكر في مواضع أخرى لم تكتشف بعد(٧) ، هذا مع أن آبا تمام كان قد اختاره كما يقول ناسخه البوازيعي بعد اختياره كتاب العماسة الكبيرى ولم يروه ، ولكن وجد بهذه مكتوباً في مسودة بخطه مترجمًا بكتاب الوحشيات ٠

الآن الزمان أبي الا ان يتصف للوحشات وينتشرها من مفاور النسيان او الاممال لترى
النور زاهية بهية في افراجها أنيقة في طباعتها، اذ اتيح لها عالم جليل ومحقق ثبت عرف
بالغيرة على التراث الأدبي هو الأستاذ عبد العزيز الميمني الراجحكتي أستاذ اللغة العربية
في جامعة عليكـهـ الهندـ فقد حق أبيانها تخريجاً وضبطاً، وأشار الى أصولها في كتب
الأدب ومجاميع الشعر، ورد بعض مقطعاتها الى أصحابها، وذكر ما فيها من خلاف في
الرواية بعد سبر لنور معاناتها بمبمار القهم والروية ، معتقداً في ذلك كله على نسخة
فریدة في دار الكتب المصرية بصورة عن الأصل المحفوظ بكتبةخانة السلطان احمد الثالث في
استانبول ، ثم نهض علامة هذا المصير المحقق الأستاذ محمود شاكر فزاد في حواشيه بما عنـ
له من اشارات علمية وتنبيهات ذكية ، ومن بعض الشروح المارة لغوانمض الألفاظ التي
تفنى النص وتزيده جلام ووضحاً ، ثم أعيـد النظر في العمل بعد تمامه والفراغ منه
فاستدرك المـالـانـ البـلـلـانـ علىـ العـواـشـيـ ماـ يـكـنـ أنـ يـضـافـ اليـهاـ منـ حـمـيلـةـ المـراجـعـةـ
والتـقلـيبـ فيـ المـصـادـرـ الـأـدـبـيـةـ بـعـدـ روـيـةـ وـأـنـاءـ ،ـ وـالـعـقاـهـ هـذاـ المـسـتـدـرـكـ فيـ أـخـرـ الـكـتـابـ ،ـ ثـمـ
أـتـيـعـ بـعـسـخـةـ فـهـارـسـ تـفـصـيـلـةـ تـمـيـنـ أـولـيـ الـبـحـثـ وـالـدـرـاسـةـ ،ـ فـاجـتمـعـ بـذـلـكـ جـهـدـ الـىـ
جـهـدـ ،ـ وـفـقـلـ الـىـ فـضـلـ ،ـ ثـمـ دـفـعـ الـكـتـابـ إـلـىـ دـارـ الـمـعـارـفـ فيـ مـصـرـ قـظـهـرـ بـذـلـكـ جـهـدـ الـىـ
وـالـثـلـاثـيـنـ مـنـ سـلـسلـةـ ذـخـائـرـ الـعـربـ سـنـةـ ثـلـاثـ وـسـتـ وـسـمـانـةـ وـالـفـ .ـ

ومع ذلك فإن منهج العمل فيه ظل قائماً على التحقيق والضبط وتقديم النصوص الشعرية على صورتها المثلثى ، وهو بعد بحاجة الى مزيد من الشرح والتفسير والإيضاح مما يتسم العمل ويقاربه من حدود الكمال^(٨) .

فلترجع الى ذلك الزمان ولندع التبريزى في مقدمة شرحه للحمسة يحدثنا عن الظروف والملابسات التي أدت الى تأليف هذين الكتابين ٠

يقول التبريزى : « وكان سبب جمع أبي تمام الحمسة أنه قصد عبد الله بن طاهر وهو بغراسان فمدحه ٠٠٠ وعاد من خراسان بيريد المراق ، فلما دخل همدان اغتنمه أبو الوفاء بن سلمة فأنزله وأكرمه ، فأصبح ذات يوم وقد وقع ثلج عظيم قطع الطريق ومنع السابلة ، فعم أبي تمام ذلك وسر أبو الوفاء ، فقال له : ومن نفسك على المقام ، فان هذا الثلج لا ينحصر الا بعد زمان ، وأحضر خزانة كتبه فطالها واشتبكل بها وصنف خمسة كتب في الشعر منها كتاب الحمسة والوحشيات وهي قصائد طوال فيقي كتاب الحمسة في خزائن آل سلمة يضمنون به ولا يكادون يبرزونه لأن حدحتي تغيرت أحوالهم ، ثم ورد همدان رجل من أهل دينور يعرف بأبي العواذل فظفر به وحمله إلى أصبهان ، فاقيل أديباً لها عليه ورفضوا ما عداه من الكتب المصنفة في معناه ، فشهر بهم ، ثم فimin عليهم)٦(٠

اما بقية خمسة الكتب التي ذكرها التبريزى لأبي تمام عدا الحمسة فهي كتاب اختيارات الشعراء الفحول أو فحول الشعرااء تلقط فيه محاسن شعر الجامليه والاسلام فأخذ من كل قصيدة شيئاً ، حتى انتهى إلى ابراهيم بن هرمة (١٠) ، وكتاب الاختيار من اشعار القبائل ، يقول الأمدي عنه : « اختار فيه من كل قبيلة قصيدة وقد مر على يدي هذا الكتاب » (١١) ، وكتاب نقائض جرير والأخطل الذي ثبت أنه منسوب إليه خطأ ٠

لقد كان أبو تمام اذا واحداً من الأعلام الأفتذاذ في الشعر والأدب ، التقت في شخصيته الأدبية تباريات ثقافية متنوعة كان المجتمع العربي آبان العصر العباسي يتفتح عليها ويفتحي بكتوزها ، فنهل من الثقافة العربية علوم القرآن والحديث واللغة والمنطق وعلم الكلام ، بالإضافة إلى الموروث الشعري الذي جمع ألوان الحكم وفنون البيان ، ونهل من الثقافة اليونانية الفكر الفلسفى بما فيه من جدل عقلى ومطاراتحات ذهنية ، ظهر ذلك كله جلياً في مذهبة الشعري من حيث احتفال شعره بالمعانى المكثفة مما يحتاج إلى استنباط وشرح وتفسير ، فخرج بذلك عن مذهب الطبع والمفوية إلى مذهب الصنعة والتحكم المقللي ، وتروي كتب الأدب أنه كان رجلاً يدعى لمواهبه كل ما تحتاجه من خبرة علمية وعمرفة فكرية ، ففري بالكتب والمطالعة وعمق ملته بكل ما يمت إلى فن الشعر ويعقوي الملكة ويرشد الموهبة ، يقول ابن المعتز وهو يترجم لأبي تمام في طبقاته : « حدثني أبو الفحسن محمد بن قدامة قال : دخلت على حبيب بن أوس بقزوين وحواليه من الدفاتر ما غرق فيها فما يكاد يرى ، فوقفت ساعة لا يعلم بمكاني لما هو فيه ، ثم رفع رأسه فنظر إلى وسلم علي ، فقلت له : يا أبو تمام ، إنك لتنظر في الكتب كثيراً وتدينمن الدرس ، فما أصبرك عليها ! فقال : والله ما لي إلّا غيراً ولا لذة سواها ، وإنّي لخليق إن أتقدها أن أحسن ، وإذا بحزمتين واحدة عن يمينه وواحدة عن شماليه ، وهو منهك ينظر فيما ويميزهما من دون سائر الكتب ، فقلت : فما هذا الذي أرى من عنائك به أو كد من غيره ؟ قال : أما التي عن يميني فاللات ، وأما التي عن يسارى فاللات أعبد هما منذ عشرين سنة ، فإذا عن يمينه شعر مسلم بن الوليد صريح الغواني وبعن يساره شاعر أبي نواس » ٠

وهذا الخبر يجد ما يؤيده في قول الأمدي : « فهذه الاختيارات تدل على عنایته بالشعر ، وأنه اشتغل به وجعله وكره ، واقتصر من كل الأداب والعلوم عليه ، وأنه ما فاته كثير من شعر جاهلي ولا إسلامي ولا محدث إلا قرأه وطالع فيه » (١٢) .

أما تسمية الكتاب بالوحشيات فلأنه ضم بين دفتنه شوارد من الشعر ومقطمات منها ما عرف قاتلورها ، وان كانوا من المفترىين المقلين من شعراء الجاهلية والمصر الإسلامي ، ومنها ما ظل غفلاً من النسبة لم يعرف قاتلورها ، فكان قارئها لم يأثر بها من قبل ولم تلامس سمعه ولم تستطع نظره ، وان كانت للشهيرين المروفيين من الشعراء ، ففيها نقح على أبيات لمعن وبن معن يكرب وبشار بن برد والفرزدق وجريش وكثير عزة وأبي نواس ومسلم بن الوليد والمجنوش وأبي العناية .

وأما تسميتها بالحمسة الصغرى فلأنه لا يختلف عن كتاب الحمسة منهجاً وتبويباً ، فكلها اختيارات موسعة لا يقف عند قبيلة واحدة أو شاعر واحد ، وإنما يجمع من الشعر ما ينبع شاهداً على ذوق أبي تمام وعمق فنه لفن الشعر ودوره في الحياة الإنسانية ، لا سيما في حياة العرب الذين لم يكن لهم فن سواء ، فكان مستودع أحلامهم ومستقر تصوراتهم ، على أن الوحشيات أضيق حجمًا من الحمسة وأقل عدد مقطمات ، فإذا كانت الحمسة الكبرى قد بلغت نحوها من ثمانية وأحدى وثمانين مقطوعة فإن الوحشيات قد بلغت خمسة وثلاثة مقطوعات ، الا أن باب الحمسة من الأبواب المشرقة قد جاء في متة وتسعم وتسعين وحشية ، وذلك لأن هنا الباب أوسع من غيره في الشعر العربي بشكل عام .

« ولكن العجب كل العجب من التبريري حين وصف الوحشيات بأنها تصائد طوال ، وهذا ما يجعلنا نشك في اطلاعه عليها » (١٢) ، اذ هي في الغالب الأصم تتراوح عدة أبيات المقطوعة منها بين البيت الواحد وعشرة الأبيات ، ولم يكدر يخرج عن هذا المدد إلا أربعة تصائد بلغ أطوالها سبعة وأربعين بيتاً والثانية خمسة وثلاثين بيتاً والثالثة خمسة وعشرين بيتاً والرابعة عشرين بيتاً .

ويتبين من البحث في هذه المقطمات ما يلى :

١ - ان أبي تمام كان يكتفى أحياناً بغيره عدد محدد من الأبيات ينتقيها من قصيدة تروي في كتب الأدب تكون عدة أبياتها أكثر مما جاء في الوحشيات ، فنراه يروي لخلف الأحمر بيتن يهجو فيما قوله :

ناس تائرون لهم رواء تفيم سماؤهم من غير وبل
اذا انتسبوا ففرع من قريش ولكن الفعال فعال عكل

والأبيات سبعة رويت في عيون الأخبار وغيره من كتب الأدب ، كما يروي ثلاثة أبيات للمتبي يرثي بها أولاده الستة الذين فقدتهم فيقول :

ونكت ابا ستة كالبلور فقد فقووا امين العاصدين

فمرروا على حادثات الزمان كمر الدراعم بالنادي
وحسابك من حادث بامريء ترى حاسديه له راحمينا
وهي اثنا عشر بيتا في عيون الأخبار أيضا .

وهذا الانتقام يدل لدى الفحص على أن أبا تمام قد مضى في اختياره وفق نهج سبق يقوم على ابعاد فضول القول وخشوا الكلام والاكتفاء بما قيل من القصيدة ودل ، وأما بقية الأبيات فقد يراها تشتت التجربة وتفقد ها التركيز والإيجاز ، أضف إلى ذلك أن هذا المختار يسهل حفظه وترديده والاستشهاد به في مواقف العيادة الماثلة وأما أن ندعى أن أبا تمام لم يكن يعرف بقية الأبيات فهذا لا يقوم له دليل ولا تدعمه حجة وهو أقرب عهداً بهؤلاء الشعراء وأوسع معرفة وأكثر حفظاً للشعر، وقد عرفنا من قبل أنه لم يكن يكتفي بما تعلمه عليه حافظته ، بل كان قد أقبل على خزانة الكتب فطالعها واشغل بها كما يقول التبريري .

٢ - إن أبي تمام كان يعمل قوله في بعض المفردات الشعرية فيغيرها ويبدلها كما يحلو له ليستقيم المعنى ومتبدل الفكره ويأتي البيت في صياغته على حسب ما يرضي ذوقه ويعصب هواه ، ولقد كان المرزوقي في مقدمة شرحه للحمسة الكبرى قد تنبه لذلك وصرح به في قوله : « حتى إنك تراه ينتهي إلى البيت الجيد فيه لفظة تشينه ، فيجب نقيمه من عنده ، ويبدل الكلمة باختها في نقتده ، وهذا يبين لمن رجع إلى دواعيهنهم فقابل ما في اختياره بها » (١٣) . ثم نجد في شرحه للحمسة ذات الرقم (٣٤٧) يورد قول ابن العميد : « أني لأتعجب من أبي تمام مع تكلفه رم جواب ما يختاره من الأبيات ، وغسله من درن بشعر الألفاظ ، كفت ترك تأمل قوله : فلillas نسوتنا ، وهذه لفظة تشينه » .

وقد وقع الأمر نفسه في الوحوشيات غير ما مرة ، وأشار إليه الأستاذ محمود شاكر في زياداته على الحوashi ، واتهم أبا تمام مرة بالتلخيط وأخرى بالافساد ، ففي الوحشية ذات الرقم (٣٩٧) لكمب بن ذي العبة النهدي روى أبو تمام البيت الأول على هذا النحو :

أترجو اعتذاري يا بن أروى ورجعتي عن العق قلما غال حلمك غول'

وروايته : « الى الحق دهراً » ، وذلك في تاريخ الطبرى (٩٧:٥) ومجام الشمراء للمرزبانى (٣٤٥) ومعجم البلدان مادة « دنياوند » ، ولا يخفى ماطراً على المعنى من اختلاف جراء اختلاف الرواية . وفي الوحشية ذات الرقام (٤٧١) روى أبياتاً في وصف أولها قول الشاعر :

يُكفيك من قلَّة السماء مهندٌ

وصواب الرواية كما في العيون (٨٨:٥) : « قلع السماء عقيقة » ، ويعلق الأستاذ محمود شاكر على هذا البيت بقوله : و « قلع السماء » قلع من السحاب كأنها الجبال ، و « المقنية » البرق يشق السحاب كأنه سيف مسلول ، وأما أبو تمام فقد غدَّ في الشعر فاقسده » .

ولكنني أرى أن المقصود في الأبيات التالية عائد إلى مذكرة لا إلى مؤنة ، إذ يقول الشاعر بعد ذلك :

صافي العديدة قد أضر بجسمه طول الدياس وبطن طير جائع
أمر المواطن والرياح بعمله فعملنه لمساير ومنافع

وهذا ما سوغ لأبي تمام فيما اعتقد تغيير الملفظ بما يتفق وسياق الأبيات ، هذا إلى أن رواية البيت في الأشباء والنظائر تطابق رواية الوحشيات .

ويعز ذلك فإذا صحت هذه التهمة على أبي تمام وأن هذا التغيير ليس من عمل الرواية أو النسخ فالنها لا تنهض حجة مؤذنة بوصم الشاعر بالخيال عن الأمانة في النقل والرواية ، وهذا الأستاذ عبد السلام هارون يقول : « وهذه التهمة : تهمة أبي تمام بتغيير النصوص التي اختارها والتي يدعهما المروي في أثناء شرحه بما يظهرها ويقويها كان جديراً بها أن تنزل بقيمة العحالة باعتبارها نصوصاً يستشهد بها في علوم اللغة والعربية ، ولكننا نجد العلماء مجتمعين على تزكية أبي تمام في العحالة ، وعلى تزكية العحالة ونصوصها ، بل يعدون صنيعه في العحالة داعية إلى الوثوق بشعر أبي تمام والاستشهاد بشعره ، وفي ذلك يقول الزمخشري : « وهو وإن كان محدثاً لا يستشهد بشعره في اللغة ، فهو من علماء العربية ، فأجمل ما يقوله يمنزلة ما يرويه ، إلا ترى إلى قول العلماء : الدليل على هذا بيت العحالة ، فيقتعنون بذلك لوثيقهم بروايته واقتانه » (١٤) .

٣ - اتنا نجد في بعض أبواب الوحشيات مقطمات يصعب أن تعد من الباب الذي هي فيه: الا اذا حاولنا أن ندبر البحث في مضمون هذه الأبواب وحقيقة تسمياتها مقررين أن قضية الفصل بين الفنون قضية وثيقة الصلة بالمعنى الشعري لا بالشكل والصياغة ، وأن نظر أبي تمام في فنون الشعر وأغراضه يتصل بالتمكن والاحكام ، وهو الغير يหมาย الشعر ، المدرك لآفاقه ومراميه ، اذ كان سباقاً إلى التمييز بين هذه الفنون على تشبعها أو تداخلها في كثير من الأحيان .

فهذا مثلاً بيتان للأحوس قد تضمنتها باب العحالة يقول فيهما (١٥) :

فيما بعل ليلي كيف تجمع سلمها وحربي وفيها بينما كانت العرب لها مثل ذنبي اليوم إن كنت مذنبها ولا ذنب لي إن كان ليس لها ذنب

فكيف نقتتنع أنها من العحالة والشاعر فيها يعرض طرقاً من مأساة حبه ، وينكر على زوج محبوبته أن يقابل زوجته بالمسالمة ويقابل الشاعر بالمحاضة وقد ثبت أن بينهما اتفاقاً في المواطن لا يواريه الشاعر ولا يتغى منه ، وربما كان بينهما تواصل ولقاء . وليس من المقبول أن يكون لفظ العرب في البيتين قد أدى أباً تمام إلى أن يسلكهما في العحالة .

والأعجب من ذلك أنتا نجد في باب الحمامة أيضاً أبياتاً نسبها أبو تمام إلى عيسى بن فاتك وهو رجل من الغوارج، يقصدون العرب إشفاقاً على بناته ، فهو يخشى اذا أصابته النوبة أن تنزل بهن الفاقة والبؤس والفقير ، وأن يعيش بهذه في كف جلف من الأعماق يظلمهن ولا يحسن اليهن ، فيقول(١٦) :

لقد زاد العيادة الى حبا
بناتي إنهن من الضعاف
أحاذر ان ينفعن البوس بعلني
وأن يشربن رنقاً بعد صاف
وأن يعربين إن كسي الجواري
فتتبوا العين عن كرام عجاف
وأن يضطربن اللهر بعلني
إلى جلف من الأعماق جاف
ولولا هن قد سومت مهري
وفي الرحمن للضعفاء كاف
تقول بنيني أوص الموالي
وكيف وصاة من هو عنك خاف

والحمامة في الأصل تعنى التشديد ، ثم كثر استعمالها واتسع معناها حتى صارت تطلق على الشجاعة التي هي الأولى من صفات العرب وأهم فضائلهم ، لما فيها من معنى الشدة على النفس والقرن ، وعلى هذا فإن آياً تمام حين اختار للحمامة لم ينظر إلى معناها الضيق المحسوس من الكروق والفر والإيقاع بالآقران والتصدى للخصوم في ساحات الحرب ، بل نظر إلى معناها العام ، والى بعض ما يتفرّع عنها من خصال كالنحوة والصبر على الأرزاء والمعنى والاعتزاز بالشهامة في وقت السلم وفي وقت الحرب ، وعلى ذلك فكان الشاعر الأحسون كان يرى من الحمامة أن يتحلى بعمل ليلي بالنحوة والشهامة والصبر على الأرزاء ، فيكتب غيظه ويكتأذاه ويكون له من عقله وحمله ضابط لما اشرأب في نفسه من غضب ونرق ، ما دامت الزوجة قد اشتراكـت مع الشاعر في الذنب ٠

ثم لمل هنا الشاعر الخارجي كان يرى من الحمامة التي تتضمن تلك المعاني السالفة أن يمكن إلى جوار بناته الضمليفات يرعاهن ويقيض عليهم من مشاعر الأبوة ما يكت عنده الأذى ويحفظ عليهم كرامتهن ، وإن حرمه ذلك من متنة الجهاد ومشاركة الفرسان في معاولة الآقران ، فهذا كهذا حمامة ونجدة وحبة ٠

ولقد كان المرزوقي قد أشار إلى هذه الظاهرة أيضاً في شرحه لديوان الحمامة اذا وقفت عند مقطوعتين تصوران عقوق الأبنية والديهم مما يتوجه أنها ليست من باب الحمامة في شيء فيقول(١٧) : « قان قيل : بماذا دخل هذه الأبيات وما يتلوها وهو في معناها في باب الحمامة ؟ قلت : دخلت فيه بالمشكلة التي بينها وبين ما تقدمها من الأبيات المتتبة عن المفاسدة بين العشير ، وما يتولد فيها من الاحن والضيقان ، المنسية للتواشح والتناسب ، المنشطة لهنك المعارض ، المبيعة لسفك الدماء وقطع العصم ، اذا كان عقوق البنين للأباء وتناسي العزم فيه مثل ذلك وهو ظاهر بين » .

ومع صلاح هذه التعليقات فان من الصعب ان نجد تسويفاً لوجود أبيات في الغمرة والدعوة الى الشراب قد سلكت في باب النسيب الا أن نقدر كما قدر أبو تمام أن النسيب منو الخبرة وتوأها في التأثير في النفس ودفتها الى حالة واحدة من الانتشاء^(١٨) ، كما قال الشاعر متغزلاً^(١٩) :

هي الغمر في حسن وكالغمر ديقها
ورقة ذاك اللون من رقة الغمر
وقد جمعت فيها خمور ثلاثة وفي واحد سكر يزيد على السكر

وقد نبه المرزوقي أيضاً الى دخول الحماضيات ذوات الأرقام (٤٧٨ و ٤٨١ و ٥٨٥) في باب النسيب وهي ليست منه .

٤ - أن آياً تاماً ساق هذه المقطمات عارية عن ذكر المناسبة التي قيلت فيها ، وبتعبير آخر : أسقط عنها الثوب التاريخي الذي تتلتفع به ، ثم جاراه في ذلك سائر أصحاب الحماضات والمخترارات ، ولقد نعلم أن الشعر العربي القديم ابداع وثيق الصلة بمعجزيات الحياة اليومية شديد الارتباط بالفشل الواقعى وبالتجارب الخاصة ، وأن ذكر المناسبة يضع القصيدة في اطارها الزمانى والمكانى ويسهل على المتلقى فهمها وتذوقها ، فبعض اللوحات الشعرية قد تتفلق فيها سبل التواصل بين الشاعر والقارئ ويعتصس اللوج اليها ما لم تقدم باشارة الى الواقعية التي حفزت الشاعر الى صياغتها وايداع أفكاره وعواطفه فيها ، وما أظن هذه الظاهرة التي تتبىءى في الوحشيات وفي العماسة أيضاً من قبيل الاموال أو السهو ، فربما تبين للتأمل أن شاعرنا الفذ كان قد قصد الى ذلك قصداً حين أدرك بذكائه المرهف وحسه الشعري النفاذ أن الإبداع الشعري أمر يختلف كل الاختلاف عن عملية تسجيل الواقع والأحداث ، فالشاعر يسمى الى تسجيل ما هو محتمل وممكن لا ماهو آني واقعي ، وبما أن الشعر يلهم ولا يسلم زراه ينبع الى الاثاره وتنمية الحس الجمالي بالحياة ، فكان آياً تاماً حين جعل هذه المقطمات تتسلل من خيام عصرها وتنقلت من ذاكرة زمنها أرادها أن تتعلق في زمن أرجح وعصير أوسع لتعل في ذاكرة المستقبل متتجدة ، ثم ليقف القارئ أمام الأبيات ، وليسخون منها يشاء وفق طبيعته وبنائه النفسية واستعداده الفني ، وليخرج منها بتصورات وانطباعات ربما تختلف او تتفق وتصورات الشاعر وانطباعاته في زمن القصيدة الخاص ، وبذلك يصبح الشعر نفسه باعثاً محضاً يهيمن على القارئ ويرجع وجداته وروحه ويفتحه في بورة الابداع والالهام .

٥ - أن لنا بعد ذلك كله أن نتساءل : ما المعيار الفني الذي اهتمى اليه أبو تمام في اختياره هذه المقطمات ، فالوحشيات كتاب ، والكتاب سواء أكان جمماً أم تاليناً يقوم على خطلة بينة ومنهج سديد ورؤى تحدد معالمه وتوحد أصوله ، وقبل الاجابة عن هذا السؤال يحسن بنا أن نتحرى الفروق بين القصائد والمقطمات ، اذ أن الوحشيات ومثلها الحماسة خلبت عليها المقطمات القصيدة التي تصل في بعض الأحيان الى بيت واحد مفرد ، فالقصائد غالباً ما تكون طويلة تصوّر تجربة شمولية ذات استشراف واسع يمتد فيها النفس وتكثر التفصيات ، وربما تشتمل على عدد من الأغراض والمواضيع ، ولهذا تقتضي المنية

الفنية وجودة البناء وحسن المدخل وبراعة التخلص والانتقال ، أما المقطمات فهي معاناة مبالغة تصور حالة انفعالية في موقف انفعالي عابر ، وإن كانت في الغالب حادة قاسية ، ولهذا تتضمن التركيز والتكتيف وتتطلب التعبير القائم على الاشارة والايجاز .

ولقد كان المرزوقي قد تعرّض لها المعيار وجعل له حيزاً في مقديمة شرحه للحمسة فرأى (٢٠) « أن أبا تمام كان يختار ما يختار لجودته لا غير ، ويقول ما يقوله من الشعر بشهوته ، والفرق بين ما يشهي وما يستجاد ظاهر » .

ففي هذا القول ما يدل على أن المرزوقي يرى أن مذهب أبي تمام في اختياره يختلف عن مذهبيه في شعره ، ثم نجأاً بعد مطردين من هذا الكلام يقوله : « وهذا الرجل لم يعمد من الشعراء إلى المشتهرين منهم دون الأغفال ، ولا من الشعر إلى التردد على الأفواه ، المجبib لكل داع ، فكان أمره أقرب ، بل اهتفت في دواعين الشعرا جاملهم ومحضرهم ، وأسلامهم ومولدهم ، واختطف منها الأرواح دون الأشباح ، واخترف الأشمار دون الأكمام ، وجمع ما يوافق نظره ويخالفه لأن ضرورة الاختيار لم تخف عليه ، وطرق الاحسان والاستحسان لم تستتر عنه » .

ولا يخفى ما في كلام المرزوقي من تناقض في الحكم وتعارض في الرأي على ما فيه من رغبة واضحة في انصاف أبي تمام ووصفه بالاعتلال والموضعية ، وعندى أن أبا تمام في اختياره لم يفادر في قليل ولا كثير مذهبـه الذي ارضاه لنفسه وطريقته التي استنـها في شعره ، فإنه وإن كان من غير المعقول أن يجد في شعر السايقين له من عاشوا في عصر غير عصره واغتنوا بثقافة غير ثقافته ما يتفق ومذهبـه كل الاتفاق من حيث الأكثـار من المجاز ، والاعتماد في الشعر على المقلـ ومقياسـه النطـقـية ، وعلى البـدـيع وما يـفـيد في تلـويـن المـعنـي وـتـشـيقـه لم يـالـ جـهـداـ فيـ الـبعـثـ عنـ الشـعـرـ الذـي يـنـصـرـفـ إـلـىـ الضـمـونـ دونـ الشـكـلـ ، والـىـ ماـ فـيـهـ مـعـنىـ جـدـيدـ فيـ تصـوـيرـ الـواقـعـ الـإـنسـانـيـ المـاتـازـمـ وـالـعـالـاتـ الـنـفـسـيـةـ المـتصـادـمـ ، وـالـعـدـولـ عنـ الشـعـرـ الذـي تـصـفوـفـ الـفـاظـ وـتـرـوـقـ عـبـارـاتـهـ وـيـطـربـ اـيـقـامـهـ ، وـفـيـ ذـلـكـ ماـ فـيـهـ مـنـ الـلتـزـامـ بـرـؤـيـتـهـ الـخـاصـةـ لـلـشـعـرـ وـمـوقـعـهـ مـنـ أـصـولـهـ مـاـ يـشـتـ أحدـ شـقـيـ كـلـامـ المرـزوـقيـ حينـ قالـ : « واختطفـ منهاـ الأـرـواـحـ دـوـنـ الأـشـبـاحـ واـخـتـرـفـ الأـشـمـارـ دـوـنـ الأـكـمـامـ » ، وـهـلـ كـانـ قـدـ أـبـيـ تمامـ فـيـ شـعـرـهـ ، إـلـىـ أـرـواـحـ الـمـانـيـ وـأـشـمـارـهـ دـوـنـ أـشـبـاحـ الـأـسـالـيـبـ وـأـكـمـامـهـ ، وـهـوـ الذـيـ يـصـفـ شـعـرـهـ بـقـوـلـهـ :

ولكنه صوب العقول اذا انجلت سحائب سحائب

فهـذاـ بـابـ الحـمـاسـ يـفـصـلـ بـالـمـاـقـوـلـ الـتـيـ يـصـلـ فـيـهاـ الشـاعـرـ إـلـىـ حدـ منـ الـهـيـاجـ الـنـفـسـيـ وـالـانـفـعـالـ الـمـحـتـدـ مـاـ لـيـقـلـ بـرـاءـةـ وـتـائـيـاـ عنـ أـقـوىـ الـمـاـشـادـ الـمـاـسـاوـيـةـ الـتـيـ يـعـرضـهاـ شـكـسـيـرـ فيـ مـسـرـحـيـاتـهـ ، فـمـنـ ذـلـكـ مـثـلاـ ماـ قـالـهـ تـوـبـةـ بـنـ مـصـرـسـ السـعـديـ اـذـ قـتـلـ رـهـطـ خـالـهـ أـخـوـيـهـ طـارـقاـ وـمـرـداـسـاـ ، فـجـزـعـ عـلـيـهـماـ جـزـعاـ شـدـيدـاـ ، وـقـالـ فـيـهـماـ مـرـاثـيـ جـيـدةـ ، وـظـلـ يـبـكيـهـماـ حـتـىـ

طلب اليه الأحنف بن قيس أن يكتف ، فلما أتى لقبه بالخنثٌ و هو الذي يمنعه الفيظ أو
البكاء عن الكلام ، ثم بدا له أن يقتل خاله ثاراً لأخويه ، ولو أدى ذلك إلى تفطر قلب
أمه رميلة حزناً على أخيها ، ففعل وقال(٢١) :

دَمًا مِنْ أَخِيهَا فِي الْمَهْدِ بِاقِيَا
خَلِيلِي الَّذِي كَانَ الْغَلِيلَ الْمَصَافِيَا
وَأَوْلَادَهَا لَفْوَا وَسْتِينَ رَاعِيَا
دَمًا مِنْ بْنِي عَوْفٍ عَلَى السَّيفِ جَارِيَا
لَيُوفِينِي مِنْ طَارِقَ غَيْرِ خَالِيَا

وَهَذَا نَهِيكَ الْقَشِيرِي يُقْتَلُ وَاحِدًا مِنْ أَفْرَادِ عِشْرَةَ ، وَيُلْطَخُ الدَّمُ ثِيَابَهُ وَيَنْتَهِبُ بِزَهْرَهُ ،
ثُمَّ لَا تَهُبُ الْمُشِيرَةُ لِلثَّارِ ، وَيَقْعُدُ زَعْمَاؤُهَا وَأُولَيَاءُهَا مُتَخَازِلِينَ مُسْتَكِينِيْنَ إِلَى الْمَلَدَاتِ ،
يَقْعَلُونَ الْخَمُورَ وَيَنْمَعُونَ بِالسِّمِّ عَلَى ضَفَافِ النَّابِيعِ وَالْفَدْرَانِ ، فَيَلْتَهِبُ غَيْظًا مِنْهُمْ وَغَضْبًا ،
وَيَمْتَزِجُ الْفَيْظُ بِالْأَسْفِ الْهَادِرِ فِي دَاخِلِهِ ، فَيَفْضُحُ شَانِهِمْ وَيَعْلَمُ عَلَى الْمَلَأِ مَثَالِهِمْ ، ثُمَّ
يَلْتَفِتُ إِلَيْهِمْ مَهْدِدًا مَتَوَعِدًا فَيَقُولُ(٢٢) :

وَعْقِيلَةُ الْوَادِي وَنَهِيَ الْأَخْرِمُ
بِشَيْبَهُ رَدْعَ كَلُونَ الْعَنْلَمُ
إِنْ لَمْ أَصْبِعَكُمْ بِأَمْرِ مَبْرَمٍ
تَعْلُوْ بِهِ فَرْسِي وَتَرْقُصْ نَاقِتِي

أَلَهِي مَوَالِيَ الْخَمُورِ وَشَرِبِيَا
وَأَخْوَهُمْ فِي الْقَوْمِ يَقْسِمُ بِزَهْرَهُ
ضَرِبَتْ عَلَيْهِ الْخَثْعَمِيَّةُ نَعْرَهَا
تَعْلُوْ بِهِ فَرْسِي وَتَرْقُصْ نَاقِتِي

وَتَطَالَّمْنَا فِي بَابِ الْهَجَاءِ أَبِيَّاتِ حَادَةِ الْوَقْعِ شَدِيدَةِ الْأَسْرِ تَمَاظِمُ فِيهَا شَكُورِ الشَّاعِرِ مِنْ
ابْنِهِ الَّذِي أَسَاطَ أَمَهَ تَرْبِيَتِهِ ، فَانْتَهَبَ مَالَ أَبِيهِ وَعَقَهُ وَلَمْ يَرَعِ كَبِيرَ سَنَهُ وَانْحَنَمَ عَظَامَهُ ،
ثُمَّ مَضَى لَا يَرْجِي مِنْهُ الْبَرِّ وَالْأَحْسَانِ فَيَقُولُ(٢٣) :

عَلَى هِينِ صَارَتْ كَالْعَنْيِّ عَقَلَمِي
حَرَامِيَّةُ ، مَا غَرَنِي بِعَرَامٍ
فَلَا يَفْرَحُنَّ بِعَدْلِي أَبْ بَفَلامٍ

تَقْلِئَمْنِي مَالِي خَلِيجٌ وَعَقْنِي
وَكَيْفَ ارْجُنِي الْبَرُّ مِنْهُ وَأَمَهُ
لِعْمَرِي لَقَدْ رَبِيَّتِهِ فَرْحَا بِهِ

وَيُضَمِّنُ بَابَ النَّسِيبِ بِيَتِنَ لِجَنُونِي بَنِي عَامِرٍ يَرْسِمَانَ صُورَةَ فَذَةَ لَحَالَةِ النَّفْسِ الْمَاعِشَةِ
حِينَ تَشَقَّلُ عَلَيْهَا وَطَاءُ الْحَبِّ وَتَلْهُبُهَا لِفَعَنَاتِ الذَّكْرِي ، فَإِذَا بِالْمَفَرَدَاتِ الْحَيَّةِ الْمَجِدَةِ تَفَدُّو
بِدِيلًا مُوضِوعِيًّا لِلْلَّاهَسِ الْمَجْدِ الْمَوْعِلِ فِي طَفْيَانِهِ وَهِيمَنَتِهِ فَيَقُولُ(٢٤) :

كَانَ بِلَادَ اللَّهِ حَلْقَةَ خَاتِمٍ
إِذَا ذَكَرْتَ النَّفْسَ زَادَ بِهِ قِبْضَا
كَانَ فَؤَادِي فِي مَخَالِبِ طَائِرٍ

وفي باب النسيب أيضاً يطالعنا بوح شجي ملفع بالخجل والتضليل والخشية يتترافق من امرأة من مليء تتجازبها قوتان عارمتان لا تستطيع لهما دفناً ، قوة يستفزها القلب بما فيه من شهوة وعاطفة وصبوة ، قوّة يستفزها العقل بما فيه من تحكم وأناءة وامتثال للقيم ، فإذا بها ترى معبوبها أصفي من ماء المزن الذي تجمع في الوديان فمررت عليه النسائم الصيفية فجردته من القذى فنداً عذباً نقياً لذة للشاربين ، ولكن أني لها أن تستجيب له وتنهل منه وهي التقيقة التي تخشى على نفسها من عواقب الاثم والخطيئة فلتتعرض في طريقها على ما في النفس من حرارة الظلماً والتسجل هذه الغلجلات في هذه الأبيات (٢٥) :

تَعْلُو مِنْ فَرِّ طَوَالِ اللَّوَائِبِ
عَلَيْهِ رِيَاحُ الصِّيفِ مِنْ كُلِّ جَانِبِ
فَلَيْسَ بِهِ عِيبٌ تَرَاهُ لِشَارِبِ
تَقْنَى اللَّهُ وَاسْتَعِيَاءُ بَعْضِ الْعَوَاقِبِ

فَمَا مَاءَ مِنْ شَمَارِيخٍ شَامِخٍ
بِمَنْعِرَجٍ أَوْ بِطَنْ وَادٍ تَحْدِيرٍ
نَفَى نَسْمَ الْرِّيحِ الْقَذِىِّ عَنْ مَتَوْنَهِ
بِإِطِيبٍ مَمْنَ يَقْصُرُ الطَّرْفَ دُونَهِ

وحسبي ما عرضت من قطوف أبي تمام وعناقيد اختياراته شاهداً على ذوقه الرفيع الثاقب وشاعريته التي تجلت في ابداعه كماتجلى في اختياره ، وأخلق بالعمامة الصفرى هذه أن تسمى الأنسيات بعد أن ظلت قروناً مديدة ترفل بشباب الوحشيات ٠

محمد كمال – حلب



□ العواشي :

- | | |
|--|---|
| <ul style="list-style-type: none"> - العاشية ذات الرقم (٢٧) : البيتان الآخرين في ديوان المعاني ٠ - العاشية ذات الرقم (١٨٦) : في اللسان : فزوع : وقال ابن الأعرابي هو للكميت بن ثعلبة ٠ وكذلك نسب الأقصى البيت الثاني في الموازنة : ٩٦ الى الكميت بن ثعلبة ٠ - العاشية ذات الرقم (٣٣٤) : في الأغاني ١٠٦/٢٠ الآيات منسوبة الى ابن أبي عبيدة ٠ - شرح التبريزى العساسة : ٤:١ ٠ - الاملئي ، الموازنة : ٥٥ ٠ - المصدر السابق ٠ | <ul style="list-style-type: none"> ١ - ذيل الأنطالي : ١٣٢ ٠ ٢ - فؤاد سيدركين ٠ تاريخ التراث العربي ، الشعر : ١٠٦ - ١٢٠ ٠ ٣ - ديوان العمامة ، شرح المزووفي : ١٠ ٠ ٤ - المصدر السابق : ١٦ ٠ ٥ - شرح التبريزى للساسة : ٣:١ ٠ ٦ - العاشية رقم (٢) ٠ ٧ - محمود شاكر ، مقتمة الوحشيات : ١١-١٠ ٠ ٨ - بدا لي ان ازيد في حواشي الكتاب ما ظهر لي عرضها من ملاحظات : |
|--|---|

- | | |
|--|---|
| ٢١- الوحشية : ١٢١
٢٢- الوحشية : ١٦٦
٢٣- الوحشية : ٤٠٤ ، وبيدو ان ابا تمام خلط بين اللعنين
المفترى واسمه متأذل بن ذمة وصاحب هذه الآيات
واسمه متأذل بن فرعان ، او ان نسبة الآيات الى
اللعنين من عمل النساح ، والغريب ان فرعان ابا متأذل
كان قد تزوج على امه امراة شابة ، فقضب متأذل
واستحق ابل ابيه واعتزل مع امه ، فقال فيه فرعان
آياتاً رواها ابو تمام في ديوان العماسة (العماسة
ذات الرقم ٣٠٣)
٢٤- الوحشية : ٣٢٧
٢٥- الوحشية : ٣٢٧ | ١٢- الراجكوني : الوحشيات المقلمة .
١٣- المرزوقي - شرح ديوان العماسة : ١٤
١٤- عبد السلام هارون ، مقامة تحقيق ديوان العماسة: ٩
١٥- الوحشية : ١٤٤
١٦- الوحشية : ١٢٨
١٧- المرزوقي ، شرح ديوان العماسة : من ٢٥٦ .
١٨- انتظر الوحشيات : ٣١٤ - ٣١٥ - ٣٢٩ - ٣٤٤
١٩- الوحشية : ٣٠١
٢٠- من ١٣ . |
|--|---|

★ ★ ★

□ المراجع :

- ٦ - دراسة في حماسة ابي تمام لعلى التجددي ناصف .
- ٧ - عيون الاخبار لابن القبيبة .
- ٨ - الفهرست لابن النديم .
- ٩ - الموازن للامالي .
- ١٠- الوحشيات ٠٠ تحقيق عبدالعزيز الميمني الراجكوني .
- ١ - الاعلام للزرکلي .
- ٢ - الامالي لابن علي القالي .
- ٣ - تاريخ التراث العربي لخواه سیزکین .
- ٤ - حماسة ابي تمام ٠٠ شرح المرزوقي .
- ٥ - شرح ابي تمام ٠٠ شرح التبریزی .

★ ★ ★

البعد المكاني في صور ذي الرمَّة الفِيَّة

أَسَامِيَّة سَلَمانُ اخْتِيَار

بادئ ذي بدء ، لا بد من التساؤل :

- هل يستطيع التشكيل الصوري اللاهث وراء (الجامع في كل) ان يقدم جديداً على صعيد دراسة النص ؟
- ما مفهومنا للصورة الشعرية في هذا البعث الذي اقتصرنا فيه على دراسة البعد المكاني في صور ذي الرمَّة ؟
- وعلى أساس من ذلك المفهوم ، ما طبيعة العلاقة القائمة بين الشاعر والمكان في إطار من الصور المكانية الموظفة توظيفاً بنائياً في تكوين النص ؟

هذا البحث يتجاوز ذلك الشكل التقليدي للصورة الشعرية التي تقوم العلاقة بين مكوناتها على أساس من المشابهة بين عنصرين ، يدعى أحدهما المشبه ، ويدعى الآخر المشبه به ، حيث تتنظم العلاقة بين هذين العنصرين في قانون شهر هو : (الجامع في كل) . ان هذه الرؤية للصورة الشعرية تبدو غير مستساغة في الدراسات النقدية الحديثة لسبعين :

ـ أولهما : أن هذه الرؤية تغيب عنصر آخر له أهميته في البناء الصوري غير المنصر (الجامع) أو ما يمكن أن نطلق عليه : عنصر المشابهة ، وهذا العنصر المغيب هو عنصر (المعايرة) . ان المشابهة والمعايرة – مما – عنصران متكافئان في تشكيل البناء الصوري التقليدي ، متعدنان متداخلان في تكوين العلاقة الصورية^(١) ، وقد ظل هذا الأمر غائباً

*) باحث من سوريا

عن الدراسات البلاغية التراثية الى أن جاءت الدراسات العدائية مؤكدة أن : (ادراك التشابه في التباهي هو منبع الاستعارات)^(٢)

- وثانيهما : أن هذه الرؤية تغيب - باعتمادها الأشكال البلاغية التقليدية - مساحة واسعة من الصور الشعرية عن حيز الوجود ، وهنا يبرز دور الدراسات العدائية التي أملقت للتشكيل الصوري المكان ، ليضمّ بمفهومه الحي الجديد نطلاً من صور (لا مجازية) تعد - بحق - أرقى روئيّة الصورة الشعرية ، وأكثرها حيوية ، وهذه الصور غير المجازية ما هي - في حقيقتها - الا تجسيد للصورة الشعرية في ادق معاناتها حينما حدّها (سي دي لويس) فرأى أنها : « رسم قوامه الكلمات »^(٣) وتحت هذا المفهوم الجديد للصورة الشعرية تندرج الأبنية الصورية كلها سواسعه أكدت مجازية أم غير مجازية ، وبعثي في صور ذي الرئستة قائم على أساس من هذا المفهوم . فضلاً عن رصد دلالات الصور الفنية من خلال روئيتها رؤية بنائية ، وبعبارة أخرى: توظيف الصورة توظيفاً بنائياً في خدمة سياقها الخاص في القصيدة الواحدة من جهة ، ومن ثم سياقها العام في مجموع القصائد من جهة أخرى ، وبهذه الرؤية الشمولية يمكننا أن نصل الى متطلبات نقدية ملية قابلة للتعظيم على العمل الأدبي كله .

- بعد الاشارة الى المفهوم الذي اعتمدته للصورة الشعرية في هذا البحث : لا بد من تحديد مساره ، حيث ارتاتت درامة البعد المكاني في صور ذي الرمءة الفنية وفق خمسة محاور :

- مثنوية السكون والحركة ودورها في بعث المكان .
- ظاهرة فساد الأمكانة .
- المشاركة الزمانية للمكان .
- كونية الرؤية المكانية .
- تعليم التجربة الشخصية مكانياً .

أولاً : مثنوية السكون والحركة ودورها في بعث المكان :

- ثمة مكانان معلومان في صور ذي الرمءة : أحدهما عام والآخر خاص ، المكان العام هو الصحراء ، والمكان الخاص هو الباذية ، وثمة فارق بين المكانين ، حيث تشكل الصحراء دائرة مكانية كبيرة غير مأهولة ، ضمن هذه الدائرة الكبرى ثمة دوائر داخلية صفرى هي البوادي المأهولة ، وعلاقة البدأة بالمكان الأول (الصحراء) علاقة اجياز ومرور ، لا علاقة اقامة واستيطان ، في حين أن علاقتهم بالمكان الثاني (الباذية) هي على النقيض تماماً من العلاقة الأولى . من خلال دراستنا الطبيعية العلاقاتتين نجد أن العلاقة الأولى (علاقة الاجياز الصحراوى) ثابتة لا تتغير لثبات المكان ذاته ، في حين أن العلاقة الثانية (علاقة الاقامة في البوادي) متغيرة بتغير خصوبة المكان وتبدلها ، فالبقاء المأهولة من الباذية قد تذهب في التصحر ، فيطلب القوم غيرها ، وهنا تتقاطع الصحراء - المكان الواسع المتد - مع

الطلل الأقل امتداداً في نقطة المشاكهة المكانية (القحولة والمقطع) ، وبذلك تتحول العلاقة الارتباطية بين الانسان والمكان من علاقة الاقامة الى علاقة الاجتياز . وتميز علاقة الاجتياز الطللي عن علاقة الاجتياز المعاوبي بازيدiad حدة التوتر الشاعري نتيجة لتداعي الذكريات الماضية ، مما يدفع الشاعر الى محاولة احياء المكان وبعثه أملاً بعودة الماضي ، مستغلاً قابلية المكن الطللي للحياة ، بصفته لا يمثل فناء مطلقاً ، بل مرحلة الاحتضار المكاني او شبه الموات ، ويطرح الشاعر فكرة احياء المكان استناداً الى مثنوية (أم) ترتبط بفكرة الاجتياز ارتباطاًوثيقاً، وهذه المثنوية - على حد زعمي - هي مثنوية (الحل والترحال) والتي ترتبط بالنقض العربي منذ مراحله التاريخية الأولى ، الا انه لم يستطع في أسمد لفظه رصد أبعادها : ليولد منها مثنوية (السكون والحركة) والتي يقع على عاتق الصراع المتضادي بين طرقها العباءة الابكر في محاولة احياء المكان .

- ان الحركة المكانية في روى ذي الرمة تنبثق من سكونية المكان وسكنية الوقوف عليه - السكون اولاً ثم الحركة ثانياً . وهذه الحركة المكانية تتسع على شكل موجات دائرة متباينة مختلفة في حركيتها لتشمل المكان الأوسع مساحة والأقل قابلية للحركة ، ومن ثم الأقل قابلية للحياة ، وأعني به الصحراء ، ويمكننا تحديد آلية تعريف المكان في صور ذي الرمة المكانية من خلال رصد مثنوية (السكون والحركة) في الوحدات التكوينية الواحد من تصوّره ، ول يكن مثلاً النص الأول من ديوانه(٤) .

ترتبط المثنوية في هذا النص ارتباطاًوثيقاً بالحل الطوعي في المكان ، حيث تغيب لفظتنا (فنا ، عوجاً) عن النص ، وهذا الفرب من الحل قائم على أساس من الرغبة المشتركة المفترضة بين الطرفين - الشاعر والصحب من الركب - ومهما يكن من أمر هذا الحل أو الوقوف فهو تعبير عن فكرة السكون التي تشى من طرف خفي بالموت ، غير أن انصراف ذي الرمة عن التمادي في عرض فكرة السكون الى عرض نقيفها الضدي المثل بالحركة كان محاولة ناجحة للافلات من قبضة الموت الذي تفرزه فكرة السكون، كل ذلك يمكننا استنتاجه من رصد عميق للعلاقات اللغوية المتضادة في البيت الرابع من القصيدة :

أ: دمنة نَسَقَتْ عَنْهَا الصَّبَا سُفْفَا كَمَا تَنَشَّرَ بَعْدَ الطَّيَّةِ الْكَتْبِ(٥)

في هذا البيت من القصيدة تم الوقوف الطللي طواعية من غير ما أمر ، ودونما استيقاف ، يدل على هذه الطواعية استحداث الركبة للأخبار في البيت الثالث ، والذي عضده في البيت الرابع ظهور قرينة مكانية تشى بحدوث الوقوف فيما لو رُئيَت رؤية سياسية ، هذه القريئة المكانية هي « الدمنة » ومن الوقوف عليها تولد السكون الذي انبثقت منه الحركة . وبهذه الحركة بعث الشاعر الحياة في المكان من لجة الموات ، فالدمنة تبدو للوهلة الأولى في طور الاحتضار المكاني المرتبط بعنصرى الخواص والسكنون المخيمين ، يتمثل الخواص باقترار المكان ، في حين يرتبط السكون بفكرة الوقوف ، وتوثيقاً لفكرة الاحتضار المكاني يربط الشاعر المكان في هذا الطور بصورة الكتاب المطوى ، وهذه الصورة تكافئ صورة المكان وقد توضعت الرمال فيه ، وهذا بعد ذاته مظهر من مظاهر السكون المكاني

الواشي بالفناء المرتقب ، غير أن بروز عنصر الحركة الممثل بريح « الصَّبَّا » جعل لمبورة الموات مقابلاً ضدياً ، وبذلك يربّز « الصَّبَّا » كقرينة دالة على محاولة بعث المدن واحيائه اعتماداً على عنصر الحركة ، وهذه الرغبة الجامحة في بعث المكان دفعت ذا الرمة إلى ربط الصورة المكانية في طور الانبعاث بصورة مكففة هي صورة الكتاب المشور ٠

من ثم يصعد الشاعر من حدة الصراع بين السكون والحركة ، وبين الموت والحياة ، وذلك من خلال طرح مثنوية جديدة هي وليدة مثنوية (السكون / الحركة) نفسها - فبعد انتهاء دور السكون في رسم صورة المكان تبرز الحركة عنصراً فعالاً فيه ، وعن هذه الفاعلية الحركية تتولد المثنوية الجديدة المطروحة كدليل لتصعيد حدة الصراع المكانى ، حيث تنقسم الحركة قسمين : حركة مدمرة ، وأخرى بناء ، تتجلى الحركة المدمرة في تأكيد الشاعر فاعلية (الريح الرملية) التي تعمل على تعفية المكان الطللي ، في حين تتجلى الحركة البناءة في دور (الريح الرادة) التي تهب من جهة معاكسة للريح الأولى ، فتعمل على سحب ما توضع في الطلل من رمال ، وتتبذلها بعيداً ، وفي ذلك اصراراً آخر من الشاعر على بعث المكان وبث مظاهر الحياة فيه على الرغم من ذلك الموات الخيم ممثلاً بقطاع الحركة المدمرة (الريح الرملية) مع الثبات المكانى (الغواباء والمقاء في الفاعلية) :

سيلاً من الدُّعْصِ أَغْشَنْتَهُ مَعْرُفَاهَا نَكِبَاءً تَسْعَبُهُ أَعْلَاهُ فَيُنسَعِبُ(٦)

ثم ان تصوير ذي الرمة للريح الرملية كمظهر من مظاهر الفاعلية الحركية المدمرة للمكان تتصعد حدته أيضاً عن طريق تأكيد فاعلية الأمطار الموسمية التي تتخذ الطابع السلبي ذاته لاستمراريتها وغزارتها ، فتعمل بدورها على تعفية الطلل :

لَا ، بَلْ هُوَ الشَّوْقُ ، مِنْ دَارِ تَغْوِنَهَا ضُرُبُ السَّعَابِ وَمِرَّةً بَارِحٌ تَرَبُّ(٧)

إذا نظرنا الى البيت بمفرده - بعيداً عن سياقه - نجد أن حس الموت يبدو مسيطرًا على الحياة في ثوب الحركة وزبها (أمطار + رياح) فالمعنى المكانى مرتفع - بل حتى - مع ديمومة الفاعلية الحركية المدمرة واستمراريتها (تغونها) ولكن اصرار ذي الرمة - من جديد - على معرفة المكان عن طريق الموجودات المكانية الزمرة ينفي تلك العتمية وذلك المقام المرتقب ، فتثبتق الحياة بحلتها القشيبة على الرغم من عوامل التعفية جميعاً :

**يَبْلُو لَعْنَيْكَ مِنْهَا وَهِيَ مَزْمَنَةٌ تَنْؤِيْ وَمُسْتَوْقَدَ بَالٌ ، وَمُنْتَطَبُ
إِلَى لَوَائِحٍ مِنْ أَطْلَالِ أَهْوَيَةٍ كَانَهَا خَلْلَ مُوشِيَةٍ قَشْبُ
بِجَانِبِ الزَّرِقِ لَمْ تَطْمَسْ مَعَالِمَهَا دُواوِجُ الْمَوْرِ وَالْأَمْطَارِ وَالْعِقَبُ**

بهذه الأبيات يفرغ ذو الرمة من الوقوف على الطلل ، وفيما لو حزمنا مجاسيم العلاقات المتداخلة في هذه الوحدة التكوينية من القصيدة بصفتها وحدة مطلية يمكننا ملاحظة جملة من الثنائيات المترادفة تمثل فكرة الصراع بين الحياة والموت ، حيث يمثل الطرف الأول من هذه الثنائيات صوراً مكانية تعكس الموات المكانى (الرمال تتوضع في المكان

الطللي ، سيل الرمال يغشى الطلل ، المطر المغفي يلازم الدمنة ، أطلال الأحوية اللائعة) في حين يمثل الطرف الثاني من هذه الثنائيات صوراً مكانية تعكس الحياة كمقابل ضدي لكل صورة من الصور السابقة (ريح الصبا تنسف الرمال بعيداً ، ريح النكبات تسحب الرمال من الطلل ، الدار واضحة المعالم وال موجودات لم تطمسمها دوارج المور ، الأحوية موشاة قشيبة) وهذا ان دل على شيء فانما يدل على تغليب عنصر الحياة وتلاشي الموت .

في الوحدة التكوينية الثانية من القصيدة وهي وحدة غزلية – يربط الشاعر الديار الدارسة باسم المحبوبة (مي) ثم يمضي في التغزل بها ، ويمكنني القول : ان ثمة علاقة توازن وتشابه بين الفاعلية البنائية للحركة المكانية – المثلثة بالصور المكانية الحياة التي عكست حيوية الطلل – وبين الغزل بصفته الوحدة التكوينية الثانية ، حيث يلاحظ التأمل في هذه الوحدة نمطاً جديداً من انتساط بعث المكان وأحيائه عن طريق بعث الماضي المرتبط به ، فذكريات المتذاعية – هنا – ليست الاتعبيراً عن الرغبة الجامحة في عودة الماضي المكاني السعيد .

بعد محاولات احياء المكان وبعثه ب بواسطة الحركة المكانية البناءة من جهة ، وبواسطة الغزل كعنصر بنائي من جهة أخرى ؛ تأتي المهمة الأعسر في محاولة ذي الرمة نقل الحركة البناءة – ومن ثم ما يتبعها من صور الحياة المنبثقة منها – إلى المكان الأكبر مساحة والأقل قابلية للحركة والحياة مما ، وهو الصحراء ، وهنا تبرز المعاشرة المقيقة ، فالمكان الجديد – الصحراء – مختلف كثيراً عن المكان الأول – الطلل البادي – ولعله من اليسيير يث مظاهر الحياة بأساليب شتى في البوادي (كاستنباتات الكلا ، واستنزال المطر ، واسكان المكان بالحيوان ، وتحريك الريح البناءة) لكنه من العسير – بل من المستحيل أحياناً – نقل تجربة المكان ، ومن ثم احيائه ، إلى الصحراء ، كما لو كانت بادية ؛ فالصحراء لا يستهمل فيها مطر ، ولا يستتب فيها كلأ ، وليس للريح فيها دور بنائي ، بل دور هدام مدمر يتمثل في الرمال المستشار ، والكتبان الرملية المشوهة في المكان والعواصف الهوج ، وهذه سمات مميزة للصحراء تجعلها موحشة مقرفة مثيرة للهواجين والوماوس في نفس مجتازيها ، ولذلك حاول ذو الرمة في اجيائه للصحراء أن يبعث بعض مظاهر الحياة فيها بواسطة الحركة البناءة ، وتجلى هذه الحركة في محاولتين :

– الاستئناس برصد حركة الناقة الجميلة ، وتحريك المكان بحركتها .

– نقل حركة الناقة الى حيوان الصحراء(حمار الوحش – الثور الوحشي – الفالتم)
معتمداً في ذلك على ظاهرة الاستطرادي في معرض الصورة .

اما الاستئناس برصد حركة الناقه الجميلة فهو شأن ذي الرمة في قصائده الصحراوية جميعها ، كما هو شأن الشعراء من قبله ، اذ تبيو الناقه في رحلة ذي الرمة قوية كجمل ضخم شديد الباس جلد ، وهذه الناقه الحية بكل ما في الكلمة من معانٍ الحياة – من احسان بالآدم ، ونبض بالحركة الحية الشيشطة ، وشوق الى الديار – تضفي من حيويتها على الأمكنة الصحراوية التي تجذّبها ، فيبدو المكان أنيساً من بعد وحشة ،

فيماً بظاهر العركة المولدة للحياة ، فالراكب على ظهر ناقة ذي الرمة يرى الصحراء تترافقن أمام عينيه ذات اليمين وذات الشمال، تملأ حيناً وتهبط حيناً آخر ، وهذا الرقص الذي مستمد من حركة الناقة ودببها على الأرض ، وبذلك تبدو الصحراء الساكنة في الظاهر مكاناً حياً متعركاً ، إن هذه العركة الصحراوية انكاس لحركة الناقة الجملية :

لا تشتكى سقطة منها وقد رقت بها المفاوز حتى ظهرها حدب^(١)

من ثم تتوالى سلسلة من الأوضاع والهياكل العركية العجيبة للناقة ، ويمكننا أن نلاحظ ذلك في جملة من التراكيب اللغوية التي تتأثر فيما بينها لتعريف المكان بوساطة شركة الموجودات : (راكبها يهوي ، ركبها نصبو ، تخدى بمنغرق ، العيس من عاسج أو واسج خبأ ، يتحزن ، تنسلب ، تصفي - والمقصود : جنوحها وميل رأسها نحو الأرض و كانها في هيئة الأصناف - تشب ، وثب المسحّج) :

كان راكبها يهوي بمنغرق من الجنوب اذا ما ركبها نصبو^(٢) تخدى بمنغرق السر بالمنصلت مثل العسам اذا اصحابه شعبوا والعيس من عاسج ينعزّن من جانبيها وهي تنسلب تصفي اذا شدتها بالكور جانحة حتى اذا ما استوى في غرزها تشب واثب المسحّج من عاتات معقلة كانه مستبان الشك او جنب

هذا على صعيد الاستثناء من برصد حركة الناقة و تحريك المكان بحركتها ، أما على صعيد نقل حركة الدقة الى حيوان الصحراء تأكيداً لمحاولات بث الحياة في المكان عن طريق موجوداته وعن طريق رصد حركة هذه الموجودات : فيتم اعتماداً على ظاهرة الاستطراد في معرض الصورة على نحو توليدي ، فالصورة الصحراوية الأولى ، والتي رصد فيها ذو الرمة حركة الناقة مسقطاً هذه العركة على المكان الثابت - تتولد عنها صور متناثلة ثلاث ، تقاد تبدو مستقلة بذاتها ، غير أنها في حقيقها ذات ارتباط وثيق بعنصر العركة ، وعلى وجه التعديل حركة الناقة نفسها ، وهذه الصور الثلاث هي : (صورة حمار الوحش - صورة الثور الوحشي - صورة الظليم) . عن الصورة الأولى تتولد صورة (الآتن) كصورة ثانية مرتبطة بها ، وعن الصورة الثالثة تتولد صورة (النعامة) - وهي أثني الظليم - مع فراخها) .

في مشهد حمار الوحش تصفي حركة الحمار مع انتهائه على المكان لوناً خاصاً من الوان العباءة ، أنها حياة جنينية محاطة من طرف خفي بعس الموت الذي لم يرق الى مرتبة اليقين :

واب المسحّج من عاتات معقلة كانه مستبان الشك او جنب^(٣)

من ثم تتعدد الأمكنة ، وتختلف الأزمنة ، وتسارع الحركة ، وبعد تجربة ظلماء مرينة يجمع العمار أنتئه ويجدوها نحو عين الماء ، واصطلح على هذا الطور العركي : طور ما قبل الورود - ورود العين - ويمتاز بثلاث سمات :

- أولهما : موات المكان ممثلا بشدة الحر الذي أهلك الرطب من الكلا وأييس البقل :

حتى اذا معمان الصيف هب له باجته نش عنها الماء والرطب^(١٢)
وصوّج البقل ناج تجيء به هيـف يـمانـية في مرـها تـكبـ

- ثالثهما : ابراز تجربة العمر العركية الشاقة سعيـا نحو العين ، ممثلة بـملائـة حـمار الوـحـش للـأـنـ وـمـخـاشـنـتـهـ لـهـ ، فـضـلـاـ عـنـ الـهـيـنـاتـ الـعـرـكـيـةـ الـمـخـلـفـةـ ، وـقدـ أـضـفـيـ ذـلـكـ عـلـىـ الـمـاـكـنـ السـاـكـنـ مـظـهـرـاـ شـفـاقـاـ مـنـ مـظـاـهـرـ الـعـيـاـ ، فـمـوـتـ النـبـتـ يـقـابـلـ حـيـاةـ الـعـرـمـ النـاـبـضـ بـلـعـرـكـةـ : (وـثـبـ المـسـجـعـ - يـحـدـوـ نـعـائـنـ - تـنـصـبـتـ جـوـلـهـ - رـاحـ مـنـصـلـتـاـ) . يـحدـوـ حـلـائـهـ - اـدـنـيـ تـقـادـ فـيـ - التـقـرـيبـ وـالـخـبـبـ - يـغـلـوـ العـزـونـ) .

- ثالثهما : بـروـزـ حـسـ الـمـوـتـ الـخـفـيـ الـمـسـيـطـرـ عـلـىـ حـمـرـ الـوـحـشـ مـمـثـلـاـ بـالـشـكـ عـلـىـ نـحـوـ مـاـ لـاحـظـنـاـ سـابـقاـ .

عـنـدـ الـعـيـنـ تـسـكـنـ الـعـرـمـ لـلـشـرـبـ ، وـخـلـالـ هـذـاـ السـكـونـ يـنـطـلـقـ مـهـمـ الصـائـدـ الـذـيـ يـمـثـلـ الـمـوـتـ ، وـيـمـكـنـاـ أـنـ نـطـلـقـ عـلـىـ هـذـاـ الطـلـورـ الـعـرـكـيـ : طـورـ الـوـرـودـ ، وـيـمـتـازـ بـشـلـاثـ سـمـاتـ - أـيـضاـ - تـشـكـلـ عـنـدـ حـزـمـهـاـ مـشـنـوـيـةـ مـتـنـاقـشـةـ فـيـاـذـاـ قـوـيـلـتـ بـسـمـاتـ الطـلـورـ الـعـرـكـيـ الـأـولـ - طـورـ ماـ قـبـلـ الـوـرـودـ - :

- أولهما : حـيـوـيـةـ الـمـاـكـنـ مـمـثـلـةـ بـالـعـيـنـ نـفـسـهـاـ ، بـماـ يـعـيـطـ يـهـاـ مـنـ كـلـاـ ، وـماـ يـصـطـعـبـ فـيـهـاـ أـصـوـاتـ :

عـيـناـ مـطـعـلـبـةـ الـأـرـجـاءـ طـامـيـةـ فـيـهـاـ الضـفـادـ وـالـحـيـاتـ تـصـطـغـبـ^(١٣)

يـسـتـئـهـاـ جـلـولـ كـالـسـيـفـ مـنـصـلـتـ بـيـنـ الـأـشـاءـ تـسـامـيـ جـوـلـهـ العـسـبـ

- ثالثهما : حـرـكـةـ الـعـرـمـ مـدـوـمـةـ تـعـاـمـيـلـاـ لـوـ قـوـرـنـتـ بـعـرـكـتـهـاـ فـيـ مـرـحـلـةـ ماـ قـبـلـ الـوـرـودـ .

- ثالثهما : تـصـعـبـتـ حـسـ الـمـوـتـ عـنـدـ الـمـاـكـنـ - الـعـيـنـ - حـيـثـ تـبـدوـ الـحـيـاةـ مـحـاطـةـ بـأـطـارـ مـعـكـمـ منـ الـمـوـتـ الـرـتـبـ - الصـائـدـ الـكـامـنـ بـسـهـامـهـ - وـفـيـ لـحـظـةـ السـكـونـ وـالـثـيـاتـ تـنـطـلـقـ سـهـامـ الـمـوـتـ ، فـيـنـتـلـبـ الشـكـ الـسـيـطـرـعـلـىـ الـعـرـمـ فـيـ الـمـاضـيـ الـىـ يـقـيـنـ حـاضـرـ ، وـلـكـنـ حـسـ الشـاعـرـ يـفـلـبـ الـحـيـاةـ عـلـىـ الـمـوـتـ تـفـلـيـباـ قـدـرـيـاـ :

تـغـيـيـتـ رـابـهـاـ مـنـ خـيـفـةـ دـيـبـ^(١٤) حـتـىـ اـذـ الـوـحـشـ فـيـ اـهـضـامـ مـورـدـهـاـ

ثـمـ اـطـبـاهـاـ خـرـيرـ المـاءـ يـنـسـكـبـ فـعـرـضـتـ طـلـقـاـ اـعـنـاـقـهـاـ قـرـقاـ

فـاقـبـلـ الـحـقـبـ،ـ وـالـأـكـبـادـ نـاـشـزـةـ حـتـىـ اـذـ زـلـجـتـ عـنـ كـلـ حـنـجـرـةـ

فـانـصـعـنـ ،ـ وـالـوـيلـ هـجـيـرـاـ وـالـعـرـبـ رـهـيـ ٠٠ـ فـاخـطاـ ٠٠ـ وـالـأـقـيـدـارـ غـالـبـةـ

ولمل موضع (عين الماء) وما يحيط بها؛ رمز للحياة المعاهدة من طرف خفي بعس الموت
ولعل (الماء) الذي حثت المعر الخطا نوعه، وفي أعمق نفسمها ريبة الموت مما يكتنفه من
غموض؛ هو (الحب) نفسه الذي أورد ذا الرمة المهالك غير مرة .

وفي مشهد الثور الوحشي يعيذ ذو الرمة بربط حركة الناقة بحركة هذا الميواز الذي
غالباً ما تكون شجرة الأرض ملأاه الوحيد، وموضع شجرة الأرض مكان حي ممطمور ،
تجلو البوارق جوانبه ، وعلى الرغم من ذلك يبدو هذا المكان النابض بالحياة ملئماً بعس
الموت أيضاً - كعين الماء في مشهد المعر الوحشية - وكانما قدر الحياة صراعها مع الموت ! :

(توجّس ركزاً - نبأ الصوت - الوسوس - يغشى - يرتفب) (١٥) .

ويتصعد حس الشك الى اليقين عند الفجر ، حينما يخرج الثور من كناسه خائفاً ،
كان به مسأ من العين ، فتطارده كلاب الصائد الكامن قريباً من الكتاب ، فتتصارع حركتان
وجوديتان ؛ حركة الثور الوحشي التي تمثل الحياة ، وحركة الكلاب التي تمثل الموت ، الحركة
الأولى حركة بناءة ؛ لأنطواء استمرارية الموجودات المكانية وبالتالي : افقرار المكان
حركة هامة ؛ لأنها تعمل في طياتها فناء الموجودات المكانية وبالتالي : افقرار المكان
وفناء أيضاً ، وأخيراً تكرر الحياة على الموت فت تكون الثلبة لها ، وبذلك كان موت الكلاب
ميلاداً للحياة التي ظلت تتصرّ في مجموع قصائد ذي الرمة ، اذ لم أقع على مشهد واحد
يقتل فيه الشاعر حس الحياة الفياض في أعمق نفسه ، على الرغم من ذلك البؤس البائس على
صدره ، ولا أدل على حس الحياة لدى الشاعر من أنه كان يخيب مسعى الصائد كل مرة ،
مطلقاً المنان للحياة لتنطلق بعيداً عن قبضة الموت (١٦) .

اما العيون الأخيرة الذي ينقل اليه ذو الرمة حركة ناقته ؛ فهو الظليم مع أنتهاء النعمة ،
حيث يبدو الظليم مسرعاً يudo في مكان قفس تناهيتها ريح شديدة ، وفي طريقه تُمَرِّض له
نعمة صنفه الرأس دققة المُنْقَعَة تُمَنِّعُه معاً ، فكانهما ينتهيان الأرض انتهاياً ، وذلك العدد
لأنهما عاينا سقوط المطر آخر النهار ، فضلاً عن خشيتهم على فراخهما من السباع (١٧) .

في حركة الظليم مع نعامتة في الأمكان الموحشة المقرفة تأكيد ثالث على رغبة ذي الرمة
في بعث المكن واحتياجه عن طريق موجوداته ، وهذا الرصد للمظاهر الحية المؤسسة يتجلّى في
ذروة تجليه في تصوير ذي الرمة لفراخ الظليم ، وعند صورة الفراخ التي كان يسمى اليها
الأبوان ينهي ذي الرمة قصيده البائية ، وكأنه أراد من هذا المشهد الأخير أن يؤكّد حسه
بالحياة وإيمانه بها ، عن طريق الولادة ، فهذه الفراخ التي لم ينجب لها ريش بعد ؛ هي رمز
لحياة المكان ، رمز لاستمراريته المستمدّة من استمراريته موجوداته ، كما أنها رمز لحركتيه
المستمدّة من حركة تلك الموجودات :

جامع من البيض ذُعرا لا لباس لها الا الدّهاس ، وام برة واب'(١٨)
كائنا فائتاًت عنها بيلقعة جماجم يبئس او حنظل حرب

ما تقيّض عن عسوج معطفة
أشداقها كصلوع النبع في قتل
كان أعناقها كراث سائفة

من خلال ماسبق نلاحظ أن القصيدة تبدأ بالسكون المكاني لتنتهي إلى الحركة ، وتنطلق من الموات المكاني وصولاً إلى الحياة ؛ يتمثل السكون المكاني بالوقوف على الطلل ، وإنطلاقاً من هذا السكون تبدأ محاولات رصد الحركة المكانية ، ويزداد الصراع الوجودي بين السكون والحركة من خلال طرح مثنوية جديدة منبثقه عن مثنوية (السكون / الحركة) وهذه المثنوية الجديدة هي مثنوية (الحركة المميرة / الحركة البناءة) وتقاطع الحركة المدمرة في الفاعلية المكانية مع الثبات المكاني ، وكلاماً يمكن وأقعاً نفسيَاً سوداويَاً قاتماً ملتفاً بفكراً الموت ، في حين تظل الحركة البناءة عصرأً ذا فاعلية ايجابية يواجه قوتين متوازيتين في الاتجاه متكافئتين في الفاعلية السلبية ، مما : الثبات والحركة المميرة معاً .

تعكس الحركة البناءة رغبة شعورية جامحة في بيت المكان وحياته ، هذه الرغبة آملة تستشرف المستقبل بعيداً عن مواديه العابر ، والملاحظ أن مثنوية الحركة (المميرة والبناءة على حد سواء) تتباين أول ما تتبثق في المكان الطللي مثلثة بالريع الرملية الهوجاء التي تعمل على تعفية المكان ، ومثلثة بالرياح الراءدة التي تعمل على نشره من جديد ، ثم تتسع دائرة هذه المثنوية مع توالي الصور المكانية ؛ لظهور في لوحة الصيد مثلثة بحركة الكلاب - الموت - وحركة الشور الوحشي - الحياة - ومع بروز مثنوية جديدة ثالثة هي مثنوية (الموت / المياه) يbedo الموت عنصرأً عملاً في الخفاء مرتبطة بحس خفي مرتبة محيط بكثير من الأمكنة التي يرتبط بها الكائنات التي ارتباطاً وثيقاً : (الطلل بالنسبة للإنسان، عين الماء بالنسبة للحيوان) وهنا تبرز براعة الشاعر في تقليل أحدهما على الآخر بحسب الواقع النفسي وعن طريق سلسلة من الصور المكانية التوالية الراسخة لأبعاد المكان في أدق جزئياته وتفاصيله ، وبذلك تبدو الصورة المكانية في النص موظفة في سياقها مرتبطة به ارتباط الأجزاء بالكل ، بعيدة كل البعد عن غاية الزخرفة أو هدف الزركشة ، إن الصورة المكانية في سياقها شذرة معرفية جميلة تضيّع جوانب مسألة أثارت - منذ فجر تاريخ الفكر البشري - انتباه الإنسان ، لا وهي فكرة الموت ، والتي بدت دالة على العدم ، ملتفة بالسكون والغموض المريدين ، ولذلك يمكنني القول :

انه ما من شك أن ارتباط الإنسان بالمكان هو - في حد ذاته - ارتباط بالحياة النابضة بالحركة ، الصاخبة بالأصوات ، في حين تظل فكرة الانسلاخ عن المكان ملتفة بالسكون محفوفة بالموت .

ثانياً : ظاهرة فساد الأمكنة (المتأهل الأجنبية) :

رأينا في تحليلنا المثنوية السكون والحركة أن ذا الرمة أدرك ماهية فساد المكان الطللي ، فبدأ في المشاهد الطللية إنساناً محطمًا ، يحاول جاهداً أن يجمع شتات نفسه ، بعد

ما شهد من حوله آماله الماضية تتغطى على صخرة واقع صلب لا يستجيب ، لكنه استطاع - على الرغم من ذلك - أن يتغلب على عوامل فساد المكان الطلي (العقاء - الغواة - الملوثات المخيم) وقد اعتمد في ذلك على حس بالحياة دافق في عروقه ، ولذلك يمكنني القول - وبكل اطمئنان : إن ذا الرمة لم يقتصر في صوره الطلليلة على ابراز الفساد المكاني ، بل انه نسيج خيوط الحياة في لجة من شرائق الملواث المكاني ، دفعه الى ذلك تعلق لا متناء بالمكان الطلليل ، بصفته يشغل جزءاً واسعاً من ذاكرته في الماضي ، واهتماماته في العاضر ، وأماله المستقبلية . ولكن ذا الرمة الذي استطاع أن يتغلب على ظاهرة فساد المكان الطلليل بمحاولات شتى لبعده واضفاء الحياة عليه : بدا مستسلماً - تماماً - أمام ظاهرة فساد المناهل ، والتي تتمثل في شمره بسلسلة من الصور المكررة التي تجري على نمط واحد ، وكانتا هنا البطل المهزوم - ذو الرمة - قد خلع قناع الأمل الواهم الذي لسناء في المشاهد الطلليلة بفدت عند المناهل الصحراوية الآجنة معالم وجهه الحقيقي المغضن ياساً ، ففي حين بدا في موقفه الطلليل مهزوماً يحاول الانتصار ، يائساً يحاول اصطناع الأمل ؛ بدا في موقفه عند المنهل الآجن مستسلماً لواقعه المساوي ، قانعاً بالهزيمة ، فيصر على تغييب عنصر الأمل اصراراً لم تلمسه البتة في موقفه الطلليل .

وفما لو رصدنا صور المنهل الآجن من خلال علاقاتها السياقية ، ومن خلال الوظيفة المنوطة بها في ذلك السياق : لأنكنا أن نسجل الملاحظات الثلاث التالية :

١ - انعكس الفساد الاجتماعي على صورة المنهل الأجل الفاسد :

إن ذا الرمة الذي طلما اجتاز الصحراً وحيداً دوننا أنيس ؛ لا بد أن تتداعى له صور - أو بقايا صور - من مضييه ، هذه الصور تعكس علاقته بالمجتمع وأفراده ، وبعض الذي كان بينه وبين بعض الناس من عادات ، فإذا ما صادف في رحلته ماءً آجناً أثار اشمئزازه ؛ وجدته يسقط واقعه النفسي الخاص على ذلك المكان ، وكانتا المنهل الآجن الفاسد هو المجتمع نفسه ، ولكن بصورته المashaة ، ففي حين يبدو الماء العذب رمزاً للحياة في الواقع ، يبدو الماء الآجن - على التقىض - من ذلك - رمزاً للحياة القاتمة المشوهة ، وصورة لمجتمع فاسد مقيت ، فعلى سبيل المثال ، حينما تتداعى صورة العائد المبغض ذي الكبار للشاعر في رحلته ؛ تثير هذه الصورة في نفسه حس الاشمئزاز من المجتمع الفاسد فيربط الصورة ببطأ ميقاتاً على التوالي بصورة معادلة ممثلة بالمنهل الآجن الأسن الذي يبدو كابوال المخاض :

بفاطمة توهي عظام العواجب(١٦)

إلى أصل مال من كرام المكاسب

من الآجن أبوالمخاض الضوابـ

ورب أمرـه ذي نخوة قد رميـه

وكسب يغـيـط العـاصـدـين اـحـتـويـته

ومـاءـ صـرىـ عـافـيـ الثـانـيـاـ كانـه

٢ - ارتباط فساد المكان بقلق التجربة العاطفية :

ان الصحراء التي اجتازها ذو الرمة بعد وقوفه على الطلل أكدت له حس الوحشة والخواص المكانين اللذين شعر بهما في المكان الطللي، وبما أن (مية) هي الرابط الأساسي بين المكانين (الطلل والصحراء) - بصفتها صاحبة الطلل، ولأنها ترتاد الشاعر في رحلته الصحراوية على هيئة طيف أو خيال - فان حس الخواص والفساد المكانين هو احساس باطنى بالفقر العاطفى ، فندو الرمة الذي يرتاده طيف العجيبة في رحلته فيانس به ، يستيقظ على حقيقة كونه طيفا لا يمكنه أن ينجو نعوه مقابلًا ومدانيا ، وبذلك تأتى صورة المنهل الأجن عن قلق التجربة وحس الفشل الماطفين :

زار الخيال مليء بعد ما خست
بنفحة من خزامي فائج سلـ.
عيهات ميـة من ركب على قـلـصـ
راحت من الخـرـجـ تـهـجـيـراـ فـماـ وـقـتـ
تسـمـوـ إـلـىـ الشـرـفـ الـأـلـقـصـ كـمـاـ نـظـرـتـ
وـمـنـهـلـ آـجـنـ قـفـرـ مـعـاضـرـهـ
أـورـدـتـهـ قـلـقـاتـ الضـفـرـ قـدـ جـعـلتـ
عـناـ رـحـىـ جـابـرـ وـالـصـبـعـ قـبـجـشـرـاـ (٢٠)

٣ - ابعاد اليأس الوجودي في صور المنهل الأجن :

من الملاحظ أن ذا الرمة مدفوع في صورة المنهل الأجن نحو يأس جارف أشبه ما يكون بآيس وجودي ، تزداد فيه حدة التوتر ، ويتعقق فيه حس المأساة ، وازدياد حدة التوتر النفسي دفع الشاعر الى الانسياق وراء فكريتي العيش والتقطز الوجوديين اللذين تظهران في صور المناهل الأجنة بجلاء ووضوح ، فندو الرمة في صور المناهل الأجنة لا يشعر بآي اطمئنان ازاء الحياة ، انه يخشى المجهول ، ويصطدم بفكرة الفنان والتاهي والظلمة ، وقد لاحظت خلال رصدي لصورة المنهل الأجن في شعره أنها تربط ارتباطا تماماً - دونما شواذ - بفكرة الظللام ، فهو لا يطرق هذه الأمكنة الفاسدة المليئة الا ليلا ، والليل زمان محااط بالمهول ، ملتف بالمخاوف ، يتساوى فيه الوجود والفناء ، ولعل من ابرز مظاهر العيش الوجودي في صور المناهل الأجنة محاولة طلب الماء من المورد المرة تلو المرة بعد ظلمًا شديد مستأنس ، ولكن الدلو لا يأتي الا بنسيج المنكبوت ، حتى اذا ما كثرت المحاولة اتى الدلو بماء آجن ، كانه ماء المشيمية او المخاض ، وكتيبة حتية لمعبثية المحاولة يسيطر على ذي الرمة احباط نفسي مطبق :

فـادـلـىـ غـلامـىـ دـلـوـ يـبـتـغـىـ بـهـ
شـاءـ الصـنـىـ وـالـلـيـلـ حـولـىـ مـطـبـقـ (٢١)
فـجـاءـتـ بـنـسـجـ العـنـكـبـوتـ كـانـهـ
عـلـىـ عـصـوـيـهـ سـابـرـيـ مـشـبـرـقـ

نَجْوَبُ إِلَيْهَا اللَّيْلُ وَالظَّرْقُ !!
 فَبَعَادَتْ بِمَدْهُ نَصْفُهُ الْمَنَ آجِن
ثالثاً المُشَاكِلَةُ الزَّمَانِيَّةُ لِلْمَكَانِ :

ان المكان خاضع لسيطرة الزمان ، مرتبطة به ، متغير بتغييره ، ولذلك ترتبط الصورة المكانية - للأطلال خاصة وللصحراء عامة - بالزمان ارتباطاً وثيقاً . ومن خلال رصد عام لزمكانية الصورة، نلاحظ أن أواصر الارتباط بين الزمان والمكان تزداد مثابة وقوة عن طريق خلق ضرب من التجانس الفني بينهما ، اصطلاحاً عليه بالمشاكلة الزمانية للمكان ، وتبرز هذه المشاكلة :

- على صعيد الطلل : بالزمن الماضي المقدس الذي يلد مكانياً آنياً مقدساً .
- على صعيد الصحراء : بالمكان الصحراوي القاحل المتدن الذي يلد زماناً قاحلاً ممتدأ .
- على صعيد الطلل نلاحظ أن الزمن المقدس بالنسبة لذى الرمة - والذي يرتبط بمعانٍه السعيد إلى جوار الحببية - يضفي سمة القدسية أيضاً على المكان في الزمن الحاضر الآني ، وهذا ما عينته من المكان الآني المقدس، اللا متناهي به ، على نحو يكاد أسطوريها ، كما وتمثل قدسية المكان الطللي بالتعلق الوجوداني تجد في صورة المكان المقوته باللوشم مع ما يحمله هذا الوشم من دلالة المضي أو الاغراق في القدم ، فضلاً عما يحمله من قدسيّة ، ومن دلالات أسطورية ترتبط بمعاولات الانسان البدائية لدفع صروف الأقدار عنه :

المِزَمَنَاتُ بَعْدَكَ بَعْدَكَ الْبَوَالِي؟ ^(٢٢) بَيْنَ النَّقَا وَالْعَرَبِ الْمَعْلَلِ غَيْرِهَا تَنَاسُخُ الْأَحْوَالِ وَمُطْلَانُ الْهُضُبُ وَالتَّهَالِ جَوْنَ النَّطَاقِ وَاضِحَّ الْأَعْلَى مِنْ سَاكِنِهَا فِي رَقِ الْأَجَالِ وَكُلُّ وَضَاحٍ الْقَرَارِ ذِيَّالِ كَانَمَا هُنَّ لِهِ مَوَالِ صَبَابَةٌ لِلَّازِمِنِ الْغَوَالِي	مَا هَاجَ عَيْنِيكَ مِنَ الْأَطْلَالِ كَالْوَحْيِ فِي سُوَاعِدِ الْعَوَالِي وَالْعَفْرُ مِنْ صَرِيمَةِ الْأَدْحَالِ وَغَيْرُ الْأَيَّامِ وَالْلَّيَالِي مِنْ كُلِّ أَهْوَى مُطْلِقِ الْعَزَالِي فَاسْتَبْلَلَتِ الْأَنْهَرُ ذُو اسْتِبْدَالِ فَرَائِدُ مُوشَّئِ شَيْةِ الْأَرْمَالِ فَانْتَرَى إِلَى صَلْوَكَ ذَا بَلْبَالِ
---	--

ان الاستفهام الانكاري في افتتاحية القصيدة - والذي يبدو في ظاهره استنكاراً للتعلق بالمكان الزمن البالي - ما هو الا تأكيد لهذا التعلق واصرار عليه ، ينبع ذلك التعلق من قدسيّة المكان واغراقه في القدم ، والذي يبرز بصورة أكثر جلاء في صورة الوشم (الوحى) فضلاً عن ارتباط هذا الوشم بسوانع النساء الفاتنات المتزيّنات ، ومن خلال هذه الصورة التي يجمع بين أطراها الوشم تتأكد أواصر العلاقة بين أطراف هذه الثلاثية:

(ذو الرمة - المكان - المرأة)

ويبدو الصراع الزمنكاني في استبدال كائنٍ حي بأخر آهل للمكان ، وسواءً أكان هذا الاستبدال تعبيراً عن الأغرق في فكرة المقام ! أم تعبيراً عن محاولات البعد وفكرة الحياة - على نحو ما أراه - فان فكرة التغيير قائمة لا جدال فيها ، وهذا التغيير - كما بينت - مرتبط بالزمان :

(غيرها تناصح الأحوال ، وغير الأيام والليالي ، فاستبدلت والدهر ذو استبدال)
ولذلك يمكن للقاريء أن يلاحظ أن قدسيّة المكان لا تبع من تغيره وعفائه ، بل هي ثابعة من قدسيّة زمنه الماضي .

هذا على صعيد العلل ، أما على صعيد الصعراء فتبدي المشكلة الزمنكانية في المكان الماصل الذي يلد زماناً مجهولاً قاحلاً ، على نحو ما وجدنا في تحليل ظاهرة فساد الأمكنة ، فالمناهل الآجنة الآسنة التي اصطدم بها الشاعر في رحلاته بعد تجربة ظلماً مريرة ارتبطت من غير شذوذ بصورة الليل حيث يقبع المجهول وتثور الهواجس ، فندو الرمة ما كان ليطرق هذه المناهل التي بدت في طعمها كأبوال المخاض إلا ليلاً ، وسواءً أكان هذا الربط الزمانى بالمكان ربطاً شعورياً تعمده الشاعر - على نحوماً اعتقاد لكونه لم يشد عنه البتة - أم كان ربطة لا شعورياً : فالثابت يقيناً أن ثمة مشكلة بين أبعاد المكانية للمنهل الأجن وزمانها المرتبطة به .

وإذا كان المكان الصعراوى يلد زماناً صعراوىأ قاحلاً : فإن الحديث قياس بالنسبة للأمتداد ، أي أن المكان الصعراوى المتد يلد زماناً صعراوىأ متداً ، وهذا الزمان المتدا نتيجة حتيبة لاجتياز المكان في أيام طويلة متدة ، وهذه الظاهرة انعكست على صور ذي الرمة المكانية ، فمن الملاحظ أنه يرصد أبعاد موجودات المكان وهياتها رصدًا زمنياً متداً ، فهو لا يسر على صورة المuar الوحشى - مثلـ مرورا سريماً ، ولا يجمد هذه الصورة في لحظات زمنية ثابتة ، بل يرصدها رصدًا شمولياً ، فتتعدد الأزمنة وتمتد بتعدد الأمكنة وأمتدادها ، على نحو ما نجده في الجدول التالي الذي رصدت فيه زمنكانية مشهد حمار الوحش في لوحة ذي الرمة البائية (٢٣) :

زمان المشهد	مكان المشهد	ملابسات المكان	الحالات
المسباح	أرض التلصيماء	حوار الوحش يرتع مع أنته في المكان	الأبيات ٣٧ - ٣٥
الظهيرة	أرض التلصيماء	انقضت لهجاف المكان نتيجة حر الصيف	الأبيات ٤١ - ٣٨
المغيب	مفادة التلصيماء	اشتداد الماء العطش	البيتان ٤٣ - ٤٢
الليل	الماء وخارج الملامسة المسمى نحو المورد (عين أثال)	المكان محاط بحسب الموت (المائد)	الأبيات ٤٤ - ٤٤
الفلس	عين أثال	تصعيد حركة العذون بعد النجاة	الأبيات ٦١ - ٦٠
	مفادة الماءين		البيتان ٥٩ - ٤٩

ويمكنا أن نلمس هذه المشاكلة الزمكانية في غير موضع من نصوص ذي الرمة ، فعلى سبيل المثال تقاد ترتيب مشاهد الصيد في شعره ارتباطاً وثيقاً بالليل ، فهو يصر على جلب الفريسة من مكان بعيد متنفساً في رصد المشقة المبذولة في السعي نحو الحياة (عِنِّ الْمَاءِ) وتبدو الحياة الملفمة بالموت شديدة الالتصاق بطبيعة الليل ، وما يحيط به من وساوس ومخاوف ، ولذلك يرى أن زماناً كالليل هو أنساب ما يكون لرصد لحظة الصيد ، لأن ذلك الزمان المظلم يستطيع أن يلقي بظلاله على مكان مجده مخوف محاط بحشموت من تقب ، فمثلاً : يرتبط مشهد الصيد في واحدة من لوحات ذي الرمة بلحظة زمنية كان من الممكن للشاعر أن يعبر عنها بلفظ (المغيب) أو ما جرى مجرد في المدى ، إلا أنه يشكل بين واقع المكان المحاط بالموت وسعي العمر الوحشية نحو مسرعة تتح الخطأ : وبين واقع الزما المختار (المغيب) فيأتي بالزمن مرتبطة بصورة الشمس المحتضرة :

فَلَمَّا رَأَيْنَ اللَّيْلَ، وَالشَّمْسَ حَيَّةً
حَيَاةً الَّذِي يَقْضِي حَشَاشَةً نَازِعَ(٤)
نَعَاهَا لِشَاجِنَّهُ، ثُمَّ اتَّهَى
تَوْحِى بِهَا الْعَيْنَيْنِ؛ عَيْنِي مُتَلَّعِّرٍ

لكننا فيما لو رصدنا مشهد الصيد الخاص بهذه الصورة رصدنا سياقياً للاحظنا أن لحظة الصيد الفاشل لا تتم في المغيب ، بل في ظلمة الليل ، وعلى وجه التحديد قبيل اندفاع الفجر ، وبذلك يرتبط الفلس - وهو ظلمة آخر الليل - بالموت المثلث يتربع الصائد كما يرتبط - أيضاً - بالولادة والحياة المثلثين بندم الصائد وفشلها ، ونجاة العمر وهربها ، واقتراب الفجر من البزوغ ملئنا ميلاد النهار ، وبشكل عام نلاحظ أن حس الموت مرتبطة بزمان مغيب الشمس ، في حين يرتبط الموت نفسه بظلمة الليل .

رابعاً : كونية الروية المكانية :

إذا غيّبت المنهج الأسطوري جانباً لاعتبارات شتى أهمها انصرافه عن فنية الصورة الشعرية بصفته منهاجاً فنياً ; أمكنتني ملاحظة نظرة ذي الرمة الكونية للمكان ، وهي نظره بعيدة عن الأبعاد الجغرافية الطبيعية للصحراء بصفتها المكان الأبرز في شعره ، وبذلك تبدو الأرض أثني السماء ، أو لنقل : الوجه الآخر للكون ، حيث يُجري الشاعر ضرباً من المبادلات بين الموجودات الأرضية والسماوية تأكيداً لكونية رويتها للمكان ، وتم هذه المبادلات باتجاهين متراكبين (من السماء إلى الأرض ، ومن الأرض إلى السماء) ومن وجهة نظر خاصة لا أرى هذه المبادلات تعبيراً عن روّى أسطورية للمكان بقدر ما هي تعميق للصلات بين جملة من الموجودات المتبااعدة لتنصهر في وبة كونية واحدة ، وهذا تفسير منطقي ليروز ظاهرة الصور المتبااعدة في شعره .

ومن الملاحظ أن هذه الروية الكونية للمكان في صور ذي الرمة تقاد تنحصر في ثلاثة أبعاد :

- أولها : نقل الصورة السماوية إلى العالم الأرضي .
- ثانيها : نقل الصورة الأرضية إلى العالم السماوي .
- ثالثها : التوحيد بين الموجودات الصحراوية العية .

١ - نقل الصورة السماوية الى العالم الأرضي :

تبزر الكونية في هذا البعد من خلال رؤى ذي الرمة الموحدة بين عالمين : عالم السماء بموجوداته وعالم الأرض بموجوداته أيضاً، وبذلك تختضمن السماء - فضلاً عن موجوداتها - موجودات أرضية ، فقد تبديو (الجوزاء) لذى الرمة وهو يقلب بصره في السماء في احدى رحلاته الصحراوية وكأنها (صوار) أو قطبيع من البقر يتقدم نحوه من ناحية حبل (أمييل) الرملي :

وأرمي يعني النجوم كانسي
على الرجل طاو من عتاق الأجادل^(٢٥)
وقد مالت الجوزاء حتى كانها
صوار تسللى من أمييل مقابل

ان هذه الصورة الملتصقة بمنطقة (أمييل) الرملية الغالية من مظاهر الحياة ، والتي تمتد طولاً مسيرة ثلاثة أيام : لا بد أن تكون وليدة ظروف الوحشة والاغتراب المكانين ، ولذلك يستعين ذو الرمة بجوزاء العالم السماوي لتمد ذلك المكان الغلاء بقطيع من البقر التجميمية تتوجه نحو الشاعر لتس McBridell وحشته أنساً ، ان هذه الرؤية العالمة هي بشكل أو بأخر تعبير عن رغبة جامحة في احياء المكان وبعثه في اطار من كونية الرؤى . وفي صورة أخرى تبدي النجوم اللامعة في السماء كالهما واليعافر في العالم الأرضي ، مما يضفي على العالم السماوي بعدها جمالياً يتمثل في رؤى الشاعر للسماء والظباء على هيئة النجوم السماوية :

وردت واردادف النجوم كانتها
على نِضوة تهدي بركب تطوهوا
وداء السماءكين الها واليعافر^(٢٦)
على قلّاص ابصارهن غواائر

كما يمكننا أن نلاحظ هذا البعد الكوني في صورة نجوم الثريا مع نجم الدبران وما يتبعه من صغار النجوم المثلثة بالنموذج الصوري التالي :

وردت اعتسافا والثريا كانتها
على قمة الرأس ابن ماء مُعلق^(٢٧)
يسدف على آثارها دَبَرَانَها
فلا هو مسبوق ، ولا هو يلحق
بعشرين من صفرى النجوم كانتها
ـ وايات في الخضراء لو كان ينطلق ـ
ـ هجائن قد كانت عليه تفترقـ
ـ قِلاصـ حَدَّاها راكب مُتَعَمِّمـ

ففي هذا النموذج ينتقل ذو الرمة الصور من عالمها السماوي الى العالم الأرضي على مرحلتين :

تبدأ المرحلة الأولى بنقل صورة الثريات من عالم السماء الى الفراغ المطلق بين السماء والأرض - الجو - فتبديو نجوم الثريا وكأنها طائر (ابن ماء) يحلق في الفضاء ، من ثم تبدأ المرحلة الثانية ويبديو فيها نجم (الدبران) خلف الثريا بمنزلة لا يكاد يتعداها ، ومن

خلفه عشرون من صفري النجوم ، وكانا (الدبران) لرجل يحدو عشرين من السوق في تلك السماء الأرضية !!

وفي هذه النماذج المصورية وما جرى مجرىها يتوحد الامتدادات السماوي والأرضي ، وينصهران في امتداد سماوي أرضي تبدو فيه الموجات السماوية موجودات أرضية ، على النحو الذي ستبدي عليه الموجات الأرضية موجودات سماوية في البعد الثاني من روى ذي الرمة الكونية للمكان .

٢ - نقل الصورة الأرضية إلى العالم السماوي :

من خلال رصد صور ذي الرمة الطللية نلمس منه محاولة لاضفاء جو من السحر السماوي على المكان الطللي المغنى ، وتمثل هذه المحاولة بتصوير العينين والأرانب في المكان وكانتها نجوم سماوية متقدة، وقد ينقل ذو الرمة أرض الطلل بما فيها من ظباء وأرانب إلى السماء الصحراوية بما فيها من كواكب ونجوم :

بها عَفَرَ الظباء لها نَزِيبْ وأَجَالَ مَلَاطِهُنْ شِيمْ
كَانَ بِلَاهِنْ سَمَاء لَيْلَ تَكَثَّفَ عَنْ كَوَاكِبِهَا النَّجُومْ

ولا تقصر روى ذي الرمة المكانية على التوحيد بين أرض الطلل وسمائه ، بل تمتد هذه العبرة الكونية لتشمل نقل الصراع من أرض الصحراوى إلى سمائها ، نلاحظ ذلك - على سبيل المثال - في مشهد صيد الثور الوحشى الذى طارده كلاب الصيد ، ذكر يمشق فيها طمنا ، ثم ولى :

كَانَهُ الْأَجْرُ فِي الْأَقْبَالِ يَحْتَسِبْ^(٢١)
وَخَفَا ، وَتَنْتَقِمُ الْأَسْعَارُ وَالْجُنُبُ
حَالًا ، وَيَصْرُدُ حَالًا لَهُنْمَ سَلَبُ
وَزَاهِقًا ، وَكِلَارَوْقِيَهُ مَخْتَضُبُ
جَذَلَانَ قَدْ افْرَخَتْ عَنْ رُوْعَهُ الْكُرْبُ
مَسْوَمٌ فِي سَوَادِ الْلَّيْلِ مَنْقُضِبُ

فَكَرْهُ يَمْشِقُ طَعْنًا فِي جَوَانِهَا
فَتَسَارَهُ يَخْيُضُ الْأَعْنَاقَ عَنْ عَرْضِ
يَنْسِعُ لَهَا حَدَّهُ مَلْدِرِيَ يَجْوَفُ بِهِ
حَتَّى إِذَا كَنْهُ مَعْجُوزًا بِنَافِذَةٍ
وَلَتِي يَهْذِهُ انْهَزَاماً وَسَطَهَا ذَعِيلًا
كَانَهُ كَوْكَبٌ فِي أَشْرِعِفِيرِيَةٍ

ان صورة الثور الوحشى في البيت الأخير لا تجسد صورة الانهزام فحسب ، وإنما تجسد - أيضاً - الصراع في المعركة التي دارت بين الثور وكلاب الصيد تجسيداً كونياً يتمثل في نقل صورة الصراع الأرضي إلى العالم السماوي ، فهذا الثور في عالم الأرض كوكب في السماء ، وتلك الكلاب المدوّمة التي طفت في المیوان وجه آخر للجن "التي ذهبت تسترق السمع في السماء فأتباعها شهاب مسوم ثاقب .

وإذا رصدنا صورة صراع الثور الوحشي في سياقها لاحظنا إن ذي الرمة مهند بصورة (تدويم الكلاب) لتصعيد الصراع من العالم الأرضي إلى العالم السماوي :

حتى إذا دوّمت في الأرض راجعة كِبْرٌ ولو شاء نجى نفسه الهرب (٢٠)

ومن المعروف أن التدويم إنما يكون في الجو (٢١) ، وعلى أساس من هذه الدلالة يشكل (تدويم الكلاب) نمطاً من أنماط الصور المتباينة القائمة على الدقة والخفاء ، والتي لا تعمد فيها الشابهة بين عناصر متقاربة ذهنياً ، بل تقاربها حالاً ، قائماً على أساس الرؤى الحالية التي انتقلت الصورة بواسطتها من نطاقها الضيق المحدود (الأرض) إلى أفق كوني (السماء والأرض معاً) رغبة في توسيع دائرة الصراع كونياً ، فضلاً عنربط الصورة بدللات أخرى كذلك العركة الالتفافية الماطفة في مكان غفل ممتد ، وهاتان المستantan مكتسبتان من لفظة (التدويم) ، مستمدتان من طبيعة السماء المتعددة الفقل في لحظات الصراع الفجيري ، حيث لا شيء في السماء سوى خيوط الشمس الأولى المتسللة في هدوء مرير معلنة لحظة الولادة ، لحظة انتصار الحياة – حياة الثور الوحشي – على الموت .

ومن يرصد أمثل هذه النماذج الصورية في ديوان ذي الرمة يجد أنها كثيرة وليس ثمة حاجة إلى ذكرها جميعاً مع استحالة ذلك .

٣ - التوحيد بين الموجودات الصحراوية العية:

في هذا البعد تبدو الكائنات المية الصحراوية واحدة على اختلافها في الواقع ، وهذا التوحيد ناجم عن ارتباط عميق بال الموجودات المية المكانية ، وقد اختر ناتموذجين ممثلين لهذا البعد يمكننا تعميمهما على سائر النماذج الصورية المشابهة :

النموذج الأول : صورة الناقة الجملية .

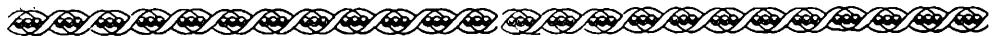
النموذج الثاني : صورة المُنْسُ الإبلية .

في النموذج الأول تبدو الناقة التي حنكها السير في الصحراء – فأخرجها عن نعومة الأنوثة – وكانتها جمل ضخم وهم ، لا ت慈悲 به كلاله من سير ، ولا ينال منه نصب :

كأنها جَمَلٌ وَهُنْ وَمَا بَقِيتَ إِلَّا التَّعِيزَةُ وَالْأَلْوَاحُ وَالْعَصَبُ (٢٢)

لا تشتكى سقطة منها وقد رقت بها المفارز حتى ظهرها حدِب

ان تأكيد التوحيد بين الصورتين (صورة الناقة وصورة الجمل) تأكيد على قوة الناقة وصلابتها ، كما أنه تأكيد على كونية رؤى ذي الرمة للموجودات الحية في الصحراء . و بما يؤكد هذا التوحيد الكوني نموذج صوري آخر للناقة الجملية تبيّن فيه كأنها طير الشمن ، ثم تبيّن كأنها طبّي ، ولعلها – كذلك – جمل وهم !! ان هذه التعددية الصورية لدليل كاف على كونية رؤى ذي الرمة للموجودات المكانية ، فهذه الناقة التي رسم لنا صورتها يكاد لا يحيط المقل بها مجتمعة ، الا أن يكون ذلك في رؤى خيالية جامحة حالمه :



دياميمنه طار التَّعْلِيل المرقع^(٣٣)
أراحيها ، والماطلي الهمماع
بنا سِيرَةً أعنافهن تززع
أحْمَ الشَّوَّى عاري الفنابيب اقرع
نهوض اذا ما اجتابت الفرق اتلع

على مُسْتَوِي نازِي اذا رقصت به
ستمَّ نجت منه المهاري وغودرت
قلائقن ما يُصْبِعُن الا روافعا
يغِدِن اذا بارين حرفَا كانها
جمالية شدفاء يمطوا جديلتها

وفي النموذج الثاني من نماذج التوحيد بين الموجودات الصحراوية المية يصور ذو الرمة
العمر الوحشية الساعية نحو (عين أثال) وقد سلبها ألم العيش فبدت في رؤى الشاعر
ابلاً مسلوبة من غنية افتنتها قوم مغيرون :

كانها ابلٌ ينجو بها نفر من آخرين أغاثوا غارة جَلَبَ^(٤)

في هذه الصورة توحيد بين العمر الوحشية والابل المسلوبة ، فالابل المسلوبة اتنا
سلبها قوم مغيرون ، في حين أن العمر الوحشية سلبها الطما المريض الذي تعانىه فأوردت نفسها
موردة التهلكة ، أو كانت ، ولذلك تبدو الظروف المحيطة بالصورتين واحدة فالأخلي (الابل)
قادها المغيرون بعيداً عما تألف من الأمكانية لتعانى تجربة مريرة تتمثل في النفر والطرد ،
والثانية (العمر) قادها العيش بعيداً عن الموضع الذي أفلت لتعانى تجربة المفوق وحسن
الموت البارزين في مشهد الصيد ، وفي هذه الرؤية الكونية للموجودات تبدو الممانة واحدة
بين الكائنات الحية وان اختللت الوسائل والدوافع (الطرد للابل ، القنص للعمر) .

ولكن ثمة سؤال مطروح

ما الفایة المرجوة من هذا التوحيد الكوني بين الموجودات ؟

بتعبير آخر :

ما دلالات هذه الظاهرة ؟

تطول الإجابة ، ولكن يمكنني القول بایجاز : ان رؤى ذي الرمة الكونية للمكان -
والمثلة باجراء المبادرات العية بين الموجودات السماوية والأرضية رؤية كونية - لدليل
 واضح على محاولته تعميم الاحسان بالمكان من جهة ، وبموجودات ذلك المكان من جهة
أخرى ، وهذا التعميم واضح في رؤى كونية شاملة واسعة الآفاق ، تحطم الحدود الطبيعية
الجغرافية للمكان ، كما تحطم الاستقلالية المزعومة لموجوداته .

خامساً - تعميم التجربة الشخصية مكانياً :

يبرز تعميم التجربة الشخصية مكانياً كأحد أهم وظائف الصورة المكانية في شعر ذي الرمة ، ويمكّنا رصد هذه الظاهرة في شعره على صعيدين اثنين :

أولهما : تعميم التجربة الشخصية على المكان (ظاهرة تعدد الأمكنة واتساعها) .

ثانيهما : تعميم التجربة الشخصية على الموجودات المكانية ، ويتعلّق في ثلاثة ظواهر :

آ - تعميم الارتباط المكانى على الموجودات المكانية العية .

ب - تعميم القلق الذاتي على الموجودات المكانية العية .

ج - تعميم الصراع الانساني على الموجودات المكانية عامة .

١ - تعميم التجربة الشخصية على المكان (ظاهرة تعدد الأمكانة واتساعها) :

ان كثرة أسماء الأمكنة في صور ذي الرمة للدلالة واضحة على ما تحمله من بنور أولية لتجربة التجربة الشخصية على المكان . ان ذا الرمة حينما يصر على تعددية المكان في صوره المكانية انما يعبّر بذلك عن تجربة شخصية ذاتية مشاكّلة لواقع المكان ، وغالباً ما تكون تجربة العرمان الشخصي ، مقابل واقع الغلام المكاني متقرّناً بالعقلاء والقديم ، والغريب في الأمر حقاً أن ذا الرمة يربط اسم محبوبته (مي) - والتي أميل إلى الاعتقاد بأنها (الخرقاء) نفسها (٢٥) - بأسماء أمكنة يضيق المقام عن ذكرها ، فهل يُعقل أن تكون هذه الفتاة المشوقة قد قطّنت مع قومها هذا الكـم الوافر من الأمكنة التي ادعى ذو الرمة أنها اطلال مية الخرقاء !؟

بالطبع هذا أمر محال ، ولكن الرجل كان مدفوعاً بدافع تعميم تجربة العرمان على أمكنة يصفها سكتتها مية حقاً ثم ارتحلت عنها ، وبعضاً مرت بها وما سكنت فيها ، وبعضاً الثالث تهياً للشاعر أنها ديار مية عن عمد منه في هذا التهيء مشاكّلة هذا الضرب من الأماكن لمنازل مية في الغلام والعلاء اللذين عاينهما الشاعر في اطلاق كانت دياراً مية ، ومروره بما شابهها من الديار ذكره منازل الحبيب فعم تجربة العرمان الشخصية على المكان المشاكل .

ويلاحظ القارئ في ديوان ذي الرمة أن الأمكانة في نصوصه غالباً ما يأتي تحديدها على الأيمام ، لا على الآيات ، أي أنه لا يحدد - على الفالب - دارمية تحديداً جغرافياً دقيقة مطابقاً للواقع ، بل يأتي بها على نصرين :

- النمط الأول : يُحدّد فيه المكان ايماماً على السعة والامتداد .

- النمط الثاني : يُحدّد فيه المكان ايماماً على التعدد والكثرة .

من نماذج النمط الأول - نمط السعة والامتداد - ما نجده من تعميم للتجربة

العاطفية من نطاقها الطلالي الفيقي الى النطاق الصحراوي المتد - صحراء الدهناء - فيكون تحديد الطلل في الصورة الطللية على الايهام رغبة من الشاعر في تعميم التجربة مكانيا :

**بع جانب الزرق لم تلمس معالمها
دوارج المور والأمطار والمقبـ(٣٦)
ديـار مـيـة اـذ مـيـ تـسـاعـفـنا
وـلا يـرى مـثـلـها عـجـمـ وـلا عـربـ**

ان (الزرق) هو المكان الوحيد المذكور في مقدمة لوحة ذي الرمة البائنة والتي وقف فيها مليئاً على طلل المحبوبة بية، فإذا ما تبعنا موضع (الزرق) وجدناه اسماً لا كثبة رمال معينة متوضعة في صحراء الدهناء (٣٧) ، وهذا دون من التعديل المكاني على الايهام تصعيداً لتجربة العرمان ، لتشمل المكان الأكثر امتداداً - الصحراء الدهناوية - ولا سيما أن طيف العبيبة كان يتعدد عليه في رحلاته الصحراوية، فكانها الدهناء هي الدار الطيفية للمحبوبة على نحو ما نجد - مثلاً - في أبيات تلي البيتين السابقتين :

**زارـ الـخـيـالـ مـيـ هـاجـعـ لـعـبـتـ بـهـ التـنـافـ وـالـمـهـرـيـةـ التـنـجـ(٣٨)
مـعـرـسـاـ فـيـ بـيـاضـ الصـحـ وـقـعـتـهـ
وـسـائـرـ الـلـيـلـ الـاـذـاكـ مـنـجـلـبـ
أـخـاـ تـنـافـ أـغـفـيـ عـنـدـ سـاهـمـةـ جـلـبـ**

وأما النسط الثاني الذي اتبه ذو الرمة في تعميم التجربة الشخصية ؛ فهو تعديل المكان ايها على التعدد والكثرة ، وهو النسط الفالب في شعره ، ونمائه كثيرة جداً ، لتأمل منها - على سبيل المثال - النموذج الصوري التالي :

**يـاـ دـارـ مـيـةـ بـالـلـنـصـاءـ غـيرـهـاـ
سـافـيـ العـجـاجـ عـلـىـ مـيـنـتـنـاـ الـكـلـراـ(٣٩)
عـيـنـيـ ،ـ فـلاـ تـعـجـمـيـ مـنـ دـونـيـ الـغـيـرـاـ
فـيـ دـارـ مـيـةـ اـسـتـسـقـيـ لـهـ الـمـطـراـ :ـ
هـيـنـجـ الـدـيـارـ لـكـ الـاحـزـانـ وـالـذـكـرـاـ**

فيما لو نظر القارئ المتعجل الى البيت الأول مفرداً بعيداً عن سياقه؛ توهم ان ذا الرمة يحدد موضع الطلل (دار مية) تعديداً جفراً فيأيقينا ، لكن النظر الى البيت في سياقه يبيّد فكرة تعديل المكان ، لتعل محلها فكرة الايهام بالتعديل المكاني رغبة في تعميم التجربة الشخصية اعتماداً على تعددية المكان ، فذكر اليوم الذي من به هودج العبيبة بـ (اللوى) كان دلالة على خلأ (الملصاء) من أهلها ، في حين أن موضع (الزرق) كان له دلالة التعميم ، وتتاتي هذه الدلالة من ملاحظة العلاقات اللغوية القائمة بين موضع (الزرق) ولحظة الوقوف على الطلل (اذ وقفت) ، ومكان الوقوف (دار مية) .

من ملاحظة هذه العلاقات نستنتج ان (الزرق) هو موضع الوقوف ، وبالتالي هو موضع الدار - الطلل - أيضاً ، ولكن مقابلة البيتين الأول والثالث مما يجعل الدار ممتدة

من (الملصاء) الى (الزرق) لاستحالة وقوع الدار في مكانين مختلفين بآن معاً ، والشيء نفسه يمكن أن يقال في ظاهرة التخيير المكاني، وهي ظاهرة تتضمن فيها تماماً رغبة الشاعر في تعبية المكان ، وترتبط ظاهرة التخيير المكاني بعرف العطف (أو) كما في النموذج التالي :

خليلي، عوجا اليوم حتى تسلما على دار مي من صدور الركائب (٤)

بصلب المعى أو برقة الثور لم يدع لها جدة جول الصبا والجنائب

وتبدو فكرة التعميم المكانى في هذا النموذج الصورى مقرونة بفكرة العداء بصفتها سمة مميزة لكلا المكابين (صلب المدى ، يرقق الثور) .

٢ - تعميم التعريفية الشخصية على الموجودات المكانية :

ويتمثل هذا التعميم في ظواهر ثلاث : (ظاهرة الارتباط المكاني ، وظاهرة القلق الذاتي ، وظاهرة الصراع الانساني) :

١٠ - تعميم الارتباط المكاني على الموجودات المكانية الحية .

ومن ضروب تعليم التجربة الشخصية استقطاب ظاهرة الارتباط الشخصي بالمكان على أشد الميول انتقاماً بالشاعر ، وأولها أهمية من بين الموجودات المعاصرة المية بالنسبة للانسان ، وهي الناقة ، رفيقة دربه الموحش في صحراء قاسية شاسعة مستدنة الأطراف . فمن الملحوظ أن ذا الرمة يسقط ارتباطه بالمكان الطليلى على ناقته ، بل انه يبالغ في تقصى أبعاد الاستقطاب الصورى ، فيقوم مقام الصاحب الموسى الذي يدعى صاحبه – وهو الناقة هنا – إلى الاصطيبار والتأسى ، فكلاهما في العنبر سواء :

أرى ناقتي عند المُحَصَّب شاقها رواح اليماني والهديل المُرَجَع (٤١)

فقلت لها : قرسي ، فان ركابنا وركيابها من حيث تهويين نزء

وَهُنَّ لِلَّذِي أَكْوَبَ رَعْكَسَنْ يَالْبُرِّي علم، غَرضٌ مَنَا وَمَنْهُنْ، وَقَمْ

فَلِمَا مُضِتْ بَعْدَ الْمُشَيْئِنِ لَيْلَةً وَزَادَ عَلَى عَشِيِّ مِنَ الشَّهْرِ أَذْيَاءَ

سَمِّيَتْ مِنْ مَنْ حُنْجَةَ الْفَلَامَ فَاصْبَحَتْ سَيْسَانَ لِبَهَا مِنْ الْفَعْلَةِ تَلْمِعُ

وتأكد أواصر الارتباط بين العينين - الانساني والحيواني - برباط (الأهل) ، فالشاعر يحن الى الأهل والأحبة ، وللنقاقة - في رؤى الشاعر - من الأهل من تحن اليهم ، والابطع بين العينين وحيدة المكان - ذوق الدفءاء - :

تعن الى الدهنا بخفان ناقى وانى الهوى من صوتها المترنم (٤٢)

الى ايل بالزيرق اوطن اهلها يعانون منها كل علماء معلم

ب - تعميم القلق الذاتي على الموجودات المكانية العية .

تبرز ظاهرة استقطاب القلق الذاتي والهواجس النفسية على حيوان الصحراء كبعد ثان من أبعاد تعميم التجربة الذاتية على الموجودات المكانية ، ويمكننا أن نلمس هذه الظاهرة - على سبيل المثال - في مشهد حمار الوحش والثور الوحشي من قصيدة ذي الرمة البائنة ، حيث يسقط ذو الرمة مخاوفه وهواجسه النفسي على هذين الحيوانين من حيوان الصحراء ، ففي مشهد الثور الوحشي يبدو هذا الثور وقد سيطرت عليه المخاوف الليلية التي تكاد تكون تمثيلاً عن مخاوف ذي الرمة وهواجسه نفسها :

وقد توجّس رِكْنَزا مُقْفِرْ نَسْنَسْ
بنّة الصوت ما في سمعه كَذَبٌ^(٤٢)
فِيَّاتِ يُشَّرِّه شَادٌ وَيُسْهِرُه تَذَاقُبُ الْرِّيحِ وَالْوَسَاسِ وَالْهَضْبَبِ

وتدع أصوات الريح باعثاً أولياً للمخاوف والهواجس في مكان مفترض ، ولذلك يستغل ذو الرمة القفر المكانى وصوت الريح الهوجاء ليسقط مخاوفه الذاتية على موجودات المكان العية ، كما في صورة الحمار الوحشي التالية :

مَا أَنْسَتْ عَيْنَهُ عَيْنَهُ يَنْزَعُهُ
حَتَّى انْجَلَى الْبَرَدُ عَنْهُ وَهُوَ مُعْتَسِرٌ
عَرَضَ اللَّئُوْيَ زَلَقَ الْمُتَنَّى مَلْمُومٌ
تَرْمِيَهُ بِالْمَوْرِ مَهْيَافٍ يَمَانِيَّةٌ
هُوَجَاءُ فِيهَا لِبَاقِي الرُّطْبَ تَجْرِيمٌ
مَا خَلَ مُسْدَأً وَجَفَتْ فِي كُلِّ خَاهِرَةٍ
بِالأشْعَثِ الْوَرْدَ الْأَ وَهُوَ مَهْمُومٌ^(٤٤)

ج - تعميم الصراع الانساني على الموجودات المكانية عامة :

ان فكرة الصراع الانساني حقيقة واقعة لا بد أن تتداعى للشاعر حينما يلمع الصراع بين الحيوان (صراع الثور مع الكلاب) ، وصراع الحيوان مع الانسان (صراع العمار الوحشي مع الصائد) ، فضلاً عن صراع المكان مع عوامل التفسيف الطبيعية (أثر الرياح الرملية والأمطار الغزيرة في الطلل) وللهذه النماذج من الصراعات أمثلة صورية كثيرة في شعر ذي الرمة ، بعضها أشرنا اليه سابقاً ، والم ملفت للنظر في المصور المكانية التي تقوم على تعميم فكرة الصراع الانساني على الموجودات أن قوة الحياة هي المسيطرة ، في حين أن قوة الموت تضليل وتلاشى ، ان ذات الرمة يدرك أن فكرة الصراع هي جوهر الحياة الذي تقوم به ، ولكن تعلقه بالحياة يدفعه إلى تغليبها على قوة الموت في سلسلة من الصراعات المختلفة ، ولذلك كانت كلاب الصيد - كرمز للموت - تقتل^(٤٥) ، كما كان الصائد - كرمز للموت أيضاً - يفشل ويعقب فشله ندم وحسرة^(٤٦) ، كما كانت عوامل الطبيعة - على الرغم من جورها وقوتها - تفشل في افشاء المكان وتعفيته عفاء تماماً يبيو معهما المكان مجهولاً لا يمكن للشاعر تمييزه عن غيره من الأمكنة ، وأذاعم أن ذات الرمة قد جسد في صراع الحيوان مع الحيوان تارة ، وصراع الحيوان مع الصائد تارة أخرى ؟ تجربته الشخصية المثلية بصراعه مع بنى امرىء القيس مما نلمسه في تصويمه الشعرية^(٤٧) .
اما أن يقال : ان مشهد الثور الوحشي - على سبيل المثال - جاء مجرد القص في معرض

الصورة الفنية تعزيزاً لفكرة سرعة الناقة التي يصفها ذو الرمة في افتتاحيات قصائده بعد انصرافه عن الطلل؛ فذلك زعم سطحي يجرأ الأدب من حيويته وفنيته، كما يجرد الصورة من دلالاتها الأخرى، فصورة الثور الوحشي في مشهد المصيد – وكذلك الأمر بالنسبة لمشاهد الصيد جميعها – ما هي في أعمق دلالاتها الاعتبير عن فكرة الصراع الكوني بين الكائنات، قد يقصد الشاعر من الصورة عقد المشابهة بين سرعة الناقة في الرحلة وسرعة الثور الوحشي أثناء الكر والفر في معركته مع كلاب المصيد، ولكن الاقتصار على هذه الدلالة يعني تفبيباً لغيرها من الدلالات.

أخيراً : من خلال هذه الدراسة الموجزة للصورة المكانية في شعر ذي الرمة يمكننا أن نستنتج المقولات التالية :

أولاً : تعبّر مثنوية السكون والحركة المكانين عن الصراع بين الموت والحياة، ويتضخّم من خلال هذا الصراع احساس الشاعر بالموت الغفي، لكن تشبّثه بالحياة ويقينه بقوتها دفعه إلى الوقوف في وجه فكرة الفنان .

ثانياً : ما من شك أن اختيار ذي الرمة الوقوف في وجه فكرة الفنان اختيار صعب واجه بعض الاختيارات بين العين والأخر كنتيجة طبيعية للاصطدام بعقبات الناموس الكوني وتساوی صخور الواقع المعيش، وهذا ما يربز - حقاً - في ظاهرة المناهل الآجنة في صور ذي الرمة المكانية، وقد عبرت هذه الظاهرة عن رؤى الشاعر الاجتماعية ، فضلاً عن قلق التجربة الماطفية التي عانى منها .

ثالثاً : على معيدي المشاكلة الزمانية للمكان يُحسن ذو الرمة توظيف الزمان في خدمة المكان ، فيسقط أبعاداً رمزية على الزمان ليربطه بواقع المكان ، بحسب الظروف المحيطة به ، وعلى أساس من ذلك يلد المكان القاحل المتبدّل زماناً على شاكلته قاحلاً متبدلاً، كما تتعدد الأزمنة وتختلف بمتعدد الأمكنة واختلافها ، وذلك كله يضفي على البعد المكاني في الصورة الشعرية دلالات كثيرة ، فضلاً عن الأبعاد الفنية الجمالية .

رابعاً : في كونية الرؤية المكانية ينظر ذو الرمة إلى المكان نظرة كونية مجرياً ضرباً من المبادرات بين الموجودات الأرضية والسماوية ، معمقاً بذلك الصلات بين وجهي الكون المتقابلين – السماء والأرض – وموحداً بينهما عن طريق التوحيد بين موجوداتهما .

خامساً : تبرز وظيفة الصورة المكانية بشكل أكثر جلاءً ووضوحاً في محاولات ذي الرمة تعميم تجربته الشخصية تعليماً مكانياً من خلال ظاهرة الأمكنة المتعددة المتبدلة ، فضلاً عن محاولاته تعميم تجربته الشخصية على الموجودات المكانية ؛ لإبراز ارتباطه الوثيق بالمكان ، وتصعيد حدة قلقه النفسي ، وتأكيد واقع الصراع الانساني تأكيداً كونياً من خلال تعميم الصراع على العوامل الطبيعية في المشاهد الطلبلية ، وعلى العيوب في مشاهد المصيد .

- مجمل هذه الأمور يؤكد لنا أهمية الوظيفة الصورية في نصوص ذي الرمة ، فضلاً عن تأكيد أهمية البعد المكاني فيها نتيجة ارتباط الشاعر بالمكان وبالموجودات المكانية ارتباطاً وجداً نياً حياً وثيقاً .

□ الهوامش والحالات :

- (*) هذا المقال موجز دراسة قدمت في دبلوم دراسات الأدب العربي في جامعة دمشق ، عام ١٩٩٢ م ، وقد تفضل بالاشارة على الباحث الأستاذ الدكتور نعيم اليافي .
- ١ - انظر : مقدمة لدراسة الصورة الفنية : د. نعيم اليافي، وزارة الثقافة : دمشق ١٩٨٢ ، ص ٥٥ - ٦٥ .
- ٢ - الصورة والبناء الشعري : د. محمد حسن عبد الله ، دار المعارف : مصر ١٩٧٠ ت ، ص ١٥٦ .
- ٣ - الصورة الشعرية : سفيان ثوبان ، ترجمة د. أحمد نصيف الجنابي ، ومالك ميري ، وسلمان حسن ابراهيم ، وزارة الثقافة العراقية ، ١٤٠ ت ، ص ٢١ .
- ٤ - انظر : ديوان ندي الرمة ، بتحقيق الدكتور عبد القديس أبو صالح ، مؤسسة الایمان : بيروت ، ط ١ ، ١٩٨٢ ، ج ١ - ق ١ - ص ٤ .
- ٥ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٤ - ص ١٥ . الاستعفف: السيل من الرمل ، الصبا : ربيع ١٣ هـ سعيت معها ما بالطلل من رمل ، فهي تهب ساعة وترتد أخرى .
- ٦ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٥ . الدعن: الرمل ، النكبات : ربيع تعبير بين ربعين .
- ٧ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٦ . تغوثنا : تعهدنا ، البارح الترب: الريح الشديدة الهبوب التي تحمل معها التراب .
- ٨ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٧ - ص ٢١ - ١٢ .
- ٩ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٣٠ - ص ٤٤ .
- ١٠ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٣١ - ٣٥ - ص ٤٥ - ٥٠ . المسجنج: حمار الوحش .
- ١١ - انظر مشهد (حمار الوحش) كاما في المصدر نفسه ، ج ١ - ق ١ - ب ٣٥ - ٦١ - ص ٥٠ - ٧٣ .
- ١٢ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٢٨ - ٢٩ - ص ٥٤ - ٥٣ . نش الرطب: ذهب ماوة ، والرطب: الكلأ .
- ١٣ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٥٠ - ٥١ - ص ٦٣ .
- ١٤ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٥٥ - ٦٨ - ص ٦٨ - ٧١ .
- ١٥ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٨٢ - ٨٣ - ص ٨٩ - ٩٥ .
- ١٦ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ٩٥ - ٩٩ - ص ١٠٦ - ١١٠ .
- ١٧ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ١١٤ - ١٢٦ - ص ١٢٥ - ١٣٥ .
- ١٨ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ١ - ب ١٢٢ - ١٢٦ - ص ١٣٣ - ١٣٥ . جدير بالذكر أن لهذه القصيدة البائية - فرمانين آخرین ، مختلتين من حيث العرقية والمعنى من القراءة المطروحة في هذا البحث : أولاهما قراءة شارحة لا تقدم جديداً على صعيد الاكتشاف النص (انظر : جمهور الشاعر العربي في الجاهلية والاسلام لابن زيد المترشى ، بتحقيق: محمد علي الجاوي ، دار نهضة مصر ط ١ ، ج ٢ - ٣ - ٩٢١ - ٩٨٢) والثانية قراءة مقتبسة بيروى تسجيلية ، فضلاً عن كونها قراءة مقتذلة للنص تتناول الآيات المتن الأخيرة منه (انظر : التطور والتتجدد في الشعر الاموي ، الدكتور شوقي ضيف ، دار المعارف : مصر ، ١٩٦٩ ، ص ٧٧٤ - ٧٧٦) .
- ١٩ - ديوان ندي الرمة : ج ١ - ق ١ - ب ٢٠ - ٢٢ - ص ١٤٧ - ١٩٨ . النغوة - هنا - يعني الكبير ، والفاطمة : خصلة تقطم الغضم ويروى على (قاصمة) أيضا ، الصنرى: الماء طال حبسه لغيره .
- ٢٠ - المصدر نفسه : ج ٢ - ق ٣ - ب ٢٧ - ٢٢ - ص ١١٦٠ - ١١٥٧ . الفائق متسع ما بين مرتفعين ، أجر هـ: مرضى وجد ، اتفاقى: الشق ، القاوا : مكان يقال له : قواريلان .
- ٢١ - المصدر نفسه : ج ١ - ق ٣ - ب ٥٤ - ٥٧ - ص ٤٩٥ - ٤٩٧ . ماء السلى: ماء المشيمة . وانظر ايضا - على سبيل المثال - ج ١ - ق ١٥ - ب ٣٠ - ٣٣ - ٣٧ - ب ٥٦ - ٥٩ - ٦٧ - ب ٢٥ - ٢٦ - ٢٧ - ٢٨ - ٢٩ - ٣٠ . وبعد الأستاذ يوسف اليوسف أول من أشار باختصار شديد الى البعد الوجودي والبعد الرمزي اللا شعوري في صورة المتأهل الاجنة من شعر ندي الرمة ، في صفحات مكثفة من كتابه : (الفزل العذرى) ولكنها تعنى بهذا عظيمًا على صعيد اختزال المعلومات وفق نظام لغوي أشبه ما يكون بالشيفرات النقدية . (انظر كتابه : الفزل العذرى ، دار العقائد ، ١٩٨٢ - ١٠٥ م من ١٠٧) .
- ٢٢ - ديوان ندي الرمة : ج ١ - ق ٨ - ب ١ - ١٧ - ص ٣٦٧ - ٣٧١ . القصيدة وجز كل شطر منها بيت . الوحي : الوشم ، العوالى : النساء عليهن العلى ، البرع : الرأبة من الرمل ، العقر : اكثية بيسن ، صریمة الادھال : موضع ، الإحوی : السعاب ، مطلق العزالی : مرصل القيث ، جون النطاق : أسود .

- ٢٣ - انتظـر الشهـد في قصيدة ذي الرمة الـبـالـيـة في دـيـوـانـهـ: جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٢٥ـ - صـ ٦١ـ - ٧٣ـ .
- ٢٤ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - بـ ٢٥ـ - ٣٧ـ - ٣٨ـ - ٨٠٢ـ - ٨٠١ـ - ٣٩ـ . مـتـالـعـ: جـيلـ يـناـحـيـةـ الـبـرـعـةـ فـيـ سـقـعـهـ هـيـنـاـ مـاءـ .
- ٢٥ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - بـ ٤٩ـ - ٤٥ـ - ٢٥ـ - ٣٤ـ . الـأـجـادـ: الصـقـورـ ، صـوـارـ قـطـيـعـ مـنـ الـبـقـرـ .
- ٢٦ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ٣٢ـ - ٣٩ـ - ٣٨ـ - ١٠٣ـ . السـمـاـكـ: كـوـكـبـانـ نـيـانـ فـيـ السـمـاءـ ، أـولـهـماـ: السـماـكـ
- الـأـعـزـلـ ، وـثـانـهـماـ: السـمـاـكـ الـرـاعـيـ .
- ٢٧ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - ١٢ـ - بـ ٦٨ـ - ٥١ـ - ٥٠ـ - ٤٩ـ - ٤٣ـ . يـدـلـ: الـلـهـيفـ سـيـرـ كـالـطـيـرانـ ، الـخـضـرـاءـ: السـمـاءـ .
- ٢٨ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ١٩ـ - ٤ـ - ٤ـ - ٦ـ - ٦٦٩ـ - ٦٧٠ـ . الـأـجـادـ: الطـوـلـ ، الـعـجـوزـ: الـلـهـيـ جـهـزـتـ الـطـلـعـ مـنـ الـقـاتـالـ .
- ٢٩ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٤٩ـ - ٤٠ـ - ٣٩ـ - ٣٨ـ - ٣٧ـ . الـأـسـعـارـ: الـرـئـاثـ ، الـجـبـ: مـفـرـدـهـ حـيـابـ الـمـلـىـ
- بـهـ الـعـجـابـ الـعـاجـزـ ، الـمـلـرىـ: الـقـرـنـ ، الـهـلـمـ: الـمـدـيـدـ ، الـسـلـبـ: الـطـوـلـ ، الـعـجـوزـ: الـلـهـيـ جـهـزـتـ الـطـلـعـ مـنـ الـقـاتـالـ .
- الـنـافـلـةـ: سـفـةـ الـطـلـعـ ، الـرـوـقـ: الـقـرـنـ ، الـهـلـ: الـرـاسـيـعـ ، الـعـفـرـيـ: شـيـاطـيـنـ الـجـنـ ، وـانتـظـرـ نـوـدـجـاـ مـعـاـلاـ (ـيـ)ـ
- جـ ١ـ - ١٢ـ - بـ ٥٨ـ - ٥٩ـ - ٦٣ـ - ٦٤ـ - ٦٣ـ .
- ٣٠ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ / ٣ـ / ١ـ / بـ ٩٠ـ / صـ ١٠٢ـ .
- ٣١ - ذـهـبـ اـبـنـ الـقـيـمةـ - تـ ٢٧٦ـ - إـلـىـ تـفـطـةـ ذـيـ الرـمـةـ فـيـ اـسـنـادـ (ـالـتـدـوـيـمـ)ـ لـكـلـابـ مـسـتـنـدـ فـيـ ذـلـكـ إـلـىـ مـقـوـلـةـ لـفـوـيـةـ
- لـلـأـسـمـعـيـ: لـانـ التـدـوـيـمـ سـفـةـ الـطـلـيـرـ فـيـ السـمـاءـ ، قـالـ:
- وـاخـذـ عـلـيـهـ قـوـلـهـ يـصـفـ الـكـلـابـ: حـتـىـ إـذـ دـوـمـتـ فـيـ الـأـرـضـ (ـالـبـيـتـ)ـ ، قـالـواـ: وـالـتـدـوـيـمـ اـنـهـ هـوـ فـيـ الـجـوـ ،
- يـقـالـ: دـوـمـ الـطـائـرـ فـيـ السـمـاءـ إـذـ حـلـقـ وـاسـتـدـارـ فـيـ طـيـاهـ ، وـدـوـيـ فـيـ الـأـرـضـ (ـيـ)ـ: ذـهـبـ .
- وـابـنـ الـقـيـمةـ فـيـ حـكـمـهـ هـذـاـ تـالـقـ جـزـيـاتـ لـأـنـاـ لـكـلـابـ ، اـنـتـرـ الصـورـةـ مـنـ سـيـالـهاـ ، ثـمـ حـكـمـ عـلـيـهـ حـكـمـ لـفـوـيـاـ بـعـدـاـ
- عـنـ طـبـيـعـةـ الـشـرـ يـصـفـهـ فـامـلـيـةـ لـفـوـيـةـ مـرـفـقـ جـمـالـيـةـ ، وـهـذـهـ الـعـمـالـيـةـ تـاتـسـيـنـ مـنـ قـيـامـ الـعـلـاـقـاتـ الـلـفـوـيـةـ فـيـ النـصـ
- الـشـعـرـ عـلـىـ أـسـاسـ مـنـ الـأـنـزـيـاحـ الـدـالـلـيـ عـلـىـ نـوـعـ ماـيـضـنـعـ فـيـ تـعـلـيـلـنـاـ لـلـصـورـةـ (ـيـ)ـ . اـنـظـرـ: الـشـعـرـ وـالـشـعـراءـ لـأـبـنـ
- الـقـيـمةـ ، طـبـيـعـةـ دـارـ اـسـيـاهـ الـعـلـومـ: بـيـرـوـتـ ، طـ ٢٦ـ ، ١٩٨٦ـ ، صـ ٣٦٢ـ ، وـانتـظـرـ: الـصـورـةـ فـيـ سـيـالـهاـ فـيـ دـيـوـانـ ذـيـ الرـمـةـ:
- جـ ١ـ / ٣ـ - بـ ٨٢ـ - ١٠٠ـ - ٩٥ـ - ٩٦ـ .
- ٣٢ - دـيـوـانـ ذـيـ الرـمـةـ: جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٢٩ـ - ٣٠ـ - ٤٣ـ - ٤٤ـ .
- ٣٣ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ٢٣ـ - بـ ٣٩ـ - ٤٣ـ - ٧٤١ـ . الـمـهـارـيـ: طـيـ السـمـنـ ، اـهـمـ الشـوـيـ: كـنـيـةـ مـنـ الـظـلـيمـ .
- ٣٤ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٤٧ـ - ٤٨ـ - ٦٠ـ .
- ٣٥ - ذـهـبـ بـعـضـهـ إـلـىـ أـنـ ذـيـ الرـمـةـ قـدـ تـعـشـقـ لـحـاظـ غـيرـ (ـمـيـةـ)ـ ، اـسـمـهـ (ـالـغـرـاءـ)ـ ، وـذـلـكـ يـعـدـ أـنـ صـلـتـ (ـمـيـةـ)ـ عـلـهـ ،
- وـالـقـالـ بـأـنـ هـذـاـ وـهـمـ مـنـهـمـ ، فـثـمـ اـخـبـارـ اـخـرـىـ تـوـكـدـ أـنـ مـيـةـ هـيـ الـغـرـاءـ ، وـالـغـرـاءـ: لـقـبـ لـهـ لـعـزـتـهـ فـيـ قـوـمـهـ ، كـمـ
- يـسـتـشـفـ ذـلـكـ مـنـ شـعـرـ إـيـشـاـ . اـنـظـرـ دـيـوـانـ ذـيـ الرـمـةـ: جـ ١ـ - ٣٦٤ـ - حـاجـيـةـ الـعـقـقـ .
- ٣٦ - المصـدرـ نـفـسـهـ: حـاشـيـةـ الـمـعـقـقـ جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٩ـ - ١٠ـ - ٢٢ـ - ٢٢ـ - ٦٣ـ .
- ٣٧ - المصـدرـ نـفـسـهـ: حـاشـيـةـ الـمـعـقـقـ جـ ١ـ - ٤٣ـ .
- ٣٨ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - ١٣ـ - بـ ٢٥ـ - ٧٧ـ - ٦١ـ - ٦٠ـ .
- ٣٩ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ٣٧ـ - بـ ٤ـ - ٦ـ - ١١٤٤ـ - ١١٤٥ـ .
- ٤٠ - المصـدرـ مـفـسـهـ: جـ ١ـ - ٥٣ـ - بـ ٢ـ - ٢ـ - ١٨٧ـ .
- ٤١ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ٢٣ـ - بـ ١٧ـ - ٢١ـ - ٧٧ـ - ٧٧٦ـ - ٦٨ـ - ٦٩ـ . الـمـصـبـ: مـوـضـعـ رـمـيـ الـجـمـارـ ، بـيـسانـ: جـيلـ وـجـرـةـ .
- ٤٢ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ٢ـ - ٣٨ـ - ٣١ـ - ٣٢ـ - ١١٨٠ـ - ١١٧٩ـ .
- ٤٣ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - ١٣ـ - بـ ٧٨ـ - ٧٩ـ - ٨٩ـ - ٩٠ـ . الـلـيـاةـ: الصـوتـ الـفـنـيـ ، يـشـزـهـ: يـقـلـتـهـ .
- ٤٤ - المصـدرـ نـفـسـهـ: جـ ١ـ - ١٢ـ - بـ ٦٥ـ - ٦٨ـ - ٤١٦ـ - ٤٣٩ـ . الـلـهـاـمـيـمـ: الـقـزـيرـةـ ، الـأـشـعـثـ الـوـرـدـ: نـباتـ الـبـهـيـ .
- ٤٥ - اـنـظـرـ فـيـ المصـدرـ نـفـسـهـ - عـلـىـ سـيـبـلـ الـمـاـلـ - جـ ١ـ - قـ ١ـ - بـ ٩٥ـ - ١٠٠ـ - ١٠٦ـ - ١١١ـ .
- ٤٦ - اـنـظـرـ فـيـ المصـدرـ نـفـسـهـ مشـهـدـ حـسـرـةـ الصـائـدـ وـتـنـمـهـ فـيـ جـ ١ـ - ١٢ـ - بـ ٨٤ـ - ٨٥ـ - ٤٤٣ـ .
- ٤٧ - يـمـكـنـنـاـ شـرـبـ اـمـثـلـةـ كـثـيرـ تـوـكـدـ ذـلـكـ ، مـنـهـ مـاـ تـجـدـهـ فـيـ :
- ٤٨ - قـ ٧٥ـ - بـ ٩١ـ - ٩٢ـ - ٩٣ـ - ٩٤ـ . (ـعـدـاؤـ معـ بـنـيـ اـمـرـيـهـ الـقـيـسـ)ـ .
- ٤٩ - بـ ٢٦ـ - ٢٧ـ - ٢٨ـ - ٢٩ـ - ٣٠ـ . (ـمـحاـوـلـةـ لـتـلـلـ بـأـيـامـ الـيـمـاـنـ)ـ .
- ٥٠ - بـ ٣ـ - ١٣ـ - مـلـعـقـ الـلـيـوـنـ - بـ ٣ـ - ٣ـ - ١٨٣٩ـ . (ـمـقاـوـلـهـ مـنـ النـاسـ)ـ .

مقوّمات الأخلاق عند الغزالي

عزت السيد أحمد

يعد الإمام (الغزالى) - ٤٥٠ هـ / ١٠٥٩ م - ٥٥٠ هـ / ١١١١ م) واحداً من ألمع المفكرين العرب والمسلمين وأذيعهم صيتاً، لما نهض به من دور حاسم فعال على الصعيدين الديني والفلسفى، فاستحق على الصعيد الأول لقب حجة الإسلام، «ولعله - على الصعيد الثاني - بشهادة معلم النقاد والمفكرين، الوحيد من بين فلاسفة المسلمين ، الذي انتهج أسلوباً فلسفياً مميزاً مستقلاً عن أسلوب المدرسة اليونانية ، مفتتحاً بذلك أسلوباً فلسفياً جديداً»^(١) «وليس من ريب في تجربة (الغزالى) الفلسفية تجربة فنية معقدة حية تتسم بالذكاء في كل مجربى ومنعطف وآن»^(٢) .

فمن هو الإمام (الغزالى) ؟

الحق أن ثمة مصادر جد كثيرة تطلعن على حياة الإمام (الغزالى) بمختلف مراحلها ، وعلى فلسفته، ولذلك نستفيض في الحديث عن حياته وفلسفته ، وانما سنكتفي بالختصر الوجيز الذي يتقتضيه البحث .

هو : (زين الدين محمد بن محمد بن محمد الغزالى)^(٣) الطوسي (٤) ٠٠٠ هـ والمعروف باسم : (أبو حامد الغزالى) وبلقب « حجة الإسلام »، ولد سنة ٤٥٠ هـ - ١٠٥٨ م ، بدأ بتلقى علوم الدين الإسلامي مبكراً ، ثم الفلسفة ، وبasher التعليم بنجاح وتفوق ، وقد درس كما أخبرنا كل الفرق الدينية والكلامية والفلسفية دراسة متبصر خبير ، حتى فقهها وتمكن من الرد عليها جميماً ، ودحض الغاطيء

منها بانتقادها من داخلها ، لا يمانه بعدم جدوى النقد الخارجى ، لأنه يظل سطعياً بعيداً عن جوهر وحقيقة الموضوع المتنقد ، وقد دفعه الى ذلك أن صديقاً حكى له أن المتفلسفة « يضحكون على تصانيف المصنفين في الرد عليهم ، لأنهم لم يفهموا بعد حجتهم »^(٥) وليخلص من ذلك الى أن خير وأقوم سبيل للإنسان هو سبيل التصوف الذي رسم لنا معالله وحده في أكثر من كتاب ، ولعل أبرزها « إحياء علوم الدين » و « المنقد من الضلال » .

ورغم أنه تذكر لكثير من آراء الفلسفه ونظرياتهم ، وعلى وجه التخصيص ما يتعارض مع تعاليم الاسلام ومبادئه ، الا أنه لم يفعل ذلك الا بتأييد العبرة والبرهان المناسبين لكل وقف ومقال ، ولذلك ظل أميناً للحقيقة ، حرضاً عليها ، مؤيداً للعلم ، مناصراً له ، حتى قدم لنادعائهم قوية يقيم عليها بناءً سليماً :

- ١ - فلقد وضع للمعرفة منهاجاً قوياً .
- ٢ - وللعلم حداً دقيناً يخلصه من عناصر الفموض واللبس .
- ٣ - واظهر استحاللة الوثوق بالعقل عن طريق العقل نفسه .
- ٤ - وضرب أمثلة جديرة بالاعتبار لبيان امكان خطأ العقل احكامه . واخرى لبيان امكان خطأ العواasan .
- ٥ - ورد أساس المعرفة الى الالهام لا الى العقل ، اذ لو لا الثقة في ان الله لا يمنعنا طبيعة مزيفة لما امكننا التعميل على العقل في اكتساب المعرفة^(٦) .

وتوفي الامام (النزاوى) عن عمر يناهز الخمسين عاماً ، في الرابع عشر من شهر جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ الموافق لسنة ١١١١م ، بعدما قدم لنا عدداً كبيراً جداً من الكتب والرسائل ، لعل أهمها : مقاصد الفلسفه ومعايير العلم وتهافت الفلسفه والمنقد من الضلال وإحياء علوم الدين والقسطاس المستقيم وميزان العمل وإلجم المعام عن علم الكلام ومنهاج العارفین . . . وغيرها الكثير مما يضيق المجال عن ذكره الان^(٧) فهو من اكبر المؤلفين حتى قبل إن مؤلفاته قد قسمت على أيام حياته فخص كل يوم بأربعة كراسيس .

فلسفته الأخلاقية

لم يكن علم الأخلاق بالعلم المحدث أيام (الفزالي) فكثيرون أولئك الذين تناولوا مسائل الفلسفة الأخلاقية قبله ، سيان كان في الفكر العربي الإسلامي ، أو في الفكر اليوناني ، والحق أن تتبع ما أثاره الإمام (الفزالي) من مسائل تخص الفلسفة الأخلاقية يقودنا إلى أنه قد عالج هذه المسائل انتلاقاً من وجهتي نظر متباعدة شكلياً ، على أن ذلك ليس يعني تناقضها في فكر (الفزالي) وإنما هي نقلة من المستوى الفلسفى إلى المستوى الديني ، فقد نظر إلى الأخلاق نظرة دينية وقادها في منحى صوفي ، في الوقت الذي كان يعالجها ويتعامل معها بأسلوب الفيلسوف ولنته ، إلا أنها لا تميل إلى الفصل بين آرائه على هذا النحو ، ذلك أن ثمة تداخلاً وتشابكاً بينهما على نحو يجعل هذا التفاصيل غير مسوغ ، فالنزع الفلسفى لم يفارق الفزالي في أي من كتبه ، كما أن تأثير التعاليم والمبادئ الدينية قد ظل واضحاً أيضاً ، بل كان الطابع المميز له .

ومن أهم الكتب التي تناول فيها المسألة الأخلاقية هي أحياء علوم الدين وميزان العمل ومنهاج العارفين والأربعيين في أصول الدين والأدب في الدين ونصيحة الملوك والقواعد العشرة والمنقذ من الضلال وغيرها .

أولاً : الأخلاق وعلم الأخلاق :

١ - تعريف الأخلاق :

يقدم (الفزالي) أكثر من تعريف للأخلاق ، ولكن تعريفات متقاربة يصل بينها خط واحد يمثل باصراره الدائم على التمييز بين الخلق الحسن والخلق السيء ، ولعل أكثر هذه التعريفات دقة وضيافة هو التعريف الذي قدمه لنا في « الأحياء » حيث يقول بعدهما يبين لنا أن الأخلاق هي الصورة الباطنة للإنسان : « الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر ورؤية ، فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحبوبة عقلاً وشرعاً ، سميت تلك الهيئة خلقاً حسيناً ، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة سميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً ، وإنما قلنا أنها هيئة راسخة .

لأن من يصدر منه بذل المال على الندوة لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاء ، ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ ، وإنما اشتربطنا أن تصدر الأفعال بسهولة من غير رؤية لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال خلقه السخاء والعلم «^(٨)» .

والحق أن الإمام (الغزالى) لم يبتعد بهذا التعريف عن التعاريفات المعاصرة للأخلاق على تعددها وتبنيتها، ذلك أنه ركز مفهومه للأخلاق على الفكرة الجوهرية التي يقوم عليها الفعل الأخلاقي ويصدر عنها ، وهي الرسوخ في النفس والتلقائية ، وأعني بذلك الوجдан والنية ، إذ الفعل الأخلاقي المرتضى ليس موجباً لوصف فاعله بأنه أخلاقي ، أو غير أخلاقي ، كما أن إطالة التفكير وتتكلف الجهد لدفع الذات إلى الفعل الأخلاقي ليس كافياً لاعتبار صاحب الفعل متخلقاً به .

ب - شروط الفعل الأخلاقي :

انطلاقاً من تعريفه للأخلاق يبين لنا الإمام (الغزالى) شروط الفعل الأخلاقي فيرى أنها أربعة :

أحدها : فعل الجميل والقبيح .

والثاني : القدرة عليهما .

والثالث : المعرفة بهما .

والرابع : هيئة للنفس بها تميل إلى أحد الجانبين ويتيسر عليها أحد الأمرين^(٩) .

ومن ذلك يتبين لنا أن هذه الشروط الأربع للفعل الأخلاقي متلازمة متكاملة ، أولها وجود الفعلين : الجميل والقبيح . وثانيهما : قدرة المرء على فعلهما معًا ، ثالثهما : معرفته بالفعل الذي يقوم به وقيمة التي يتحققها ، وأخيراً الفعل الأخلاقي بعد ذاته وهو أهمها، هذا الفعل الذي ينبغي أن يكون صدوره من غير رؤية وتفكير ، أي بصورة تلقائية ، ولذلك كما يقول الإمام (الغزالى) : «ليس الخلق عبارة عن الفعل ، فرب شخص خلقه السخاء ولا يبذل إما لفقد المال أو المانع ، وربما يكون خلقه البخل وهو يبذل لباعث أو لرياء ، وليس عبارة عن القوة لأن نسبة القوة إلى الامساك والاعطاء بل إلى الفضدين واحد ، وكل انسان خلق بالفطرة

قادراً على الاعطاء والامساك ، وذلك لا يوجب خلق البغل ولا خلق السغا ، وليس هو عبارة عن المعرفة فان المعرفة تتصل بالجميل والتبيّع جميماً على وجه واحد ، بل هو عبارة عن المعنى الرابع ، وهو الهيئة التي بها تستمد النفس لأن يصدر عنها هذا الامساك والبدل ، فالخلق اذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة » (١٠) .

ج - علم الأخلاق :

اذا كانت الأخلاق هي صورة النفس وهيئتها الباطنة ، فما هو علم الأخلاق؟

يقول الامام (الفزالي) في خاتمة كتابه « معيار العلم » : « إذا كانت السعادة في الدنيا والآخرة لا تنال الا بالعلم .. وكان يشتبه الحقيقي بما لا حقيقة له .. وافتقر بسبه الى معيار .. فذلك يشتبه العمل الصالح النافع في الآخرة بغيره .. فيفتقر الى ميزات تدرك به حقيقته .. فلنصنف كتاباً في ميزان العمل كما صنفناه في (معيار العلم) » (١١) . وكأنه يريد أن يقول لنا إن ميزان العمل هو علم الأخلاق ، أي أن علم الأخلاق هو العلم الذي يزيّن الأعمال البشرية ويميز بينها ليدلنا على العمل الصالح النافع الذي يقودنا الى السعادة ، كما يبين لنا العمل الفاسد السيء الذي يوصلنا الى الشقاء ..

وبهذا المعنى يستهل الامام (الفزالي) كتابه (ميزان العمل) فيقول : « نـا كانت السعادة التي هي مطلب الأولين والآخرين لاتنال إلا بالعلم والعمل .. وجب مرفة العمل المسعد والتمييز بينه وبين العمل المشقي ، فافتقر ذلك أيضاً الى ميزان ، فأردنا أن نخوض فيه .. ونبين أن لا طريق الى السعادة إلا بالعلم والعمل ، ثم نبين العلم وطريق تحصيله ، ثم العمل المسعد وطريقه » (١٢) ..

ثانياً - تهذيب الأخلاق :

إن الحديث عن امكانية تغيير الخلق وتهذيبه يفترض مسبقاً تبليغاً في درجات الخلق ، وأن ثمة أخلاقاً مثلثاً وأخلاقاً دنيا ، وهذا التهذيب يهدف الى توجيه المرء نحو الخلق الأحسن والأمثل ولذلك لا بد لنا قبل الحديث عن تغيير الأخلاق وتهذيبها من أن نعرض للخلق الحسن الذي يمده (الفزالي) نهاية المرجوة من تهذيب الأخلاق ..

١ - الخلق الحسن :

لم يقنع الفرزالي بالتعريفات الكثيرة للخلق الحسن التي درج العلماء والفقهاء والأدباء على استخدامها ، ذلك أنها لم ترقى إلى الدلالة المفهومية للخلق الحسن ، أي لم ت تعرض لحقيقة ، وإنما كانت تعرض لشمره المغلق الحسن ، كان يقال المغلق الحسن هو « بسط الوجه وبذل الندى وكف الأذى ، أو هو إرضاء الخلق في السراء والضراء »^(١٢) وغير ذلك من التعريفات الكثيرة التي لا تعدو – كما يقول (الفرزالي) – كونها عرضًا لثمرات الخلق الحسن . ولذلك لم يجد (الفرزالي) بدأً من تعريف الخلق عاماً بادئ ذي بدء ، ثم يبين ما هي الخلق الحسن فيقول :

« فالخلق إذن عبارة عن هيئة النفس وصورتها الباطنة ، وكما أن حسن الصورة الظاهرة مطلقاً لا يتم بحسن الميئنين دون الأنف والفم والخد بل لا بد من حسن الجميع ليتم حسن الظاهر ، فكذلك في الباطن أربعة أركان لا بد من الحسن في جميعها حتى يتم حسن الخلق ، فإذا استوت الأركان الأربع واعتدلت وتناسبت حصل حسن المخلق وهو : قوة العلم ، وقوة الغضب ، وقوة الشهوة ، وقوة العدل بين هذه القوى الثلاث »^(١٤) .

إن صلاح هذه القوى الثلاث وتهديبيها أو العدل في استخدامها وتوظيفها هو حسن الخلق ، والحق أن ثمة توافقاً وانسجاماً بين ما عرضه الإمام (الفرزالي) في كتابيه (الأحياء) و (الميزان) حول هذه القوى الثلاث وتعريف الخلق الحسن ، وإن تعدد التسميات بين مكان وأخر .

أما القوة الأولى وهي قوة العلم أو المتفكر أو العقل « فإذا صلحت هذه القوة حصل منها ثمرة الحكم ، والحكمة رأس الأخلاق الحسنة ٠٠٠ وثمرتها أن يتيسر (للمرء) الفرق بين الحق والباطل في الاعتقاد ، وبين الصدق والكذب في المقال ، وبين الجميل والتبيح في الأفعال ، ولا يلتبس عليه شيء من ذلك »^(١٥) .

والقوة الثانية قوة الغضب أو الحمية الغضبية « وحسنها في أن يصير انتقامتها وابساطها على حد ما تقتضيه العدالة »^(١٦) « وبقهرها وإصلاحها يحصل الحلم ، وهو كظم الغيظ ، وكف النفس عن التشفي ٠٠٠ »^(١٧) .

وأما القوة الثالثة وهي الشهوة «فحسنتها وصلاحها في أن تكون تحت إشارة العكمة ، إشارة المفل والشرع »^(١٨) «وبصلاحها تحصل العفة حتى تنزجر النفس عن الفواحش ، وتتقاد للمواساة والايثار محمود بقدر الطاقة »^(١٩) .

٢ - علامات الغلق الحسن :

لأن غاية الأخلاق كما يرى (الغزالى) هي سعادة الآخرة فلا بد أن يستقى الفعل الأخلاقي قيمة من الایمان بالله وما يقتضيه هذا الایمان من التزام بالأوامر والتواهي ، ولذلك لبع الأمس (الغزالى) أنى القرآن الكريم ليستمد منه علامات الغلق الحسن ، ثم يعرج على الأحاديث النبوية الشريفة ليستمد منها أيضاً مؤشرات الغلق الحسن^(٢٠) ولا يكتفى بذلك بل يقدم لنا هذه العلامات على نحوين فيقول :

وجمع بعضهم علامات حسن الخلق فقال : هو أن يكون المرء كثي العياء قليل الأذى كثير الصلاح صدوق اللسان ، قليل الكلام كثير العمل ، قليل الزلل قليل الفضول ، برأً وصولاً وقوراً صبوراً شكوراً راضياً حليناً رفيقاً عفيفاً شفيفاً ، لا لئاماً ولا سباباً ولا نماماً ولا مفتاناً ولا إعوجلاً ولا حقداً ولا بغيلًا ولا حسوداً ، بشاشاً هشاً يحب في الله ويبغض في الله، وهذا هو حسن الخلق»^(٢١) .
ويقول أيضاً : «علامة حسن الخلق عشر خصال : قلة الخلاف ، وحسن الانصاف وترك طلب العثرات ، وتحسین ما يبدو من السیئات . والتماس المعدنة، واحتمال الأذى ، والرجوع بالملامة على النفس ، والتفرد بمعرفة عيوب نفسه دون عيوب غيره ، وطلافة الوجه للصغير والكبير ، ولطف الكلام لمن دونه ولنون فوقه»^(٢٢) ولمزيد هذه العلامات قدم لناعن كل واحدة قصة أو حادثة ، ثم ليقول « ومن أشكل عليه حاله فليعرض نفسه على هذه الآيات ، فوجود جميع هذه الصفات علامة حسن الخلق ، وقد جيئها علامات سوء الخلق ، ووجود بعضها دون بعض يدل على البعض دون البعض ، فليشتغل بتحصيل ما فقده وحفظ ما وجده»^(٢٣) .

ولكن لا يتحمل أن يتسبس على المرء في بعض الأحيان فلا يدرى إن كان مخطئاً أم مصيباً في تخلقه باحدى القيم الأخلاقية؟ لقد اتبه (الغزالى) إلى هذه المسألة

ولذلك قدم لنا ميزاناً نزرين به كل قيمة أخلاقية ، هذا الميزان هو الاعتدال بين النقيضين ، وقدم لنا أيضاً ميزاناً نزرين به هذا الاعتدال لنعرف إن كان على صواب أم لا ، فيقول مبيناً ذلك بمثال :

« وأما علامات عودها إلى الصحة بعد المعالجة فهو أن ينظر في العلة التي يعانيها ، فان كان يعالج داء البخل فالمطلوب الاعتدال بين التبذير والقتير حتى يكون على الوسط وفي غاية الطرفين ، فان أردت أن تعرف الوسط فانظر إلى الفعل الذي يوجبه الخلق المحنور . فان كان أسهل عليك والذ من الذي يضاده فالغالب عليك ذلك الخلق الواجب له ، مثل أن يكون إمساك المال وجمعه الله عنده وأيسر عليك من بذلك لمستحقه فاعلم أن الغالب عليك خلق البخل فزد في المراقبة على البذل ، فان صار البذل على غير المستحق الله عنده وأخف عليك من الامساك بالحق فقد غالب عليك التبذير فارجع إلى المراقبة على الامساك ، فلا تزال تراقب نفسك وتستدل على خلفك بتيسير الأفعال وتعميرها حتى تنتقطع علاقة قلبك عن الالتفات إلى المال فلا تميل إلى بذله ولا إلى امساكه » (٢٤) .

والحقيقة أن الإمام (الزنالي) قد أدرك عسر هذه العملية وصعوبتها ذلك أن « الوسط الحقيقي بين الطرفين في غاية التموضع بل هو أدق من الشعر وأحد من السيف ... ولأجل عسر الاستقامة وجب على كل عبد أن يدعوا الله تعالى » (٢٥) .
كما يتحسن خلقه ويقترب من الصراط المستقيم .

٣ – امكان تغيير الخلق :

يفرد (الزنالي) فصلاً خاصاً لتأكيد امكانية تغيير الأخلاق والذي دعاه إلى ذلك أنه وجد أناساً جنحوا باعتقادهم إلى أن الخلق كالخلق لا يقبل التغيير ظناً منهم أن المطبع في تغيير الأخلاق إنما هو طمع في تغيير خلق الله عن وجل ، وهذا اعتقاد باطل لا أساس له من الصحة . ويستدل على ذلك بقوله عليه الصلاة والسلام « حسناً أخلاقكم » ويعقب على ذلك قائلاً : « ولو لم يكن ممكناً لما أمر به ، ولو امتنع ذلك لبطلت الموصايا والمواعظ والترغيب والترهيب ، فان الأفعال نتائج الأخلاق » (٢٦) بل ويتجدد ذلك إلى المقارنة بين الحيوان والانسان من هذه الناحية بنوع من الاستئناف فيقول : « بل كيف ينكر تهذيب الانسان

مع استيلاء عقله ، وتفجير خلق البهائم ممكн ، إذ ينتقل الصيد من التوحش الى التأنس ، والطلب من شره الأكل الى التأدب والامساك والتخلية ، والفرس من الجماح الى السلامة والانقياد وكل ذلك تغير للأخلاق»^(٢٧) .

ودفعاً للشبهة التي ألبست على بعض الناس ودفعتهم الى الاعتقاد بعدم إمكان تغيير الأخلاق بين الامم (الفزالي) أن «الموجودات منقسمة الى قسمين أولهما ما لا مدخل للأدمي واختياره في أصله وتحصيله كالسماء والكون ، بل أعضاء البدن داخلاً وخارجاً ، وسائر أجزاء الحيوانات ، وبالجملة كل ما هو حاصل كامل وقع الفراغ من وجوده وكماله ».

والقسم الثاني ما وجد وجوداً ناقصاً وجعل فيه قوة لقبول الكمال بعد أن وجد شرطه ، وشرطه قد يرتبط باختيار العبد ، فان النواة ليست بتفاح ولا نخل ، ولكنها قابلة بالقوة لأن تصير نخلاً بالتربيبة وغير قابلة لأن تصير تفاحاً ، وإنما تصير نخلاً إذا تعلق بها اختيار الأدمي في تربيتها . وانطلاقاً من هذه الحقيقة وبالاستناد إليها يعقب (الفزالي) قائلاً : « فلنلملک لو أردنا أن نقلع بالكلية الغضب والشهوة من أنفسنا ، ونعن في هذا العالم عجز نساعنه ، ولكن لو أردنا قهرهما ، واسلادهما بالرياضة والمجاهدة قدرنا عليه »^(٢٨) .

٤ - تغيير الأخلاق بالرياضة :

يقر (الفزالي) بادئ ذي بدء بأن الجبلات (الطبايع) مختلفة ومتباعدة في قسمها لذلك الى سريعة المقبول وبطيئة القبول ، ويرى لاختلافها سببين « أحدهما باعتبار التقدم في الوجود ، فان قوة الشهوة وقوه الغضب ، وقوه التفكير موجودة في الإنسان ، وأصعبها تغييراً وأعصاها على الانسان قوة الشهوة ، فانها أقدم القوى وجوداً ، وأشدتها تشبثاً والتصاقاً ، فانها توجد معه في أول الأمر ، حتى توجد في الحيوان الذي هو جنسه ، ثم توجد قوة الحمية والغضب بعده ، وأما قوة الفكر ، فانها توجد آخرأ ، والسبب أنه يتآكد الخلق بكثرة العمل بموجبه والطاعة له »^(٢٩) .

ثم يقسم الناس في تغيير الخلق الى أربع مراتب ، هي التي تحتاج الى إصلاح وتهذيب أخلاقها وهذه المراتب هي :

«الأولى» : وهو الإنسان الغفل الذي لا يميز بين الحق والباطل ، والجميل والقبيح ، بل بقي كما فطر عليه خالياً عن جميع الاعتقادات ولم تستثن شهوته أيضاً باتباع اللذات ، فهذا سريع المقبول للعلاج جداً ، فلا يحتاج إلا إلى معلم ومرشد ، والي باعث من نفسه يحمله على المجاهدة فيحسن خلقه في أقرب زمان .

والثانية : أن يكون قد عرف قبيح القبيح ، ولكنه لم يتمتع العمل الصالح بل زين له سوء عمله فتعماته انتقاماً لشهوته وإعراضًا عن صواب رأيه لاستيلاء الشهوة عليه ، ولكن علم تقصيره في عمله فأمره أصعب من الأول ، إذ قد تضاعف الوظيفة عليه ، إذ عليه قطع ما رسم في نفسه أولاً من كثرة الاعتياد للفساد ، والآخر أن يغرس في نفسه صفة الاعتياد للصلاح ، ولكنه بالجملة محل قابل للرياضة إن نهض لها بجد وتشمير وحزم .

والثالثة : أن يعتقد في الأخلاق القبيحة أنها الواجبة المستحسنة ، وأنها حق جميل ، وتربي عليها ، فهذا يكاد تمتلك معالجته ولا يرجى صلاحه إلا على الندور وذلك لتضاعف أسباب الضلال .

والرابعة : أن يكون من نشاته على الرأي الفاسد وتربيته على العمل به يرى الفضيلة في كثرة الشر واستهلاك النفوس ، ويباهي به ، ويظن أن ذلك يرفع قدره ، وهذا هو أصعب المراتب . وفي مثله قيل : ومن العناية رياضة المهرم ، ومن التعذيب تهذيب الذيب .

وال الأول : من هؤلاء جاهل فقط ، والثاني : جاهل وضال ، والثالث : جاهل وضال وفاسق ، والرابع : جاهل وضال وفاسق وشرير «^(٢٠)» .

إن الإمام (الغزالى) بهذا التقسيم للنفوس التي يعوزها التغيير والصلاح في أخلاقها يبين لنا حقيقة مهمة وهي ارتباط هذا التغيير والصلاح بالاستعداد والمقابلية لهما ارتباطاً وثيقاً غير منفك ، وارتباطها كذلك بالعامل الفكرى لهذه الأخلاق ، أي بقناعات المرء حول سلوك معين ، فمن اقتتنع أن الزنا فضيلة وترسخ ذلك في نفسه ، لن يقبل بالمقاييس فضيلة . وتغيير هذا الخلق من وجهة نظر هذا الإنسان إنما تكون باتجاه تعزيز (الزنا) وتوكيده لأنه يرى فيه قيمة أخلاقية

إيجابية ، وبالتالي فإن اصلاح هذا المرء كما يقول الامام (الفزالي) أمر جد صعب . بل هو أصعب المراتب ، وهو بحكم الميؤوس من صلاحه وإصلاحه .

ولكن كيف يمكن تغيير الأخلاق بالرياضة ؟

ما إن يتوفر لدى المرء الاستعداد اللازم والقابلية لتغيير الأخلاق حتى يغدو التغيير سهلاً يسيراً ، ذلك أن هذا التغيير يهدف إلى إكمال النفس وتزكيتها وتصفيتها ، وطريق هذا التغيير هو الارتياض والاعتياض على الغلق المحسن ، فمن أراد أن يتخلق بخلق ما عليه أن ينكب على عادة لها تتبعه من غير رؤية وتفكير ، وفي ممارسته حتى يرسخ في النفس ويصبح عادة لها تتبعه من غير رؤية وتفكير وفي ذلك يقول :

« اعلم أن المقصود من المجاهدة والرياضة بالأعمال الصالحة تكميل النفس وتزكيتها وتصفيتها لتهدي بأخلاقها، وبين النفس وبين هذه القوى نوع من العلاقة ، تضيق العبارة عن تعريفه على وجهه يتشكل في خزانة التغيل ، لأن هذه العلاقة ليست محسوسة بل معقوله ، وليس من غرضنا تبيان تلك العلاقة ، ولكن كن واحد من النفس والبدن متأثر بسبب صاحبه ، فان النفس إن كملت وكانت زاكية ، حستت أفعال البدن ، وكانت جميلة ، وكذا البدن ، إن جملت آثاره حدث منها في النفس هيئات حسنة وأخلاق مرضية . »

فاذن الطريق الى تزكية النفس اعتياد الأفعال الصادرة من النفوس الزاكية الكاملة ، حتى إذا صار ذلك معتاداً بالتفكير ، مع تقارب الزمان ، حدث منها هيئه للنفس راسخة تقتضي تلك الأفعال، وتتقاضاها بعيث يصير ذلك له بالعادة كالطبع ، فيغف عليه ما كان يستثنقه من الخير ، فمن أراد مثلاً أن يحصل لنفسه خلق العود فطريقه أن يتكلف تعاطي فعل الجوارد ، وهو بذل المال ، ولا يزال يواظب عليه حتى يتيسر عليه ، فيصير بنفسه جواداً ، وكذا من أراد أن يحصل لنفسه خلق التواضع ، وغلب عليه التكبر ، فطريقه في المجاهدة أن يواظب على أفعال المتواضعين مواطبة دائمة ، على التكرار مع تقارب الأوقات »^(٣١) .

إن المواطلة على التغلق بخلق معين تورث في النفس منه صفة راسخة ، هي بمثابة الطبيع المتأصل في النفس الذي تصدر عنه الأفعال من غير كد رؤية ، إذ « العجب أن الأمر بين النفس والبدن دور ، إن بأفعال البدن تكلفاً ، يحصل للنفس

صفة ، فإذا حصلت الصفة فاپت على البدن فاقتضت وقوع الفعل الذي تعوده طبعاً ، بعد أن كان يتعاطاه تكلاً »^(٢٢) .

يبعدو جلياً من خلال ذلك أن الإمام (الغزالى) يرى أن الإنسان مجبول على الخير والشر معاً ، وطبيعة التربية والارتباط والاعتياد هي التي تورث المرض طبيعة الغالب عليه ، من حسن أو سوء ، خير أو شر ، وصلاح أو فساد ٠٠٠ فمن نشأ في منبت فاسد شرير غلب عليه طبع الفساد والشر ٠٠٠ ومن نشأ في منبت صالح حسن ظلٌ على مثل ما نما عليه من صلاح ورشاد ٠

ولذلك فان الإمام (الغزالى) لم يرف في تغيير الأخلاق إعداماً وقضاءً مبرماً على بذرة الشر والسوء والفساد في نفس الإنسان كما ظن البعض ، وإنما تغيير الأخلاق هو قهر الطبائع السيئة الفاسدة واسلاتها وحسن قيادها ، وفي ذلك يقول :

وقد ظنت طائفة «أن المقصود من المواجهة قمع هذه المifikات بالكلية ومحوها، وهيئات؛ فان الشهوة خلقت لفائدة وهي ضرورية في الجبلة ، فلو انقطعت شهوة الطعام لهلك الانسان ، ولو انقطعت شهوة الواقع لانقطع النسل ، ولو انعدم الغضب بالكلية لم يدفع الانسان عن نفسه ما يهلكه وللهلك ، ومهما بقي من أصل الشهوة فيبقى لا معالة حب المال الذي يصل إلى الشهوة حتى يحمله ذلك على إمساك المال ، وليس المطلوب إماتة ذلك بالكلية ، بل المطلوب ردها إلى الاعتدان الذي هو وسط بين الأفراط والتغريب ، والمطلوب في صفة الغضب حسن العمية وذلك بأن يغلو عن التهور وعن العجب جمياً ، وبالجملة أن يكون في نفسه قوياناً ومع قوته منقاداً للعقل»^(٢٣) .

٥ - الطريق الى تهذيب الأخلاق :

يبين (الغزالى) طرق تهذيب الأخلاق ببراعة البصیر الغبیر بأدواء النفس وأساليب معالجتها وتقويمها ، وبكيفية التعامل مع الانزعافات الأخلاقية ، كل حسب ما يعاني ، مفصلاً في طرائق تهذيب كل اعتلال أخلاقي ، مبيناً علاجه الخاص ، مستدلاً ومستشهدًا بالأساليب الطبية في معالجة الأدواء الجسمية بما يدل على حسن درايته بالطبع وأساليبه ٠

أبان (الغزالى) أن الاعتدال في الأخلاق هو صحة النفس ، والميل عن الاعتدال سقم ومرض فيها ، وكما أن الاعتدال في مزاج البدن هو صحة له ، والميل عن الاعتدال مرض فيه ولذلك اتخد ابden مثلاً للنفس وراح يبين طرائق تهذيب الأخلاق .

إن علاج النفس يكون يمدو الرذائل والأخلاق الرديئة عنها ، وجلب الفضائل والأخلاق الجميلة إليها ، مثال البدن في علاجه بمحو العلل عنه وكسب الصحة وجلبها إليه ، وكما أن الفالب على أصل المزاج الاعتدال وإنما تعتبر المدة المضرة بعوارض الأغذية والأهوية والأحوال . فكذلك المولود يولد معتدلاً صحيحاً الفطرة - أي بالاعتياد والتعليم تكتسب الرذائل - وكما أن البدن في الابتداء لا يغلق كاملاً وإنما يكمل ويقوى بالنشوء والتربية ، فكذلك النفس تغلق ناقصه قابلة للكمال ، وإنما تكمل بالتربيه وتهذيب الأخلاق والتهدية بالعلم ، وكما أن البدن إن كان صحيناً فشأن الطبيب تمهيد القانون العاهاض للصحة . وإن كان مريضاً فشأنه جلب الصحة إليه ، فكذلك النفس إن كانت زكية طاهرة مهذبة فينبغي أن تسعى لحفظها وجلب مزيد قوة إليها ، واكتساب زيادة صفائها ، وإن كانت عديمة الكمال والصفاء فينبغي أن تسعى لجلب ذلك إليها .

وكما أن العلة المفيرة لاعتدال البدن موجبة للمرض لا تعالج إلا بضدها ، فإن كانت من حرارة فالبرودة ، وإن كانت من برودة فالحرارة ، فكذلك الرذيلة التي هي مرض القلب فان علاجها بضدها ، فيعالج مرض الجهل بالتعلم ، ومرض البخل بالتسخني ، ومرض الكبر بالتواضع ، ومرض الشره بالكف عن المشتهي تكلفاً.

وكما أنه لا بد من تعامل مرارة الدواء وشدة الصبر عن المشتهيات لعلاج الأبدان المريضة فكذلك لا بد من تعامل مرارة المجاهدة والصبر لمداواة مرض القلب ، بل أولى ، فإن مرض البدن يخلص منه بالموت ومرض القلب يدوم بعد الموت أبد الآياد .

وكما أن كل مبرد لا يصح لعلة سببها العراره إلا إذا كان على حد مخصوص - ويختلف ذلك بالشدة والضعف والدوام وعدمه وبالكثره والقله ، ولا بد من معيار يعرف به مقدار النافع منه ، فإنه إن لم يعفظ معياره زاد الفساد - فكذلك

النماذج التي تعالج بها الأخلاق لا بد لها من معيار ، وكما أن معيار المدواء مأخوذ من عيار العلة حتى إن الطبيب لا يعالج ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة، فإن كانت حرارة فيعرف درجةها أهي ضعيفة أم قوية ؟ فإذا عرف ذلك التفت إلى أحوال البدن وأحوال الزمان وصناعة المريض وسنه وسائر أحواله ثم يعالج بحسبها .

وكذلك الأمر عينه أمر الشيخ المتبع الذي يطيب نفوس المربيين ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبيي إلا يهجم عليهم بالرياضة والتکاليف في فن مخصوص وفي طريق مخصوص ما لم يعرف أخلاقهم وأمراضهم ، وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد قتل أكثرهم فكذلك الشيخ لو أشار على المربيين بمنطقة واحدة من الرياضة أهلتهم وأمات قلوبهم، بل ينبيي أن ينظر إلى مرض المربي وفي حالة وسنه ومتراجه وما تتحمله بنيته من الرياضة وبيني على ذلك رياضته .

والحق أن هذا ، كما يقول الإمام (الغزالى) طريق جعلى (كلى) في تهذيب الأخلاق ، والكلام في تفصيله يطول ، والفرض أن ننظر إلى تزكية نفوسنا في أخلاقنا ، فإن كانت مهذبة وجب علينا حفظها ، وإن كانت مائلة وجب تقويمها بالردد إلى حد الاعتدال ، والمقصود من جلب الاعتدال سلب الطرفين ، إذ الفرض تطهير النفس عن الصفات التي تلحقها بعوارض البدن ، حتى لا تلتفت إليها بعد المفارقة ، عاشقة ومتأسفة على قوتها .

ولذلك فقد عرض النماذج جد كثيرة من المرذئات وبين كيفية علاج كل منها ، ليعود إلى التأكيد بأنه ليس يفرض أن ذكر دواء كل مرض ، وإنما غايتها التنبيه على أن الطريق المكلى إنما هو سلوك مسلك المعتاد لكل ما تهواه النفس وتتميل إليه ، وحتى لا يكون الأمر عشوائياً من غير ضابط بحيث تنتقل من داء إلى داء آخر ، ومن مرض إلى مرض آخر ، فقد أصر كثيراً على مسألة وضرورة مراقبة النفس دائمًا في سلوكها وتصرفاتها^(٣٤) .

٦ - معرفة عيوب الذات :

وما يلحق بتهديب الأخلاق واصلاحها ، ويتصل بهما اتصالاً وثيقاً ، معرفة عيوب الذات ، فيما يقف المرء على وجهه معايه ويسعى الافادة منها في تغيير أخلاقه

وتهذيبها ، ويرى الامام (الفزالي) أن المتفكر نافذ البصيرة ، الذي يحسن استخدام عقله وتوظيفه لم تخف عليه عيوبه ، وبحسن تعقله وتفكيره يعالج ما يعرف من عيوبه لأن علاجها يقود إلى كمال النفس ونراحتها ، ولكن المشكلة تكمن في أن أكثر الخلق جاهلون بعيوب أنفسهم ولذلك تجد أحدهم يرى المقدى في عين أخيه ولا يرى الجذع في عين نفسه ، ولا كانت الحالة كذلك لم يجد (الفزالي) بدأ من وضع مقياس يستند إليه المرء الذي يتواخى معرفة عيوب نفسه ، وينقسم هذا المقياس إلى طرق أربعة (٢٥) :

الأول : أن يجلس بين يدي شيخ بصير بعيوب النفس ، مطلع على خفايا الآفات ، ويعكمه في نفسه ، ويتابع إشارته في عبادته ، وهذا شأن المرشد مع شيخه ، والتمجيد مع أستاذه ، فيعرفه أستاذوه وشيخه عيوب نفسه ويعرفه طريق علاجه ، ولكن الامام (الفزالي) يرى أن مثل هذا عز وجل وندر في زمانه ، ولذلك قدم طريقاً آخر .

الثاني : أن يطلب صديقاً صدوقاً ماتدinya فينصبه رقباً على نفسه ليلاحظ أقواله وأفعاله ، فما كره من أخلاقه وأفعاله وعيوبه الباطنة والظاهرة يتباهى عليه ، فهكذا كان يفعل الأكياس والأكابر من أئمة الدين ، ويستشهد لنفسك ببعض الأقوال منها قول (عمر بن الخطاب - حوالي ٣٨٠ ق. هـ / ٥٨٦ م - ٤٦٤ هـ) « رحم الله أمراً أهدى إلى عيوبه » . ولما ندر أيضاً وجود الصديق الصادق في وده وحبه ، ولما كان الصديق ينظر بعين الرضا فلا يرى إلا محسن ، لم يكن هناك بد من تقديم طريق ثالث .

الثالث : أن يستفيد معرفة عيوب نفسه من السنة أعدائه فإن عين السخط تبدي المساوايا ، ولعمل انتقاماً للإنسان بعدو مشاحن يذكره عيوبه أكثر من انتقامه بصديق مداهن يثنى عليه ويمدحه ويغافل عن عيوبه . ويجب على الإنسان أن ينتبه إلى أن الطبع مجبول على تكذيب العدو وحمل ما يقوله على الحسد ، ولذلك ينبغي عليه أن يكون بصيراً حاذقاً، يعرف كيف ينتفع بقول أعدائه ، فإن مساوياً لا بد أن تنتشر على ألسنتهم .

الرابع : أن يخالط الناس ، فكل مارأه مذموماً فيما بين الخلق فليطالب نفسه به وينسبها إليه ، فإن المؤمن مرأة المؤمن، فيرى من عيوب غيره عيوب نفسه ، ويعلم

أن الطياع متقاربة في اتباع الهوى ، فما يتصف به واحد من الأقران لا ينفك القرن الآخر عن أصله أو عن أعظم منه أو عن شيء منه ، فليت فقد نفسه ويظهرها من كل ما ينده من غيره ، وناهيك بهذا أدبياً . فلو ترك الناس كلهم ما يكرهونه من غيرهم لاستفروا عن المؤدب ويستشهد بذلك بجواب (عيسى) عليه السلام عندما سئل عن أدبه فقال : « ما أدبني أحد ، رأيت جهل الجاهل شيئاً فاجتبته » .

ثالثاً : التربية الأخلاقية :

إن إيمان (الغزالى) بامكان تغيير الأخلاق وإصلاحها يقودنا إلى فكرة جديدة هي التربية أو التنشئة الأخلاقية ، وقد رسم لنا الفيلسوف منهجاً تربوياً واضحاً ل التربية الانسان أخلاقياً ، ولم يقتصر في رسم هذا المنهج على المراحل المبكرة من حياة الانسان وحدها . وإنما تعداها إلى كل مراحل حياته ، وما سبق وتعدثنا عنه من تغيير الأخلاق وإصلاحها وتهذيبها يمكن أن ندعه تربية أخلاقية للانسان اليافع والراشد ، الذي بامكانه أن يسلك أكثر من سبيل معرفة عيوب وتقويمها ، وليس هذا فحسب بل إنه وضع لكل فضيلة أخلاقية طرقها الخاصة التي تساعده على تنميتها وتعزيزها ، كما بين كيفية التخلص من الرذائل كل على حدة ، وهذا ما سنعرض له عند الحديث عن القيم الأخلاقية . أما الان فستتناول التنشئة الأخلاقية عند الأطفال بشكل عام ، ذلك أن هذه التربية أو التنشئة هي الأساس في تكوين رجل المستقبل وترسيخ القيم الأخلاقية في نفسه كما أشرنا قبل قليل .

إن تتبع الخطوات التي أثارها الامام (الغزالى) لتحديد منهجه في التربية الأخلاقية وضيبله ينبعونا عن مبلغ عنايته واهتمامه بالجانب الأخلاقي ودرايته بفاليته في حياة الانسان ، كما يكشف بوضوح عن أصلاته (الغزالى) في هذا الجانب والمتمثلة خصوصاً بالربط بين التصور والفعالية الأخلاقية ، أو توجيه الأخلاق لتنحو منحى صوفياً ، متشعة بوشاح روحي يضفي عليها طابعاً جديداً بعيداً تتفدو الممارسة الأخلاقية جزءاً صميمياً من الحياة الروحية للانسان .

يتكون هذا المنهج التربوي من مجموعة من الدعائم والخطوات يمكننا القول إنها تبدأ بالواجبات الأخلاقية التي ينبغي الالتزام بها أوامر ونواهي ، وبالتالي هي

ما ينبغي أن تتوارد التنشئة الأخلاقية إلى تكريسه في حياة الطفل . ثم العوامل الضرورية والمساعدة للقيام بالعملية التربوية بصورةها المثلث ، ثم خطوات العمل التربوي والأسس التي ينبغي توفرها في المربى على نحو خاص ، وهي على النحو التالي :

١ - الواجبات الأخلاقية :

ينبغي في أن يراعي في تربية الأطفال توجيههم إلى تقصيم القيم الأخلاقية الإيجابية ، أو الفضائل ، وإلى النفور من القيم الأخلاقية السلبية ، أو الرذائل على اختلاف أنواعها وتبين تسمياتها ، فيحذر من الجشع والطمع والكبر والمكذب والنفاق واللمن والسب والسرقة والفحش والخيانة . . . وما جرى في مجرى هذه الرذائل . ويعجب إليه الصدق والأمانة والأخلاق والتواضع والوفاء والتأدب في معاملة الآخرين . . . وهلمَّ جراً من هذه الفضائل « فإذا كان الشوه صالحًا كان هذا الكلام عند البلوغ واقعًا موثرًا ناجمًا يثبت في قلبه كما يثبت النقش في الحجر . وإن وقع الشوه بخلاف ذلك حتى ألف الصبي اللعب والفحش والوحشة وشره الطعام واللباس . . . نبا قلبه عن قبول الحق نبأة المائط عن التراب اليابس »^(٣٦) .

٢ - نقاء النفس :

يرى الإمام (الغزالى) أن النفس البشرية صفة نقية بيضاء تقبل كل نقش وصورة تعرض عليها . وها هو ذا يصف القلب الطاهر للطفل بأنه « جوهرة نفيسة ساذجة خالية من كل نقش وصورة ، وهو قابل لكل ما نقش ومائلاً إلى كل ما يمالي إليه – أي أن الإنسان يخلق فما يللتغى والشر – فإن عودَ الغير وعلمه نشا عليه وسعد في الدنيا والآخرة ، وإن عودَ الشر وأهمل شقي وهلك »^(٣٧) الأمر الذي يعطي للتربية أهم دور في تكوين الإنسان وبناء شخصيته وتعديده معالمها وأبعادها ، وكثيراً ما العف (الغزالى) على ضرورة العناية بالأطفال وحسن توجيههم لما أدركه من أهمية التربية ودورها الماسيم في بناء شخصية الطفل .

والحق أن هذه الفكرة ذاتها – فكرة نقاء النفس – هي الفكرة المحورية التي بنت عليها المدرسة التجريبية الانكليزية بنيانها الفلسفى ، وبهذا المعنى ذاته يقول

(جون لوك - ١٦٣٢ - ١٧٠٤) : «إن النفس في الأصل كلوج مصقول لم ينقش فيه شيء ، وإن التجربة هي التي ت نقش فيها المعاني والمبادئ جميعاً»^(٢٩) ويبدو التشابه بينهما واضحًا جلياً .

ولكن الإمام (الغزالى) يرى من جهة ثانية أن الإنسان مفطور على الميل إلى القيم الأخلاقية الإيجابية ، والى الخير عموماً ، ميلاً غريزياً ، وليس من تناقض البة هنا كما يلوح به ظاهر القول «فإذا كانت النفس بالعادة تستلزم الباطل وتميل إليه والمى المقاييس فكيف لا تستلزم الحق لوردت إليه مدة والتزمت المواطبة عليه ؟ بل ميل النفس إلى هذه الأمور الشنيعة خارج عن الطبيع . يضاهي الميل إلى أكل الطين فقد يغلب على بعض الناس ذلك بالعادة ، فاما ميله إلى العدالة وحب الله تعالى ومعرفته وعبادته فهو كالميل إلى الطعام والشراب»^(٤٠) .

واثمة تشابه أيضاً هنا بين (الغزالى) و (لوك) فرغيم أن الأخير حاول أن يبرهن «على وجود الله وعلى ماهيته في أن واحد دون حاجة إلى معنى غريزي . إلا أنه – قرر أن عقلنا يجهل المكنه ولا يدرك سوى الظاهر . فهو يعود إلى فطرة العقل برغمه ودون أن يشعر»^(٤١) .

ويبدو من خلال هذا النص أن (الغزالى) ظل مخلصاً لما ذهب إليه من نقاط النفس ، تأكيداً منه على الحرية والاختيار ، ولذلك نجد من يستلزم بالباطل كما نجد من يستلزم بالحق ، وإنما هذا الميل الفطري إلى الحق بمثابة برهان على وجود الخالق الذي خلق مع الإنسان ما يقوده إليه .

ومن ذلك نرى أن التربية بقدر ما هي مهمة وضرورية ، ومعقدة أيضاً ، فإنها سهلة يسيرة إن كانت تسير في الطريق الصحيح لأن الربي لن يجد صعوبة بالغة في إيصال الصواب إلى النفس لأنها تميل إليه بطبيعتها .

٣ - ضرورة المعلم :

ولا بد للطفل من معلم مرب يحسن زرع الفضائل في نفسه ونزع الرذائل منها ، وفي هذا يقول : «اعلم أنه ينبغي للسائل شيخ مرشد مرب ليخرج الأخلاق السيئة منه بتربيته ، ويجعل مكانها خلقاً حسنـاً ، وبمعنى التربية يشبه عمل الفلاح

الذي يقلع الشوك ويخرج النباتات الأجنبية من بين الزرع ليحسن نباته
ويكمل ريمه «٤٢» .

إن إلحاد الإمام (الغزالى) على ضرورة المعلم المربى مع عدم تبيانه إن كان
بامكان الأب القيام بهذا الدور يعني أنه يميل الى عدم كفاية الأمراة كافية مطلقة
في تربية الطفل ذلك أنه ليس من الضرورة أن يكون كل الآباء والأمهات على درجة
من الوعي والمعرفة تؤهلهم للقيام بدورهم التربوي على أكمل وجه ، ولذلك لا بد
من المعلم المختص الذي يعرّف كيف يكتشف الأدواء ويعسن علاجها .

٤ - توظيف العلم :

يرى الإمام (الغزالى) أن المعلم ليس يطلب لذاته ، وإنما له وظيفة ودور
في حياة الإنسان ، وهو تحسين وتجويد العمل ، وإفاده الإنسان في مختلف مراحل
وظروف حياته ، ولذلك يشبه لنا حافظ العلم بالدرج بالأسلحة ، فان استخدم هذه
الأسلحة عند كل حاجة لها فقد أفاد من حملها ولم يكن حملها عيناً لا عمل له إلا
إثقال كاهله ، وإن اكتفى بعمل الأسلحة ، وتعرض للخطر دون استخدامها فقد هلك ،
ولم يفته عن الهلاك ما تدرج به من أسلحة ، وهذا حال حامل العلم الذي لا يسخره
للإفادة منه ، وبذلك يندو وકأنه خلو من العلم لأن العلم لا يقوم من ذاته بدفع
الشر عن صاحبه كما أن الأسلحة لا تدفع الخطر عن حاملها من تلقاء ذاتها (٤٣)
ولذلك قال : « العلم بلا عمل جنون ، والمعلم بغیر علم لا يكون » (٤٤) .

٥ - دور القصص :

ويرى (الغزالى) أيضاً أن للقصص دوراً هاماً في غرس الفضائل في قلوب
الأطفال وفي دفعهم الى التخلق بالأخلاق الحسنة ، اللهم إن كانت هذه القصص
موجهة الى هذه النهاية ، وإلا فانها ستفرس بذور المفساد في نفوس الأطفال ، ولذلك
على الطفل أن « يتعلم القرآن وأحاديث الأخبار وحكايات الأبرار وأحوالهم
ليينغرس في نفسه حب الصالحين » (٤٥) ويقتدي بهم ويتخلق بأخلاقهم ، كما عليه
أن يتبعده عن أخبار الفسق والمجون ، أو لنقل ما يشير الانفعالات الشهوية
والهيجانات العاطفية » كالأشعار التي فيها ذكر العشق وأهله ... التي يعدها
 أصحابها من الظرف ورقة الطبع » (٤٦) .

وقد أشبه (الفزالي) في ذلك الفيلسوف اليوناني (أفلاطون - ٤٢٧ - ٣٤٧ ق.م) الذي طرد الشعراء من جمهوريته إذ يقول : « وإذا حل بدولتنا إنسان بارع في الظهور بكل الصور ومحاكاة كل شيء ، وأراد عرض قصائده على الجمهور فاننا سنكرمه تكريماً قديساً بارعاً ، ولكننا نستغربه أن ليس مثلاً مكان في دولتنا ، وسنقصيه إلى دولة أخرى بعد أن نسكب المطر على رأسه »^(٤٧) هذا رغم إيمانه (كالفزالي) بأهمية القصص في تهذيب نفوس الأطفال ، الأمر الذي حدا به إلى القول : « ثم نوعز إلى الأمهات والمرضعات أن يقصصن ما اخترناه من ثلاثة الغرافات (القصص) على الأطفال . وأن يكيفن بها عقولهم أكثر مما يكيفن أجسادهم بأيديهن »^(٤٨) .

٦ - القدوة الحسنة :

وينبغي على المربى أن يكون القدوة الحسنة لمن يقوم على تربيتهم ، ولعل أفضل معيار للوقوف على ذلك هو موافقة القول العمل ، فمن وافت أعماله كان منسجماً مع نفسه ولاقت تعاليمه خير قبول لدى تلاميذه ، ولذلك من واجب « معلم - الصبيان أن - يبدأ بصلاح نفسه ، فإن أعينهم إليه ناظرة وأذا هم إليه مصفية ، فيما استحسنوه فهو عندهم العسن ، وما استقبحه فهو عندهم القبيح »^(٤٩) .

٧ - الحفظ من قرناء السوء :

ولأن رفاق السوء في الأغلب الأعم يفسدون من يرافقهم ، ولا سيما في سن الطفولة ، ولأن الصبي إن أهمل في ابتداء نشوئه خرج في الأغلب رديء الأخلاق كذا بأحسوداً سروقاً نساماً لوحجاً « ٠٠٠ »^(٥٠) فقد أصر (الفزالي) على حفظ الصبيان من رفاق وقرناء السوء ، وفي ذلك يقول : « ويمنع - الصبي - من لغو الكلام وفحشه ، ومن اللعب والسب ، ومن عحالة من يجري على لسانه شيء من ذلك ، فإن ذلك يسري لا عالة من القرناء السوء »^(٥١) .

٨ - ضرورة المراقبة :

وكيفما تشر التنشئة الأخلاقية هذه ينبغي لا ينقطع المعلم أو الوالى عن مراقبة الصبي ومتابعة سلوكه وأفعاله حتى مع استمراره في سلوك الطريق

الصحيح وممارسة الفعل الأخلاقي السليم «ومهما رأى فيه مخايل التمييز فينبغي أن يحسن مراقبته ، وأول ذلك ظهور أوائل العياء ، فانه إذا كان يعثش ويستحي ويترك بعض الأفعال ، فليس ذلك إلا لاشراق نور العقل عليه ، حتى يرى بعض الأشياء قبيعاً ومخالفاً للبعض فصار يستحي من شيء دون شيء ، وهذه هدية من الله تعالى وبشارة تدل على اعتدال الأخلاق وصفاء القلب » . وهو مبشر بكمال العقل عند البلوغ ، فالصبي المستحي لا ينبعي أن يهمل بل يستعان على تأدبه بعيائه و تمييزه » (٥٢) .

وهذا يعني أن الطفل مع صفاء نفسه ونقائه قد يفتح عرضة للتغير والتقلب في أخلاقه تبعاً للمحيط الذي يعيش فيه ، حتى ترسخ القيم الأخلاقية في نفسه ، وتصبح جزءاً من جبلته ، وهذا ما لا يتأتى إلا باستمرار الاتصال مع هذه الفضائل أو المقومات الأخلاقية الإيجابية .

٩ - التدعيم :

وينبغي أن نحب إلى الأطفال ممارسة الأفعال الأخلاقية الحسنة وأن نرغبتهم في ذلك بمكافأتهم على كل مبادرة حسنة، وأن نعرف متى تتضايق عن الخطأ . ولا سيما إن كان غير مقصود أو إن أدرك الطفل خطأه فراح يداريه ، وفي هذا يقول: « ثم مهما ظهر من الصبي من خلق جميل و فعل محمود فينبغي أن يكرم عليه ويجازى عليه بما يفرح به ، ويمدح بين أظهر الناس ، فان خالق ذلك في بعض الأحوال مرة واحدة فينبغي أن يتغافل عنه ، ولا يهتك ستره ، ولا يك Ashton ، ولا يظهر له أن يتصور أن يتجرأ أحد على مثله ، ولا سيما إذا ستره الصبي واجتهد في إخفائه ، فان إظهار ذلك عليه ربما يفديه جسارة حتى لا يبالي بالكشفة » (٥٣) .

ولقد استفاد علماء النفس والتربيه من ظاهرة التعزيز هذه ، أو التدعيم ، في تفسير بعض الطواهر النفسيه ، ولا سيما التعلم ، ومن هؤلاء العلماء (بافلوف - ت ١٩٣٣) و (ثورنديك - ١٨٧٤ - ١٩٤٩) و (كلارك هل - ١٨٨٤ - ١٩٥٢) والتي ترى في مجلها أن التعلم على عمومه مرتبطة بالتدعم بنوعيه الأولى والثانوي ، « والذي يفسر أغلب حالات التعلم عند الإنسان هو التدعيم الثانوي الذي يتلخص في خفض التوتر الناشيء عن دوافع ثانوية كال الحاجة الى التقدير والتشجيع بالألفاظ والمكافآت ٠٠٠ » (٥٤) .

١٠ - التقويم :

ولكن ماذا لو انزلق الصبي في الخطأ عن جادة الصواب ، وتكرر غلطه المرة بعد الأخرى ؟ ! يقدم الامام (الفزالي) لتلafi الفلط والانحراف وعلاجهما منهجاً رائعاً تتجه الأساليب التربوية الحديثة الى الأخذ به واعتباره الأنسب في معالجة أخطاء الأطفال ، ولهذا المنهج مناحل ثلاث تتناسب مع التمادي في الفلط بحيث لا نعالج الأخطاء كلها باسلوب واحد ، وهذه المراحل هي :

أ - المعاتبة : هي أولى المراحل التي نقوم بها أغلاط الأطفال عند بده تكراره الوقوع في ممارسة أخلاقية فاسدة معينة ، وفي ذلك يقول : « فان عاد ثانية فينبغي أن يعاتب سراً ، ويعظم الأمر فيه ويقال له : إياك أن تعود بعد ذلك مثل هذا ، وأن يطلع عليك مثل هذا فتفضح بين الناس » (٥٥) .

ب - التوبيخ والزجر : ولأن كثرة المعاتبة تهون عليه سماع الملامة فينبغي إلا يكثر القول عليه بالعتاب حتى لا يهون عليه ركوب القبائح ويسقط وقع الكلام من قلبه ، فإذا تمادي في ذلك فعلى المربى أن يكون حذرًا في التعامل معه « وليكن حافظاً هيبيته الكلام معه فلا يوبخه إلا أحياناً ، والأم تخوفه بالأب وترتجه عن القبائح » (٥٦) .

ج - اجتناب الضرب : وليسمى المربى الى اجتناب الضرب قدر المستطاع ، فان لم يكن من ذلك فليجمل « معظم تأدبه بالرهبة ، ولا يكثير من الضرب والتذمّب » (٥٧) والحق أن هاتين الخطوتين من المنهج التربوي - التدريم والتقويم - مأثرة جليلة تضافان الى مأثر (الفزالي) الكثيرة ، بل إن منهجه التربوي بكليته له ولا يمكن أن تبعد حقها وجليل قيمتها .

١١ - ضرورة الترفية :

وما ينبع أن يؤخذ بعين الاعتبار أن النفس بحاجة الى بعض الراحة والترفيه بين العين والعين ، وإلا فان استمرارية المجد ومواصلة الكد والجهد في التلقين والتعليم ستؤدي الى التفتور والهروب من ذلك ، وربما تورث علاً آخرى ولذلك يقول (الفزالي) : « وينبغي أن يؤذن له بعد الانصراف من الكتب (المدرسة) أن يلعب لعباً جميلاً يستريح إليه من تعب المكتب (المدرسة) بحيث

لا يتعب في اللعب ، فان منع الصبي من اللعب وإرهاقه الى التعلم دائمًا يحيط قلبه ويبطل ذكاءه وينقص عليه العيش حتى يطلب العيلة في الخلاص منه رأساً»^(٥٨) .

١٢ - تكوين الغلق وترسيخه :

وأخيراً بقى علينا أن نبين كيف يتكون الغلق عند الإنسان ، وكيف يترسخ في نفسه وإن كنا قد المعنـا إلى ذلك في حدثنا عن تهذيب الأخلاق ، إلا أنه من الضرورة بمكان أن نعرض الآن للمنهج الذي رسّمه (الفرزالي) من اكتساب الغلق وترسيخه في نفس الإنسان حتى يصبح طبعاً ، وفي ذلك يقول :

«إن الأخلاق الجميلة يمكن اكتسابها بالرياضة ، وهي تكلف الأفعال الصادرة عنها ابتداء لتصير طبعاً انتهاء ، وهذا عجيب العلاقة بين القلب والجوارح – أعني النفس والبدن – فان كل صفة تظهر في القلب يفيض أثرها على الجوارح حتى لا تتعرّك إلا على وفقها لا معالة ، وكل فعل يجري على الجوارح فانه قد يرتفع منه أثر إلى القلب والأمر فيه دور ، ويعرض ذلك بمثال : وهو من أراد أن يصيّر العذر في الكتابة له صفة نفسية – حتى يصيّر كاتباً بالطبع – فلا طريق له إلا أن يتعاطى بجراحته اليد ما يتعاطاه الكاتب العاذق ويواظب عليه مدة طويلة يعاكي الخط الحسن ، فان فعل الكاتب هو الخط الحسن فيتشبه بالكاتب تكلفاً ، ثم لا يزال يواظب عليه حتى يصيّر صفة راسخة في نفسه ، فيصدر عنه في الآخر الخط الحسن طبعاً كما يصدر منه الابتداء تتكلفاً ، فكان الخط الحسن هو الذي جعل خطه حسناً ، ولكن الأول بتتكلف إلا أنه ارتفع منه أثر إلى القلب ثم انخفض من القلب إلى الجارحة فصار يكتب الخط الحسن بالطبع»^(٥٩) .

رابعاً : غاية الأخلاق :

غاية الأخلاق هي الشّرارة أو النتيجة التي يتوجّي الفاعل الأخلاقي من وراء فعله إلى تحقيق أاما الخير أو السعادة ، بل تحقيق الغير والسعادة بأنّ ما ، ولكنه يميز على هذا الصعيد بين ضريبين من الغيرات والسعادات ، فشّمة خير دنيوي وخير آخروي ، وكذلك أمر السعادة فهناك سعادة دنيوية وسعادة أخرىوية ، فأيهما غاية الأخلاق ؟

لأن خيرات الدنيا وسعاداتها عرضية زائلة تؤول إلى الفناء والانتهاء مع موت صاحبها ، ولأن « السعادة الآخرية التي ... هي بقاء بلا فناء ، ولذة بلا عناء ، وسرور بلا حزن ، وغنى بلا فقر ، وكمال بلا نقصان . وعز بلا ذل ، وبالجملة كل ما يتصور أن يكون مطلوب ومرغوب راغب ، وذلك أبد الآباد ، على وجه لا تنقصه تصرم الأحقاد والأماد»^(٦٠) فقد ذهب الإمام (الفزالي) إلى التأكيد بأن « السعادة الحقيقة هي الآخرية ، وما عدتها سميت سعادة اما مجازاً او غالطاً ، كالسعادة الدنيوية التي لا تعيق على الآخرة ، واما صدقًا ، ولكن الاسم على الآخرية أصدق ، وذلك كل ما يوصل إلى السعادة الآخرية ويعين عليه ، فان الوصول إلى الخير والسعادة ، قد يسمى خيراً وسعادة»^(٦١) .

صحيح أن خير الآخرة وسعادتها هما غاية الأخلاق ، ولكنها الغاية القصوى لها ، اذ للأخلاق غاية دنيوية هي أيضاً الغير والسعادة في هذه الدنيا التي نعيشها، وهذا واضح جلي في سابق كلامه ، وليس هذا فحسب ، بل لقد أفرد فصلاً خاصاً ليبين أيضاً أن خير الدنيا غاية أخلاقية ، جاعلاً عنوان هذا الفصل : « بيان البواعت على تعري الغيرات والصوارف عنها » وفيه يبين أن البواعت على طلب الخيرات ثلاثة : نفسية (الترغيب والترهيب) واجتماعية (المكانة بين الناس) وعقلية (طلب الفضيلة وكمال النفس) وهذه الأخيرة يمكن أن نسميها « فعل الخير لأنه خير » أو « الاقدام على فعل الغير لذاته » فيقول : « أما الخيرات الدنيوية فالبواعت عليها ثلاثة أنواع : الترغيب والترهيب بما يجري ويعخشى في الحال والمآل . والثاني رجاء المحمدة وخوف المذمة من يعتد بعده وذمه ، والثالث طلب الفضيلة وكمال النفس ، لأنه كمال وفضيلة ، لا لغاية أخرى وراءها »^(٦٢) .

ولا فرق في ذلك بين خيري الدنيا والآخرة ، فهما في البواعت سواء ، وفي هذا يقول : « والخيرات الآخرية أيضاً هذاشأنها ، وبهذا الطريق تتفاوت الناس فيها ، اذ لا فرق بين الآخرية والدنيوية الا بتأخر وتقدم . والا فالخير مطلوب كل عاقل عاجلاً او آجلاً»^(٦٣) ومن ذلك نرى بأن الإمام (الفزالي) يعتبر خيري الدنيا والآخرة بآن واحد غاية للأخلاق ، فخير الآخرة لأنه مطلق ما بعده خيره ،

وخير الدنيا لما فيه من بواعث نفسية واجتماعية وعقلية . وهذا يعني تسلسل القيم صعوداً من خير الدنيا إلى خير الآخرة .

وكذلك الأمر في السعادة ، فسعادة الآخرة هي النهاية القصوى للفعل الأخلاقي ، وسعادة الدنيا غاية أخلاقية أيضاً لأن ما يوصل إلى الخير والسعادة خير وسعادة ، «ولأن سعادة الآخرة لا تناول الأنواع السعادات الأخرى» وهذا ما أبان عنه عند حديثه عن أنواع السعادة قائلاً : «فجعلتها منحصرة في خمسة أنواع : الأول السعادة الأخروية ، التي هي بقاء لا فناء له ، وسرور لا غم فيه ، وعلم لا جهل معه ، وغنى لا فقر معه يخالطه ، ولن يتوصل إليه إلا باهله ، ولا يكمل إلا بالنوع الثاني ؛ وهو الفضائل النفسية - وهي أربعة : العقل والمفة والشجاعة والعدالة - وإنما تتكامل هذه الفضائل بالنوع الثالث ، وهي الفضائل البدنية المنحصرة في أربعة أمور : هي الصحة والقوه والجمال وطول العمر ، ويتمثّلها النوع الرابع ، وهي الفضائل المطيبة بالانسان ، المنحصرة في أربعة أمور . وهي المال والأهل والمعز وكرم العشيره ، ولا يتم الانتفاع بشيء من ذلك إلا بالنوع الخامس . وهي الفضائل التوفيقية ، وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسديده وتأييده ، فهذه السعادات بعد السعادة الأخروية » (٦٤) .



□ الهوامش :

- ١ - عزت السيد أحمد - الشك المنهجي : من الإمام الغزالى ديكارت - ضمن مجلة التراث العربي - اتحاد الكتاب العربي - دمشق - العدد ٤٤ - ١٩٩١ - ص ١٢٦ .
- ٢ - عادل العوا - المذاهب الفلسطينية - مطبعة ابن حيان - دمشق - ١٩٨٦ - ص ١٤٧ .
- ٣ - للاستزادة حول مؤلفات الغزالى يمكن مراجعة كتاب «مؤلفات الغزالى - للدكتور عبد الرحمن بدوي» ، وهو كتاب شقم وقام بين فيه المؤلف كتب الغزالى الالوقة والنشوبة والشكوك في تسبيتها ٠٠٠ .
- ٤ - الطوسى : نسبة إلى مدينة طوس ، وهي مدينة من مدن خراسان - نيسابور ٠٠٠ فيها قبر (الرئيس) يظاهر مدينة نوقان بقريبة يقال لها « ملياناد » .
- ٥ - أبو حامد الغزالى - المتنقد من الضلال - المكتبة الشعبية - بيروت - دمت - ج ٢ - ص ٥٣ .
- ٦ - أبو حامد الغزالى - ذاته .
- ٧ - بيروت دمت - ص ٥٩ .

- ١١ - أبو حامد الفزالي - ميزان العمل - دار العكلة - ٣٧ - م٠س - ص ٧٢ - م٠س - ٧٦
- ١٢ - ميشق / بيروت - ١٩٨٦ - ص ٨
- ١٣ - ميزان العمل - م٠س - ص ١١
- ١٤ - م٠س - ص ٥٣
- ١٥ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦٤ و كذلك ميزان العمل - م٠س - ص ٦٤
- ١٦ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦٤
- ١٧ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦٤
- ١٨ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٤٦
- ١٩ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٤٦
- ٢٠ - هذه الآيات والآحاديث كثيرة يمكن الرجوع إليها في كتاب احياء علوم الدين ، الجزء الثالث ، الفصل الخامس « علامات حسن القلق » ص ٦٩ وما يليها .
- ٢١ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٧٠
- ٢٢ - م٠س - ص ٧١
- ٢٣ - م٠س - ص ٦٩
- ٢٤ - م٠س - ص ٦٣
- ٢٥ - م٠س - ص ٦٣ - ٦٤
- ٢٦ - ميزان العمل - م٠س - ص ٥٤ وما يليها وأحياء علوم الدين - م٠س - ص ٥٥ وما يليها .
- ٢٧ - م٠س - ص ١٣٥
- ٢٨ - ميزان العمل - م٠س - ص ٥٥ و كذلك : احياء علوم الدين - م٠س - ص ٥٦
- ٢٩ - م٠س - ص ١٣٥
- ٣٠ - ميزان العمل - م٠س - ص ٥٥ - ٥٦ وكذلك : احياء علوم الدين - م٠س - ١٣٥
- ٣١ - ميزان العمل - م٠س - ص ٥٦ - ٥٧
- ٣٢ - م٠س - ص ٥٧
- ٣٣ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٥٦ - ٥٧
- ٣٤ - انظر ذلك مفصلا في ميزان العمل - م٠س - ص ٦١
- ٣٥ - وكذلك في : احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦٠
- ٣٦ - م٠س - ص ٦٢
- ٣٧ - م٠س - ص ٦٢
- ٣٨ - م٠س - ص ٦٢
- ٣٩ - م٠س - ص ٦٢
- ٤٠ - م٠س - ص ٦٣
- ٤١ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦٤
- ٤٢ - أبو حامد الفزالي - إيه الولد - مكتبة الفزالي -
- ٤٣ - م٠س - ص ٦٤
- ٤٤ - م٠س - ص ٦٤
- ٤٥ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م٠س - ص ٧٣
- ٤٦ - م٠س - ذاته .
- ٤٧ - الأطاون - الجمهورية - ترجمة حنا خباز - دار القلم
- ٤٨ - بيروت - ٢٤ - ١٩٨٠ - ص ٩٠
- ٤٩ - م٠س - ٣٤ - ٦٦
- ٥٠ - أبو حامد الفزالي - الأدب في الدين - رسالة منشورة مع كتاب « المفتقد من الضلال » م٠س - ص ١٥٤
- ٥١ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م٠س - ص ٧٢
- ٥٢ - م٠س - ص ٧٣
- ٥٣ - م٠س - ص ٧٣
- ٥٤ - انظر ذلك مفصلا في الفصل المعقود لنظريات التسلم و تطبيقاته ضمن كتاب الدكتور احمد عزت راجع - أصول علوم النفس - المكتب المصري للحديث - الاسكندرية - ١٤٧٢ م
- ٥٥ - احياء علوم الدين - ج ٣ - م٠س - ص ٧٣
- ٥٦ - م٠س - ذاته .
- ٥٧ - الأدب في الدين - م٠س - ص ١٥٤
- ٥٨ - احياء علوم الدين - م٠س - ص ٦١
- ٥٩ - م٠س - ص ٥٩
- ٦٠ - ميزان العمل - م٠س - ١١ - ١٢
- ٦١ - م٠س - ص ٨٧
- ٦٢ - م٠س - ص ٧٧
- ٦٣ - م٠س - ص ٧٨
- ٦٤ - م٠س - ص ٨١
- ٦٥ - م٠س - ص ٦٤
- ٦٦ - م٠س - ص ٧٤

ابن شخيص الأندلسي

حياته وشعره

أحمد عبد القادر صلاحية

الأندلس ذات الطبيعة الغلابة خمائل شعرية باسته وارفة ، حرمنا
جنها اللذيد وغللها الرائعة ونسينا حين طال المهد بيننا - فيما
نسينا - أسماء أشجارها ولم تعد في أبصارنا سوى أطلال نرى منها
صوی وعلامات من وراء زجاج ، ولم تعد في حيالنا سوى أطیاف تبعث عن
عشاق . آية ذلك : أن ابن حزم في رسالته في فضل الأندلس وذكر رجالها قال :
« ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء الا أحمد بن محمد بن دراج القسطلي لما
تاخر عن شاو بشار بن برد وحبیب والمتنبی فكيف ولنا معه جعفر بن عثمان
العاچب وأحمد بن عبد الملك بن مروان وأغلب بن شعیب ومحمد بن مطری بن
شخیص وأحمد بن فرج وعبد الملك بن سعید المرادي وكل هؤلاء فعل یهاب
جانبه وحصان ممسوح الفرقة»(١) وليس لأی من هؤلاء الفحول من الشعراء
الذین یتاخر ابن حزم بهم ویوازنهم بکبار الشعراء المشارقة - مجموع شعری
یضم ما تناثر من اشعاره وتفرق من أخباره - خلا ابن دراج - بل لأنجد لهم
حیزاً كبيراً في بحوث الدارسين المتخصصین للأدب الأندلسي بل ان أكثرهم
معهول تماماً لدی خاصۃ الناس وعامتهم » .

وهذا ما جعلني أسمی في جمع أشعارهم او ما وصل اليانا منها من قصائد ومقطعات ،
واما انذا قد شرعت في جمع شعر ابن شخيص الأندلسي وفي تعريف موجز بهذا الشاعر
الفعل من فحول شعراء القرن الرابع الهجري في الأندلس وأعيانهم ومقدميهم .

□ اسمه ونسبة :

هو « محمد بن مطری بن شخیص »(٢) لم تذكر المصادر له نسباً بعد جده شخیص بل
على العكس كان بعضها يقتصر على القول « محمد بن شخیص »(٣) كما ذكره ابن عذاري

الراکشی باین شخیص و بمحمد بن شخیص^(٤) و ذکرہ صاحب کتاب التشبیهات بالاشکال
الثلاثة السابقة^(٥) ۰ اما کنیته فھی «أبو عبد الله»^(٦) ۰

□ ملامح من حیاته :

تضن المصادر باغلب أحداث حیاته وأخبار أسرته لذلك ساھاول ان ارسم الخطوط
الرئيسية لحیاته ما جمعت من شعره ولم تمن شعث ترجماته المختصرة اليسيرة ۰

اول ما يمكن ذکره هو أنه رجل عاش القسم الأکبر من حیاته في النصف الثاني من
القرن الرابع الهجري بدليل أن أول ذکر له كان في البيان المغرب^(٧) مرتبطاً باجراء الماء
إلى سقايات الجامع وحضور الوضوء في يوم الجمعة لشهر خلون لصفر من سنة ٣٥٦ هـ .
وورد أيضاً في المقتبس في سنة ستين وثلاثة لدی ابن حیان^(٨) ، وأنه توفی قبیل الأربعینة.
ومما يستنبع من قراءة أخباره أنه كان من ساكني قرطبة فقد كان قریباً من الخلفاء
الأمويين في الأندلس القاطنين قرطبة، يمدحهم ويهنئهم وينادهم ، ولعله قرطبي «من أهل
قرطبة» كما ذکر د عمر فروخ^(٩) ۰

وقد أشار ابن سعید الى أسرته اشارة يسيرة عابرة فنقل عن المسهب للعجاري انه
«أحد متن له البيت الرفيع والتقطم البديع»^(١٠) وتشی الفقرة الأولى بأن أسرته كانت
ذات فضل ومجده ، وتفصح الثانية عن جمال شعره وروعته ۰ ويتابع العجاري تعريفه به
فيقول «ومن يحضر مجلس المظفر بن أبي عامر وما شاه يوماً فيستان فنظر الى ورد مقابل آمن
(ورغب) أن يقول في ذلك فقال :

فقال له : نقىستك الملائ
أراد السورد يا ألس انتقادا
فقال الورود : لست أزور إلا
على شوق كما زار الغيال
وأنت تتدlim تقليلاً طويلاً
تلوم به كما رست العجال
فتسمك اليون لذاك ينضا
وترقبني كما رقب الهلال^(١١)

وهنا ذکرأن العلامة البارزة في حیاته أنه كان شاعر بلاط او بلاطات فقد اتصل
بال الخليفة العکم المستنصر باه و مدحه بقصائد كثیرة خلّد فيها ماثره و معانسه کینائه
الجوانب واجراء الماء اليها فقد ذکر ابن عذاري المراکشی أن العکم المستنصر جلب الماء
العذب «من عین بجعل قرطبة ، خرق له الأرض» ، وأجراءه في قناة من حجر متقنة البناء ، محکمة
الهندسة ، أودع جوفها أنايب الرصاص لتحفظه من كل دنس ۰ وابتداء جري الماء
من يوم الجمعة لشهر خلون لصفر من السنة : وفي جري الماء الى قرطبة يقول محمد بن
شخیص في قصيدة له ، منها :

من اغلب الماء نو الیت تجربها
ری القلوب اذا حررت صواديها
في امة انت راعيها وحاميها
وقد خرق بطن الأرض عن نطف
طهر الجسم اذا ذات طهارتها
قرنت فغرا باجر قل ما افترنا

وابتني بغربي الجامع دار الصدقة، اتخذها معهداً لتفريغ صدقاته (رحمة الله تعالى) ومن مستحسنات أعماله وطيبات أعماله ، اتخاذ المذدين يعلمون أولاد الضففاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع وبكل ربض من أرباض قرطبة ؛ وأجرى عليهم المرتباً ، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح ، ابتناء وجه الله العظيم ؛ وعند هذه المكاتب سبعة وعشرون مكتباً ، منها حوالي المسجد الجامع ثلاثة ، وباقيتها في كل ربض من أرباض المدينة . وفي ذلك يقول ابن شخيص :

و ساحه المسجد الأعلى مكتله مكتاباً لليتامى من نواحيها لو مكتن سور القرآن من كلام نادتك يا خير تاليها وواعيها » (١٢)

وكذلك فقد سجل أهم أحداث عصره كانتياد ابني حمدون له عام ٣٦٠ مـ ، كما كان يهمنه في أيام الفطر والأضحى في أعوام ٣٦٠ - ٣٦٣ وأشند ابنيه وولي عهده أبا الوليد المؤيد في عيد الفطر عام ٣٦٤ أي قبيل وفاة الحكم المستنصر بستين (ت ٣٦٦) (١٣) ومع آتنا لانجده في شعراء العاجب المنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢) بعد تسلمه زمام الأمور فأن هذا لا يمنع من أن يكون قد اتصل به ومدحه وإن لم تتوافق في الوقت الحاضر تصوّص ثبت ذلك ، لأنّه لا يليث أن يصير من يحضر مجلس ولده المظفر بن أبي عامر (ت ٣٩٩) ويتأدّمه أحياناً كما سلف .

فالشاعر آذن قد توالى عليه أربعة من الحكام وهذا أمر شديد الأهمية يدل على حنكته وقدرته على التأقلم مع تغير الرياح السياسية . وقد انتصر الأستاذ عنان على القول بأنه شاعر الحكم المستنصر « وكان من أهل الأدب البارع ومن أعيان الشعراء الحميديين ، كان متصرفاً في القول متقداً لأساليب الجد والهزل وكان من أخص شعراء بلاط الحكم » (١٤) وكذلك ذكر د. شوقي ضيف أنه « من شعرائهم الهميون » . ومثلهما أ. ر. نيكل (١٥) .

بينما ذكر د. فروخ أنه اتصل بالمنصور بن أبي عامر (ت ٣٩٢) ثم بابنه المظفر من بعده وكان يجالس المظفر « (١٦) مستقطعاً ممدوحه الأول الحكم المستنصر ومبثطاً اتصاله بالعاجب المنصور ويزيل هذا الوهم ويكمّل ذلك النقص دـ احسان عباس بتعريف له دقيق موجز في نهاية تحقيقه كتاب التشبيهات، يقول : « وقد كان من الشعراء البارزين أيام الحكم المستنصر يقوم في المناسبات العديدة والامتنابالية بقصائد المدح . . . وشهد عهد المنصور بن أبي عامر ثم عهد ابنته المظفر وكان من يحضر مجلس هذا الثاني » (١٧) وينذكر سرّكين أيضاً أنه « كان شاعراً تابياً أيام الحكم المستنصر وكان أيضاً من شعراء المنصور بن أبي عامر (المتوفى سنة ٣٩٢ - ١٠٠٢) (١٨) وابنه عبد الملك المظفر (حكم من سنة ٣٩٢ - ١٠٠٢ = ٣٩٢) (١٩) » .

ذلك هو الوجه الرئيسي لحياة الشاعر أما الوجه الآخر فقد كان على التقىض هازلاً وقد عرف القسام ذلك فيه فذكر ابن خير أنه روى شعر ابن شخيص « في جده واهزاله » (٢٠) وقال الحميدي عنه انه كان « متصرفاً في القول سالكاً في أساليب الجد والهزل . قال على لسان رجل يعرف بابي الغوث أشعاراً مشهوراً في أنواع من الهزل أفتناه بها بعذقه ورفعه بعد خموله » (٢١)

ولكن لم يصللينا شيء من هذا الشعر وتلك الأخبار ولستنا نعرف من هو أبو الغوث هذا
ويبدو أنه كان يحب أن ينظم الشعر على لسان غير واحد تظفراً فقد ذكر الحميري أنه كان
يقول الشعر على لسان رجل آخر سماه ابن العمالقة . وفي ذلك يقول محمد بن شعيب
على لسان ابن العمالقة اذ كان غائباً في القدسية في شعر له طويل :

اقر السلام على الركين وقل له
سقيا لظلك بالعشى وبالضحى
لو كنت أملاك منع مائك لم يقم
مد غبت لم ارجح لظل نسيم
ولبرد مائك في احتدام سوم
في ظل ساحك منتم للتيم ^(٢٤)

ويتبدى هزله أيضا فيما تبقي من شعره في وصفه الطعام فقد أورد له صاحب كتاب التشبيهات في باب وقفة على أوصاف المأكولات مقطوعة في وصف سفرة في مجال الطبيعة تصور شدة معجته للطعام يقول :

ان حُسن الرياض صاغ لها ألف
من مجال الأكف في سفرة تع
وي صنوف العيتان والغرفان
وكان الشريد والحمص المز
ثور تاج مكمل بجمان
بن صَلَوة نَقْطَنْ بالغيلان (٢٣)

ويدرج له أبياناً تصف نهمه وتطفله بشكل مبالغ فيه في باب ذكر فيه الأكلة والطفليين وكانه يجعله واحداً منهم :

ويظهر هزله أيضاً في هجائه الذي سلم لنا منه مقطوعتان ألحٌ فيها على تطلب الصورة والإبداع فيها يقول في الأولى ساخراً من صاحب لمعية طويلة مخصوصية :

حدثوا عنك قد خبّط فالب سُت السِّبَال التلوين والتعنيف
ن للنغر حوله كل صبح جولة اذ تخاله عرجونا(٢٠)

ويُلْمِحُ فِي الثَّانِيَةِ تَرْدِي وَضْعِ مَايُورَ شَعْرَاءِ الْمَدِيْعِ الَّذِينَ يَسْأَلُونَ فِيرْدُونَ رَدًا قَبِيْعًا
فِي جُمُونَ خَاتِيْبِيْنَ :

فَقَسْتُ بِالشِّعْرِ مُعْشِرًا فَإِذَا هُمْ
كُلُّمَا جَنَّتْهُمْ لَأَشْدَدْ شِعْرِي
فَكَبَانِي وَضَعْتُ فَلَكَّةً بِسُوقِ

وبين هذا وذاك يتجلّى في شعره ما يصور بعض أموره العياتية ، والماطفية فهو يطمح إلى المجهّه ويسمى إليه لأنّه ملئ إلى المال والحياة الهاشة يشير إلى ذلك في أحدى قصائده المذكورة :

سأثني على دنيا ياذ ظفرت يدي بجاه فكان العاه للمال مكسبا (٢٧)
كما كان يطلب بعض ما يحتاج إليه من أمور حياته فقد استهدي ورقاً من بعض
اصدقائه فكتب إليه :

لس كالماء ، جبسه فيه يأسن
صفحات الغصيّ قبل التغضّن
ل فقط سطحه من اوراق سوسن
ورق الورد لو خلا من تلوّن (٢٨)

أما المرأة في شعره فصورتها شاحبة فهي لم تتصدر مقدمات قصائده المذكورة وهي -
فيما سوى ذلك - تترجع بين صور متعددة فمن نسب تقليدي يعتمد الثقافة المشرقية والمعاني
القديمة قوله :

اطرق أعمى أم نهاري مظلوم
بنوم ، ونوم العاشقين معرم (٢٩)

وما كل من يشكوا إلى الناس يرحم
تفكر في ذنب المحب فينسجم (٣٠)

ولم أدر أذ زموا الهوادج بالضعي

فياجفن عيني كيف تطبع في الهوى
او المعانى المحدثة قوله :

يقولون كم تدعوا إلى غير راحم
وددت بأن يرضي فان جاد بالرضى

ومن غزل يجّنح إلى المبالغة والفلو قوله :

حب القلوب عليه ناظر المقل
موسى أوان تعلي النور للجبيل (٣١)

اذا جلت للوري الوجه الذي حسلت
اغضوا ولو لا تلالي بشره لعكوا

ومن أسلوب عذري ترفف فيه المعانى الحزينة لأولئك المشاق :

عليها ولكنني أنتي أنتي الـ اعتلالها
ل فعل " عرى الآجال منذ إجالها
لعلني اذا ما نمت القوى خيالها
وما وعند ليلى فاشكوا مطالها
وطني هواها واحتتمالي دلالها (٣٢)

ومعتلة الأجياف ما ذلت مشفقة
جفون آجال الحسن فيهن فترة
فهل من شفيع عند ليلي إلى الكري
يقولون لي صبرا على مطر وعدها
وما كان ذنبي غير حفظ عهودها

ومن أسلوب مباشر يقترب من النثرية ويخلو أو يكاد من الصور الفنية :

كان في كثرة العتاب دليل
لي على أن من هويت ملول
سب على من يحبه ما يقول
مع طول العتاب منك قليل
يتباهي لي إلى رضاك سبيل^(٣٣)
جed الغرام به وكان مزاحا^(٣٤)
من نوى جفوة تقول في الع
فاقطعي الوصل او صلي فبقائي
واسلكي بي سبيل عروة ان لم
ولعل الغرام جد به مرة وهو يمزح :
واما لم تبول الفؤاد متيم

كما تتبدي في شعره محبته للطبيعة في تصويره بعض مفاتنها الطبيعية كالورد
يقول :

كان انتشار الطل في الورد أدمع
تبدى على زهر الخنود انتشارها
كان جنبي الأقحوان بروضها
ثغور العذاري حين راق اثارها^(٣٥)

وكالبيع بنا يوم في من أزمار واطيار في جنانه :
اقلن جنان الغلد جنت صباية
اليه فدارت حين طال انتظارها
وقد حان عن رمي الجمار انعدارها
حتى هزج الأطياف ليلا عجيجها
ومستر النوار صبعا جمارها^(٣٦)
وتعدد هذه الصورة الشعبية الشرة مرة أخرى في وصفه السحاب والمطر والرعد :
فكان السحاب في الأفق ركب
زم أحداجه وصف قطاره
عج أصواته وبث جماره^(٣٧)

واهتم الشاعر بوصف الطبيعة الصناعية فصور المباني والبساتين :

اقام لأبصار الجميع مثالها
وللسمع تفعير المياه خلالها
كان يواقيتها أذيبت فأشربت
سطوح المباني صبغها وصقلها
سعود المغاربي فاستردت كمالها^(٣٨)

وأبدع أيضاً في وصف المدن وترك لوحات رائمة الجمال ، قال في وصف مدينة
الزهاء التي اختلطها الخليفة عبد الرحمن الناصر وعملها متنزها له :

هلني مبني أمير المؤمنين غلت
 كذا البراري وجدنا الشمس أعظمها
 لقد جلا مصنع الزهراء عن اثر
 فاتت محاسنها مجده واصفها
 بل فضلها في مبني الأرض أجمعها
 كانت قسي العنایا ان تضارعها
 تالت ففدا نقضانها كملا
 او في سنها على أعلى مفارقها
 كم عاشقين من الأطيار ما فتنا
 اذا تهادى حباب العوض حثها
 كانما افرفت الواح مرمرة
 او قد من صفحات البو يوم صفا
 يزري برقة ابشر الغلود جرى
 اذا استوت فوقه زهر النجوم غلت
 وان حداء نسميم الريح تحسبه

□ وفاته :

ذكر الحميدي أن الشاعر قد « مات قبل الأربعينية » (٤٠) من دون تحديد لسنة وفاته ،
 ونقل عنه الفسي وابن سعيد (٤١) من دون زيادة .

□ شعره :

يظهر مما سبق أن الشاعر متعدد الأغراض متعدد الموضوعات متقلب بين جد وهزل ،
 وتبدو شخصيته واضحة في هزله ، شاحبة ، بل تكاد تكون غائبة في مدحه . وإذا كان ثمة من
 ملاحظات يسيرة تقييد في هذا المقام فمنها أنه شاعر مقتنص على النظم بدبيه وأنه طويلا
 النفس في المدح ، فقصاصاته طوال منها ما يزيد على السنتين بيتاً (٤٢) ، وهو فيه يتجلب الغزل
 والنسيب يوطئ له بما يناسبه أو يهجم على موضوعه مباشرة ، وفي مدائنه ملامح مشرقة
 واضحة وتأثير بين بكتار الشعرا المشرقين كجرين والقرندي والمتتبلي يتجلى في جزالة
 الألفاظ وفصاحتها وصحة المعاني ووضوحها واستمداد بعضها من القرآن الكريم وتراثية

الصور وحرفيتها وقلة الصور الفنية عامّة والبالفة والتضاد وأسلوب المكس والتبديل
قوله :

فما يضع الادبار من انت رافع ولايرفع الاقبال من انتواضع(٤٣)

لقد حل بأس الله بالكرم الذي
فُلِّو حله غيلان نادى طلوله :
وما حجر النسر المنيع بزعمه
فُلِّو طار فوق الأرض أو غار تحتها

غدا وهو في حزب الضلال بلاع
« هل الأذْنَنُ الْلَّائِي مُضِينَ رواجع »
منيع وهل حصن من الله مانع
ثَا خالَ أَنَّ الْمُنْتَأَيَ عَنْكَ واسع(٤) :

وقد تنبه بعض النقاد القدامي لافادته من الشعرا المشارقة . فالحميري بعد أن ينقل أبياتاً الميمية يقول : نقل في هذه الأبيات معنى شعر ابن المتن وكثيراً من لفظه وهو :

اقرأ على الوشل السلام وقل له كل المشارب مد هجرت ذميم «٤٥»

اما سائر اغراضه فمتداوّلة بين جزالة ورقّة ، وبداؤة وحضرية ، ورفعة وشعبية ، وواقعية وبالفة ، وغنى وفقر في الصور ، وبساطة ومحاكمة عقلية وأندلسية وشرقية أمثل لهذه الأخيرة بالسبة المذرية في غزله :

يقولون لى صبرا على مطل وعدها **وما وعدت ليلى فاشكوا مطالها**

واما كان ذنبي غير حفظ عهودها وطبيّه موهاباً واحتماليّ دلالتها^(٦)

وبتأثره بمعاني الشعر المحدث المشرقي وصورة كتائبه بأسلوب صريح الغواني وأiben المختار وأبي نواس . ويتوال د . فروخ د . ولابن شخيص قصائد ومقطوعات وفنونه : الوصف والفنز والملح والهجاء وربما تنا نعوا بدويا في مدحه ونعوا سوقيا في مجاهه (٤٧) .

تلك هي أهم سمات ما تبقى من شعر ابن شخيص ومن أغراضه فقد ذكر المترجمون أن «شعره كثير مشهور»^(٤٨) وأنه كان ينشد ويروى فالحمدى ينقل أبياتاً أنسدتها له أبو محمد علي بن أحمد بن حزم كما كان له ديوان شعر ذكره ابن خير بسنته إلى مؤلفه ابن شخيص، قال: «شعر محمد بن مطرف بن شخيص في جده وإزاله، حدثني به أبو عبد الله محمد بن معمر أياضاً عن أبي بكر محمد بن هشام المصحفي عن أبيه، قراءة عليه، عن ابن شخيص المذكور»^(٤٩) ولكن لم يعد له ذكر في برامج العلماء وفهارسهم فيما يلي ابن خير.

وَثُمَّ اشْارَاتْ كَثِيرَةً تَدَلُّ عَلَى كَثِيرَةٍ شِعْرٍ وَطُولَ نَفْسَهِ فِي فَالْحَمْرَى يَنْقُلُ ثَلَاثَةَ آيَاتٍ
مِنْ شِعْرٍ وَيَذَكُرُ أَنَّهُ «فِي شِعْرٍ لَهُ مُلْوِيلٌ» (٥٠) وَابْنُ حِيَانَ يُورِدُ لَهُ قَصْانِدَ طَوَالِهِ يَخْلُلُ بَعْضَهَا

بما يدل على أنها أطول مما أوردها له ، فيقدم لأولاها بـان الشمراء « أكثرت وجودت فكان لن
مختار ذلك قول محمد بن شخيص في شعر طويل له :
بايسن القيال وأسعد طائر تباشير معتوم من الأمر واقع »

ويذكر له (٤٤) بيـتاً .

وينتهي من الثانية مقاطعه ويقدم لها « وظلت الخطباء والشعراء خلال ذلك ترتجـل
القول وتتشدد الشعر فتكثر و تستجيد فـكان من أحسن ذلك قول محمد بن حسين الطبـني ...
وقول محمد بن شخيص في شعر طـويل أوله :

المَّ بِنَا الأَضْحَى فَقْلَتْ لَهُ أَهْلًا وَإِنْ كَانَ مُولَانَا بِمَا قَلْتَهُ أَوْلَى

يقول فيها في ذكر جعفر بن علي ...

ومنها في ذكر ولده هشام ...

ومنها في ذكر غالب مولاـه ...

وآخر هذا الشـعر ...

وينتهي منها (٢٤) بيـتاً .

ويقدم للثالثة « وكان من أحسن ما أنسـد الخليفة يومـئـذ قول الطـبـني ... وقول محمد
ابن شـخصـيـنـ في قصـيدة حـسـنةـ أولـهـاـ :

كَادَ أَنْ يَزْحِمَ الْفَلَوِ الْعَشْيِيِّ يَوْمَ وَافَاكَ لِلسلامِ النَّدِيِّ

ثم يذكر في وسطها « ومنها في ذكر حـسـنـ بنـ قـنـونـ ... » ويورد منها (٢٢) بيـتاً ثم
يقول « وهي طـولـةـ » .

ويقدم للرابعة : « وقول محمد بن شـخصـيـنـ في قصـيدةـ لهـ حـسـنةـ :

وَلَا جَلَاهُ الْبَشَرُ غَيْرِهِ السَّنَا كَذَلِكَ قَرْصُ الشَّمْسِ بَادِ مَغِيبِ

ويورد له ثلاثة أبيات فقط .

ويقدم للخامسة « وتلاه محمد بن شـخصـيـنـ الشـاعـرـ منـشـداـ قـائـماـ فقال :

طَلَعَتِ الْأَنْدَلُسِيَّةِ بِسَعْدِ مَقْبَلِ فَانْسَاكَ الْأَقْبَالَ عَامًا بِقَابِلِ

ويورد له (٢٦) بيـتاً .

ويقدم للسـادـسـةـ « وظلت الخطباء تـرـجـلـ والـشـعـرـاءـ تـنـشـدـ مـسـخـنـفـرـينـ عـلـىـ العـادـةـ فـكانـ
من أـبـرـعـ مـنـ قـامـ يـوـمـئـذـ منـشـداـ شـعـرـهـ مـحـمـدـ بنـ شـخصـيـنـ سـابـقـ الـحـلـبةـ فـأنـشـدـ شـعـراـ طـولـاـ
حسـناـ لهـ ... فـقالـ :

لَقَدْ حَلَّ بَاسِ اللَّهِ بِالْكَرْمِ الْتَّنِي فَدَا وَهُوَ فِي حَزْبِ الْفَلَالِ بِلَاقِعِ

وذكر له عشرة أبيات فقط وينظر بعد البيت السابع « ومنها في ذكر ابنه الأمير أبي الوليد هشام : »

ويقدم للسادسة : « ثم قام بعده رسيله محمد بن شخيص منشدًا شمراً مطولاً ٠٠٠

اتم شعبان ما ابدا به رجب من قبل ما كانت الامال ترقب

وفي الثنائي يعلق مرتين « وخرج الى ذكر حسن والله المشهورين فقال وأفعش ٠٠٠

يقول فيها لطف الله به بنته ٠٠٠ » ويورد له (٦٦) بيته .

ويقدم للثانية : « وكانت الخطباء والشعراء خلال ذلك ترجل وتنشد بين يدي الأمير أبي الوليد فتسخنف وتتجهد فمن قام من الشعراء يومئذ بين يديه منشدًا شعره محمد بن شخيص أطال وأجاد وكان أوله :

أرى مشرق الدنيا ينافس مغريا على غرة لم تبق للظللم غيبة(١)

ويورد له (٤٨) بيته .

تدل هذه الأقوال الماخوذة من قطعة من كتاب المقتبس لابن حيان وصلت اليتنا على أن شعره كثير ولو وصل الكتاب اليانا كاملاً لوجدنا متزيداً من شعر ابن شخيص فشعره يرد في كل السنوات التي احتوتها تلك القطعة من ٣٦٤ إلى ٣٦٠ مرتين في الأغلب وتعدل أيضًا على مكانة ابن شخيص وشعره فهو من أوائل المهنئين والمنشدين في حضرة الخليفة الحكيم المستنصر، كما تصف جودة شعره فهو من « مختار » الشعر الذي ينشد و « أحسن » وأبرعه، وقصائده « حسنة »، وأنه « أطال وأجاد »، وأنه « سابق العلبة »، « والوصفت الأخير شبيه بوصف ابن حزم له بأنه « فحل يهاب جانبه ومحسان ممسوح الفرة » (٥٢) .

واردف باشادة الحميدي به وبشعره فقد قرأته فرقه بقوله : « كان من أهل الأدب المشهورين ومن أعيان الشعراء المقدمين » (٥٣) .

واختتم أخيراً بتنوية ابن سعيد به في قوله : « أحد من له البيت الرفيع والنظم البديع » (٥٤) .

□ العواشي :

شيوخه أبو يكر بن خير الشيبيلي . دار الأفاق الجديدة ، بيروت ط ٢ ، ١٩٧٩ - ص ٤٠٨ . يتيمة الدهر في محسان أهل الضر للشعابي . تج: محمد معين الدين عبد العميد دار الفكر ، بيروت ، د.ت . ص ٢٢/٢ (ذكر اسمه محرفاً) : محمد بن مطرق بن شخيصين) . الاحاطة في اختيار فرنطة ، لسان الدين بن الخطيب ، تج: محمد عبد الله عثمان ، مكتبة الخانجي ١٩٧٦ ص ١٠٧/٢ . ٢ - انظر المقرب في حل المقرب لابن سعيد الاندلسي ، تج: د. شوالي ضيف ، دار المعارف ، مصر ، ط ٣ ،

١ - رسالة في فضل الاندلس لابن حزم (ضمن رسائله) ج ٢
تع: د. احسان عباس . المؤسسة العربية للدراسات والنشر د.ت ، ١٩٨٢/٢ ، ١٨٨-١٩٨ ، وانظر نفح الطيب من

فضل الاندلس الرطيب للمقربي . تع: د. احسان عباس دار صادر ١٩٨٨ ، ٣ / ١٧٨ .

٢ - جلدة المقتبس في ذكر ولاية الاندلس للعييني . الدار المصرية للتأريخ والترجمة ١٩٦٦ ، ص ٩١ ، بقية الملتمس في تاريخ رجال أهل الاندلس للضبي . دار الكاتب العربي ١٩٦٧ ، ص ١٢٩ ، فهرسة ما رواه عن

النباتات الطبية

تاريχها - قصصها - وأساطيرها

د. جوزيف كلاس

□ آيات على صفحات الطبيعة :

للباري تعالي كتاباً انزلت بالوحى على الانبياء والمرسلين ، سلطتها الانسان بالقلم ؛ وكتباً خطتها يده تعالي على صفحات الطبيعة ، نشرت في السهول والجبال والوديان وفي اعماق البمار ، وكتبت آياتها على ازهار وأوراق وجذور النباتات ، وكشفت اسرارها في اجسام بني البشر وفي اجسام الحيوانات . وان من يقرأ الطبيعة بروح التقوى ، كفراطته لكتب الله عز وجل ، يجد فيها ما يعز في قلبه اليمان بعقلمة مبدع هذا الكون .

إن

□ الأرض تنبت الدوام :

لقد شاءت حكمة الخالق وهو منزل الداء ، أن تنبت الأرض الفداء ، وأن تنتح الدوام . ولقد عرف الانسان المداواة بالنباتات ، منذ أقدم العصور ، ونمت معرفته هذه ، وترعرعت في أقدمحضارات ، وانتشرت في المدى من أرجانها تناقلتها مختلف البلدان . وحين لجا الانسان الى النباتات وخصائصها الشافية ، كان عمله ذاك ، يمثل الجهد الأول الذي بذله من أجل قراءة الطبيعة وفهمها ، والاستفادة منها ، وكذلك من أجل التحرر من الخوف من المرض . وكان هذا الخوف يشكل احد أقدم أسباب التلق ، عند الانسان الأول .

□ الموارف الخالدة :

وما هو جدير بالاعجاب ، هو أن كل الحضارات ، في كل القارات ، طورت تأهيل النباتات وزرعها ، للحصول على الفداء ، وطورت الى جانب ذلك عملية البحث عن الخصائص الملاجية ، لتلك

النباتات . وكان رائعاً أيضاً ، أن هذه المعرف اجتازت آلاف السنين ، وقضت تلك المصور ، متعمقة في البحث ومتوسعة في التحري دون أن تصيب بالهرم ، أو تلعق بها أسباب التداعي . فالاستفادة مثلاً ، من خصائص الأفيون ، المستحضر من نبات الخشاش ، قبل أن يستحضر العلماء المورفين منه بعوالي ٤٠٠ عام، دليل على استمرارية وخلود هذه المعرف التي يقيت زمناً طويلاً ، معارف تجريبية ، ولكنها أصبحت بفضل تقدم المعلوم ، في القرون الأخيرة أشد ثباتاً ، وأكثر دقة من ذي قبل .

□ سمات علمية للأعشاب :

وفي الوقت الذي كانت فيه المعرف الطبية لطلب الأعشاب تتكون وتجمع وتنسق ، كانت المعرف الطبية « الشعبية » ، البنية على استعمال النباتات الشافية ، تنمو وتزدهر . ولقد وضمت هذه الأخيرة الأسس الأولى للدساتير « العلمية » للأعشاب واستمرت في اغناها . هذه المعرف الشعبية المرتكزة على تقاليد شفوية انتقلت من الآباء إلى الأبناء ، كانت تطبق على مستويات مختلفة ، أول هذه المستويات اللجوء إلى استخدام النباتات الطبية في المداواة ، وأخرها فن « الشفاء » المختصين ، الذين غالباً ما كانوا ، ولا يزالون حتى يومنا هذا ، يعطيون أعمالهم بالالغاز أو الأسرار ، وأحياناً بشيء من ضروب السحر .

□ عصر النهضة وتطور العلوم :

وما أن حلل عصر النهضة في أوروبا ، حتى أخذ علماء الغرب ، ينحدرون من بعث الروح العلمية، التي يقيت في ركود قروننا بعيدة ، فضاعفوا من إسفارهم في سبيل البحث والتحصي ، وبيفية تطور هذه المعرف ، والتمهيد لترتيب دقيق ، لكل ما فيهان عناسير التجارب الماضية . ومنذ نهاية القرن الثالث عشر أتي تطور العلوم الحديثة ، السريع ، ليبني ، وينوّع ، بشكل رائع ، معرفتنا للنباتات ، هذه المعرفة التي ترتكز اليوم على فروع من الملم مثل علم الأحاثة^(١) ، وعلم الجغرافية ، وعلم الخلايا ، وعلم الوراثة ، وعلم النسج ، وعلم الكيمياء العضوية .

□ مسيرة المداواة بالأعشاب :

والليوم ، وبالرغم من التقدم الراهن ، في مجال المداواة ، بالمقاييس الكيميائية نجد المداواة بالأعشاب الطبية ، تتبع مسيرتها ، وتطبع بكثرة في المديدين البلدان ، كما أنها نجدتها ، في بعض الأحيان ، المداواة المفضلة ، وذلك بعد أن كشف العلماء النقاب عن النتائج المقجمة أحياناً ، والناتجة عن الأفراط في تعاطي المقاييس الكيميائية .

وانما إذا ما أردنا القاء نظرة اجمالية على ما حققته المعرف الإنسانية من تقدم في مجال النباتات الطبية ، استطعنا أن نميز أربعة مصور :

١ - عصر سومر وبابل وأشور . ٣ - العصر الأفريقي .

٤ - عصر مصر القديمة . ٢ - العصر الروماني .

ولقد تكبدت أثناء هذه المصور ، معارف تجريبية غفيرة حملها العرب إلى الأوروبيين ، ورثة تلك العظارات البائدة .

في سومر وبابل وأشور

□ شانيدار :

قبل خمسين ألف عام ، أي في العصر العجري القديم ، دفن رجل من أرض شانيدار ، في بلاد الرافدين « المراق القديم » ، دفن في قبر ، اكتشفه علامة الآثار منذ سنوات . وفي هذا القبر ، وجد الرجل مسداً فوق سرير من الأزمار ، افتعلت واختبرت بكل عناء .

□ أول دستور للأدوية :

وفي حضارة سومر ، التي تعود جذورها إلى ما قبل عام ٤٥٠٠ ق.م. قام طبيب سومري في نهاية الألف الثالث ق.م. بتدوين أثمن وصفاته الطبية على لوح من الطين كتبها بالخط المساري . وهذه الوثيقة ، التي هي أقدم « كتاب موجز » في الطب عرفه الإنسان ، يقيت مطحورة في خرائب مدينة « نمر » ، طوال أكثر من أربعة آلاف عام إلى ان أظهرتها إلى الوجود تقييبات أمريكية وجاءت بها إلى متحف جامعة المتندي « القاسيا » ، والآن ، والحلت في تلك الوثيقة ، من حالم النبات مثل القثاء المتندي « القاسيا » ، والأس ، والخلتين « آسا فيتيدا » ، والزعن ، ومن جملة أشجار مثل شجر الصفصاف ، والكمثرى ، والشوح ، والتين ، والتخيل . ومن الجدير باللاحظة أن هذا الطبيب لم يعتمد على التحاويذ والرقى السحرية ، فلم يرد في هذه الوثيقة ذكر لأبي إله ، أو شيطان ، في جميع نصوصها ، رغم أن استعمال الرقى والتحاويذ في علاج الأمراض كان شائعاً في بلاد سومر في الألف الثالث قبل الميلاد . إذ كان السومريون ، مثل البابليين في المهد المتأخرة عنهم، يعانون الكثير من الأمراض إلى وجود الشياطين والأرواح الشريرة في جسم المريض ، هذه الوثيقة كنز طبي تاريخي عظيم كشفت عنه تلك الوثيقة ، وهو أول دستور للأدوية عرفه الإنسان .

□ عرموا المتسمات :

ومن المفيد أن نذكر أن السومريين عرروا أيضاً المتسمات ، فلقد اكتشف العالم « وولي » عام ١٩٢٩ ، في المدائن الملكية في مدينة « أور » ، قبراً يرسد إلى حوالي خمسة آلاف سنة خلت ، وجدت فيه هيكل الأضاحي الذين دفونوا مع الملك أحيا ، للتعاقب به إلى الحياة الآخرة :

٦٦ هيكلًا من النساء وستة هيكل من المحاربين ، وكانت تقطي رؤوس تسعة من النساء عمران مرتبة ترتيباً جيداً ، تزييناً حلبي من ذهب ، وأكاليل من اللازورد والمعيق .

هيكل ممددة ، في صنوف مرتبة ، دونما هلامات لتوف أو زجر أو هتف . وكان تقدير الخبراء أن هؤلاء الأضاحي ، من حاشية ، واتباع ، وندماء ، اختاروا الموت مع ملوكهم وملكيتهم ، طوعاً وأنهم شربوا شراباً منهما شديد التأثير ، أغلبظن أنه كان شراب نبات الماندراغورا وناماً نومهم الأبدي .

□ الانسان استخدم النبات منذ فجر التاريخ :

هذه الكشوف الهمة كانت لها دلالتها بالنسبة للعلماء والباحثين ، ذلك لأنها تشير بلا ريب الى أن الانسان القديم استخدم النباتات من أزهار وأوراق وجذور ، منذ فجر التاريخ : وانه فعل ذلك بادراك منه ، بغية العفاظ على حياته ودرء شبع الموت عنه . كما أن هذه الكشوف تدعوا الى الاعتقاد بأن الانسان القديم كان يستعين بالغواص السحرية والصفات الرمزية للنباتات ، في كل مرة كان الأمر فيها يتعلق ببقاءه على قيد الحياة . وبما أنه لم يكن يعلم الاسباب الفيزيائية للغواصات الشافية التي تتصف بها تلك النباتات ، فان اعتقاده بالصفة الخارقة للطبيعة لتلك الغواصات ، يبقى أمراً مرجحاً .

□ المرأة في عالم النبات :

وكما كان عالم العيون ، في المصور الاولى ، يستحوذ على اهتمام الرجل ، يصطاد طريرته ، ليحصل على اللحم والمطعم والجلد ، كذلك كان عالم النبات يستحوذ على اهتمام المرأة ، وانتباها . فمن النبات كانت تؤخذ البذور ، والثمار ، والأعشاب والأوراق النضرة لتكميل بها وجبات الغذاء . ومن حطب النبات كانت توقد النار التي تمطللي بها الأسرة ، وتطبع عليها طعامها . ومن الياف النبات ، كانت تصنع العصر والعبال ، والسلال . ومن النبات ايضاً كانت تستخلصن المواد ذات الخصائص الجوية ، التي تشفي الأمراض وتحتفظ الألام .

وكما أن ملاحظة الانسان الاول ، لبعض النباتات والغوب الصالحة للأكل ، ومبادرته إلى زراعها قد أدت إلى نمو وتطور زراعة المأード الغذائية ، كذلك أدت ملاحظة « الشaman » - رجل الطلب ، وملاحظة « المرأة الحكيمية » ، لطبيعة المرض من جهة ، ولغواصات الأعشاب الطيبة من جهة أخرى ، إلى نمو وتطور الكثير من المعالجات ، التي انتقلت بعد تجربتها ، من جيل إلى جيل .

□ المعارف الطبية في بابل وآشور :

وان المارف الطبية ، التي نشأت في مصر القديمة ، انتشرت بصورة خاصة في بلاد ما بين النهرين ، ولقد تمكن الدكتور « ريتال كاميبل توميسون » ، المدير المساعد للمتحف البريطاني تمكن عام ١٩٢٤ ، من معرفة وتحديد هوية ٢٥٠ نباتاً ومعدناً ، وعناصر مختلفة أخرى ، استعملها أطباء بابل في وصفاتهم ، وأفادوا من خصائصها الملاجية . وشخص بالذكر منها نبات السيدة الحسناء ، « بладونا » ، لمعالجة التشنجات والسعال والربو والقصبى . ولقد ورد ذكر القنب الهندي في الواح بلاد الرافدين ، وكان البابليون يعرفون خصائصه المسكنة للألم ، ويصفونه لمعالجة الأرق والروماتزم . كما وجدت بين الآلاف الآلواح الفخارية المكتوبة بالخط المساري ، والتي كانت تحتويها مكتبة آشور بانيبال في مدينة نينوى وجدت وثائق تذكر ١٥٠ نباتاً طبياً .

في مصر القديمة

□ بردية ايزر ، الفن خطوطه مصرية تبعث في المداواة بالأعشاب :

عندما عرف الانسان الكتابة ، وظهرت الى الوجود طبقة الكتاب والأدباء ، بدأت المعرفة العلمية للعشائش الطبية ولغواصاتها الدوائية تثبت أقدامها . وفي هذا المضمار نجد أن مصر القديمة،

التي اكتسبت شهرة واسعة في مجال الطب والمداواة بالأعشاب تركت لنا أسم الوثائق ، ومن أقدم المخطوطات المصرية التي تبحث في المداواة بالأعشاب ببردية « ايبرز » . ففي عام ١٨٧٣ ، عشر عالم الآثار المصرية الألماني ، جورج ايبرز ، على مدرج ضخم ، من ورق البردي . وبعد أن فك رموز المقدمة ، دفع لهذه الجلة التي جاءت في مقدمتها: هنا يبدأ السفر المتعلق بصنع العقاقير المفيدة من أجل مداواة كل أجزاء الجسم البشري .

□ قبل أطباء اليونان بالفقي عام :

كان ذلك قبل الفقي عام من ظهور أطباء اليونان الأوائل اللذين ورثوا عن المعرف الطبية المصرية والبابلية الشيء الكثير . ولقد تبين أن هذا المخطوط هو أول كتاب طبي مصرى عرفه العلماء ، وهو يتضمن جزءاً خاصاً بمعالجة الأراضي الباطنية وجدولًا مثيراً ، يعدد الكثير من العقاقير . كما أن بردية ايبرز هذه والتي يعود تاريخها إلى سنة ١٥٠٠ ق.م.^(٢) ، كما أنها تأتي أيضاً على ذكر مراجع في خارج أرض مصر . وكان التوافق الصريح بين ما ورد في المخطوطات الطبية وما جاء في مخطوطات الأعشاب في تلك الأزمنة القديمة ، أمراً مدهشأحثاً ، وكان بعضها مشتركاً بين المجموعتين المصرية والأ婢ورية ، أي ورد ذكره في الألواح الأشورية كما ورد ذكره أيضاً في بردية « ايبرز » .

والاليوم يمكننا القول ، ان الطب المصري كان موجوداً قبل ظهور أطباء اليونان الأوائل بالفقي عام ، وكان هنا الطب يقوم على أساس من المعرفة التجارب ، غير المرتبطة بالمعتقدات الدينية . وقد تبين أن وصفتين طيبتين ، من وصفات بردية ايبرز ، تعودان إلى مهد السلالة الملكية السادسة ، أي إلى ٤٤٠٠ عام قبل الميلاد .

□ في قصر فرعون أطباء وختصاصيون :

ونحن اليوم ، نعلم أن قصر فرعون ، في عصر الامبراطورية المصرية القديمة كان يضم هيئة من الأطباء ، بينهم اختصاصيون بأمراض الأسنان ، وختصاصيون بأمراض العيون . وبعد ذلك بحوالى النبي عام ، أي سنة ٤٥٠ ق.م ، قال المؤرخ الشهير هيرودوت « ان كل طبيب في مصر ، لا يداوي إلا مرضًا واحداً » .

□ في معهد ادفو ، مدرسة طيبة وبستان للنباتات الشافية :

وفي الحقبة ذاتها تقريباً ، انشأت في ميد ادفو - مدرسة طيبة ، وبستان لزرع النباتات الشافية . ومن جملة النباتات ، التي كان قدماه المصريين يكتنون من استعمالها نذكر :

La Cardamome	حب الهال	Le Genièvre	المرمر
Le Cumin	الكسون	La Caloquinte	العنظرل
L'aïl	الثوم	Le Grenadier	الجلثمار
La feuille de séné	ورقة السنامكي	La graine de lin	بذر كتان
Le lis	الزنبق	Le Fenouil	الشربة
Le ricin	الغسروع	L'érable	القيقب

وهناك نقش يازر بين آثار مصر القديمة ، يعود إلى مهد أختنون يمثل نباتاً طيباً لعب دوراً رئيسياً في مستور أدوية القرون الوسطى وهو نبات الماندراغورا (اللثاح) . وكان قدام المصريين ، يعرفون كذلك خصائص الشخاش المسكنة للألم ، والذي كانوا يستعملونه في تركيب « الدوام الخامس » بمعالجة الصراخ المديد ، غير الطبيعي » .

بعض المعالجات الشائعة في عصور ما قبل التاريخ

□ نباتات شافية ، ونباتات خبيثة ، ونباتات سامة :

كان البدائيون القدماء ، إلى جانب استعمالهم للأعشاب الطيبة ، يلجاؤن إلى صنوف المخدرات ، والمنسومات والمسكنات المستخلصة منها . فلقد تكثروا من الكحول البكر للخصائص النافحة للسموم ، ولخصائصها الميتة . أيضاً : عرقوا « الإببيكا كوانا » ، السم الأمازوني ، وذى الخاصة المقيضة ؛ كما عرفوا « الكورار » من السهام أيضاً ، الذي يميت بshell المضلات ، والذي أصبح في عصرنا الحاضر ، واحداً من أهم العقاقير المساعدة في فن التخدير والجراحة ، وعرفوا نبات الماندراغورا ، أو اللثاح ، (ويسمى أيضاً تقاض الجن) ، وهو مثل آخر نبات اشتهرت خصائصه المختلفة ، عند أقوام عديدة ، تفضلها عن بعضها المسافات الشاسعة . له جذور رئيسية وتدية ، ذات فروع يشبهان ساقى الإنسان ، ويعطيان النبات هذا شكل شخص من خشب .

قصص وأساطير

ان اكتشاف الانسان للخواص النافحة او الضارة التي تتصف بها النباتات ، له جذور قديمة وعبيدة . وهو بلا ريب ثمرة سلسلة طويلة من التجارب والاخطراء والتجربيات الاولية الغطرة لمصادر تلك النباتات .

في هذه التجربيات يلعب الدور الهام امران أساسيان :

الأولى : مراقبة الانسان لأثار التهام الحيوان لتلك النباتات .

الثانية : مراقبة تأثيرها على الانسان نفسه .

□ شجرة البن العربي :

مثال ذلك شجرة البن العربي البرية ، فلقد قيل ان بعض رجال الدين في الشرق القديم ، لاحظوا تأثير تلك الشجرة المتبه و المشط ، على الميولات العاشبة التي تقتات بها ، مما دعاهم الى التفكير باستعمالها والاستفادة من تأثيرها ، كي ينفعوا بالسهر الطويل وبحاله من اليقظة تساعدهم في ممارستهم لطقوسهم الدينية .

وفي أمريكا الجنوبية ، يروي السكان رواية محلية ، مقادها أن خواص نبات الكينا القوية للبدن ، والخاضعة للحرارة ، اكتشفها مصادفة رجل هندي، عندما شرب من ماء تجمع تحت احدى اشجار الكينا التي سقطت اوراقها منها ونقمت في ذلك الماء .

تقول رواية أخرى أن ملاحظة بعض الحيوانات التي تهاني من العجى ، والتي حالنها العط نقضت من لحاء شجرة الكينا ، أن تلك الملاحظة ساعدت في اكتشاف النافع الشافية لذك النبات . هذه الروايات عملت على ظهور هيكل مشترك للكثير من القصص الأسطورية التي تتعلق باكتشاف الغرام الطبيعة للنبات ، ذلك الاكتشاف الذي كثيرة ما كان يعزى إلى تدخل إلهي .

□ نبات الجنسيين :

ففي الصين هنري اكتشاف نبات الجنسيين (Panax Ginseng) إلى امرأة شابة عاقر هددتها رجلها بالطلاق ؛ وفي احدى الليالي ، بينما كانت غارقة في النوم ظهر لها في الحلم إله الممررين ، وتصحها بالذهاب إلى العقل ونبش جذور نبات الجنسن من باطن الأرض ، ومثلها كيف تصنع من تلك الجذور تقليما ، ففعلت ما أمره الله ثم شربت من التقطيع فحملت ثم ولدت ابنها ذكرًا . وان العقبة المدينة ، التي أعقبت انهيار الامبراطورية الرومانية والتي يسميه المؤرخون القرون الوسطى لم تكن عصر تطور علمي مريع ، لأن مجالات المعلم ، وال술 ، والشمعة اختلط بعضها ببعض ، وأخذت الناس ينظرون إلى عدد من العقاقير ، كالجوسكيام الأسود والبلادونا (السيدة العسنانة) ، والماندراخورا (اللقالح) ، على أنهما نباتات من منشأ شيطاني .

□ نبات الماندراخورا :

وفي القرون الوسطى ، كان الناس يعتقدون أن نبات الماندراخورا ، الذي يشبه شكل جذره شكل الإنسان ، يستمد قدرته من الله عن "وجل" ، كونه يعبأة في ذات الأرض التي كون فيها جسد آدم ؛ من أجل ذلك اعتبر الإنسان هذا النبات سيد كل النباتات . ولقد عزت الأساطير الشعبية ، إلى هذا النبات ، خصائص حيوانية ، فقالت إنه يزعم ويصبح ، إذا ما اقتلع من جذوره وقالت إن أي إنسان يسمع صياغه ، لا بد أن يصاب بالجنون؛ وقالت إن له تأثير السحر . وكان الاعتقاد السائد ، إن هذا النبات مقوٌ للشهوة الجنسية ويشفي من المقم .

وكان المصريون القدماء يعتقدون أن اللقالح هذا ، هبة خاصة ، وهيهم أياماً رع «إله الشمس» ، وهناك بين آثارهم ، نقش يارز ، من مهد أختهاتون، يمثل هذا النبات العجيب . وإذا ما رجمنا إلى كتاب المهد القديم (التوراة) ، وقرأنا ما جاء فيه، في سفر التكوير (الاسحاج الثلاثون رقم ۱۶) تبين لنا أن «راحيل» ، عندما طلبت إلى اختهاء ليثة ، أن تأتيها بنبات اللقالح هنا ، كانت تبني من وراء ذلك مبالغة عقها ، والقدرة على الانبباب، وكانت «راحيل» على جانب من الحكمة إذ أرادت من استعماله أن يساعدها أتنام الوضع أيضاً ، بخصائصه المتوفمة والمقدرة العجيبة .

وفي القرن الأول استعمل «ديستوريديس» هذا النبات ، كمخدر لإجراء العمليات الجراحية .

□ جان دارك الساحرة :

وهذا النبات يذكرنا بمساورة الفتاة الفرنسية جان دارك ، التي اهتمتها محكمة أكليريكيية بأنها ساحرة وبأنها حذلت الإنكليز باستخدامها القدرة الشيطانية والسعوية لجذور نبات الماندراخورا ، الذي كان مخبئ تحت درهما ، وحكموا عليها بالموت حرقاً .

□ كليوباترة والماندراغورا :

وفي روايته « أنطونيو ، وكليوباترة » ، أشاد شكسبير بالخصائص الم-tone لهذا النبات عندما أنشد على لسان كليوباترة ، التي قالت : « استواني من شراب الماندراغورا ، علئني أيام فاضي بذلك هذا الزمن الطويل ، الذي غاب فيه حبيبي أنطونيو وبعدها عنّي » .

وواقع الحال ، ان لكل شعب من الشعوب ، في كل مكان وعبر كل زمان ، منومات الخاصة كالأفيون ، والعشيش (من القنب الهندي) ، والكوكا ، وكثير غيرها ، كما أن هناك نباتات طيبة محلية تجد لها في أصقاع مختلفة من العالم^(٣) .

□ أهمية الجذور :

ونلاحظ هنا الأهمية الخامسة التي كثيراً ما تطبعى لجذور تلك النباتات ، لأنها تعتبر المقر المختار والمفضل لغواص النباتات السحرية أو الشافية . وكان الأقدمون يرون أن الجذور تشارك النصر الأرضي (التراب) ، وأنها تقع في السطح الفاصل بين الناصر ، بين ما هو حي منها ، وما هو ليس بعي ، مما أكسب الجذور قدرات مميزة .

ولقد عزا البعض ، الفضائل الشافية للنباتات إلى علاقات كونية ، تخيلوها بين عناصر الكون العية ، ومناصره غير العية .

وهكذا نجد أن التاريخ القديم للنباتات الشافية، مزيج من الاختبار والتخييل ومن المادة والتفكير؛ وهو تاريخ علم لا يمكن فصله عن تاريخ علم النباتات بشكل عام ؛ وإن علم النبات يقى زمناً طويلاً بين اخضاع الشفاعة (المداوين الشعبيين) ، والأطباء والمطارين مما . ومهما يكن من أمر ، فمن الخطأ الظن بأن القرون الوسطى فقدت كلها المعارف التي اكتسبتها خلال الآلاف الماضية من السنين .

□ الرهبان والمعارف القديمة :

فلقد احتفظ الرهبان ، بفضل معرفتهم اللتين اللاتينية والإفريقية ، احتفظوا بمعارف المصور القديمة ، وكانت أدبיהם تتغافر ببساطتها العامة بالأهشام الطيبة ، حيث كانت تنمو النباتات المستعملة في معالجة المرضى .

□ في مصر وآسيا الصغرى :

في مصر ، وفي آسيا الصغرى أنشأ الكتبة مجموعة معارف ، في مجالى الطب ، والمداواة بالأعشاب ، وكانت تلك المعارف متداولة بين البلدان المجاورة، انتشرت فيها ، وانتقلت من حضارة إلى حضارة .

□ في بلاد فارس :

ففي القرن الأول من عصرنا الحالي ظهر في بلاد فارس سفر « الونداهشن » الزردشتى ، وكان ما احتواه هذا السفر من بحث في الأهشام مستوحى من الدراسات البابلية .

□ في الهند :

و كانت الهند القديمة تحفظ بمعروفة واسعة و قديمة جداً في علم نباتات الشفاء ، وكانت مصادر الكتابات « القيدية » شهيرة ، و تعود إلى ما لا يقل عن الفي سنة قبل الميلاد ، و ان كتاب السرسوتا - سامهيتا ، الذي يعدد ٧٠٠ نبات طبي تم تأليفه في عهد غوتاما البوذا ، مؤسس المذهب البوذى ؛ أي في مطلع القرن السادس قبل الميلاد .

□ في الصين :

وفي الصين ، ظهرت في عام ٥٠٠ قبل الميلاد مخطوطة « بن تشاو » بسلسلتها الطويلة ؛ وفي عام ٦٥٩ ميلادي صدر دستور الأدوية الصيني ، وهو أول وثيقة من نوعها في العالم ، أهلن عنها بمرسوم امبراطوري .

□ في أمريكا الاستوائية :

وفي مصر ما قبل الكولومبي ، ظهرت في دول أمريكا الاستوائية دساتير للأدوية النباتية « علمية » . وفي العادات الملكية للنباتات الطبية ، التي اكتشفناها الفزاعة الإسبان في المكسيك ، في عهد قبائل الأزتيك ، عام ١٥٧٠ ميلادية ، قام الطبيب فرانسيسكو مارتينيز باستخدام عدد من تلك النباتات الطبية في معالجة المرض ، وقام بدراسة خصائصها و منهاها . وبعد الفزو الإسباني لقارة وجزء ، كتب عدد من الأمريكان الهند الذين اعتنقوا التصرانية ، كتاباً مخطوطة ومنها مخطوطة « مارتان دولاكروز » التي تعدد و تصف حوالي ٢٠٠ بحثة طبية .

ثورة في الهلال الخصيب

□ أول حضارة في التاريخ :

منذ أكثر من خمسة آلاف عام ق.م. ، يزفت على العالم شمس حضارة فريدة ومبدعة ، هي أول ما عرف في التاريخ من حضارة واسعة و شاملة و فذة ، هي حضارة الشرق الأدنى . من هذه الحضارة ، ومن شقيقتها حضارة مصر ، استمدت أوروبا وأمريكا ثقافتها على مدى القرون ، من طريق كريت ، واليونان والرومان . يقول دورانت أن الآرئين ، لم يشيدوا صرح الحضارة ، بل أخذوها عن بابل ومصر ، وان اليونان لم ينشئوا الحضارة انشاء ، لأن ما ورثوه منها أكثر مما ابتدعوه وكانوا الوارث المدلل والثالث الذي خر من العلم والفن مسى عليها أكثر من ثلاثة آلاف من السنين ، جاءت الى مدانهما مع مقام العرب والتاجرة .

ولقد كان من الطبيعي أن يرتکز الفرب في نهضته على أساس الحضارة اليونانية ، التي كانت أحد أجزاء المثلث الحضاري المتوسطي ، الهلال الخصيب ومصر واليونان . وكان الجزء اليوناني يغترن ، بالتفاعل ، بعض عناصر الحضارة القديمة ، لا كلها .

□ حضارة بذات تستعيد حقوقها :

ومن المفيد القول ، ان هالة القدسية التي كمل بها الغرب اليونان وروما ، بدأت تزول من المقول ؛ وأخذت منطقة الشرق الأدنى ، وقلبهما النابض الملاك الخصيب ، تستميد حقوقها المضاربة على يد بعض قضاة الفكر الإنساني المادلين . يقول ديورانت أيضاً ، فإذا ما درسنا الشرق الأدنى ، وعظمنا شأنه ، فأننا إنما نعرف بما علينا من دين لن شادوا بحق صرح الحضارة الأوروبية والأمريكية ، وهو دين كان يجب أن يُؤودي من زمن بعيد * .

□ الهلال الغصيبي دائرة التقاء قاري حضاري :

ولنعد الى البداية فهلال الشرق الادنى ، الخصيـب ، يمسك قارات ثلاث يمد اليها شرايين الحضارة ويفاعلها ؛ ومن حوله المواجز المائية من المتوسط الى البحر الاحمر الى الخليج العربي ، يغترقها بابداعه ، ويعوّلها الى مسارات اتصال وتفاعل ، محققا بذلك حالمًا متعمضيا رائدا .

هذا الملال الغصيб ، يشكل نقطة جذب ، ودائرة التقام قاري هائل . وهو من اجيابي ومسرح للصدامات التاريخية ، تتجاذب اليه ، مشدودة « بسحره الشرقي الثلاب » ، النزوحات البشرية المتقطعة الى التحضر والمران ، كاتئنال عليه القطمأن البشرية ، كالجوارح ، بهدف الترسّم والمدون .

نـشـاة الزـرـاعـة ، وـالـتـجـارـة ، وـالـصـنـاعـة ، وـالـشـرـائـع ، وـالـعـرـفـ الـمـكـتـوبـ :

على أرض هذا الهلال ، وعلى أرض مصر المجاورة له ، على هذا المسرح العنصاري الأهل بالسكان ، والذى بالثقافات المختلفة ، نشأت الزراعة ، والتجارة ، والغيل ، وعلىه أيضاً نشأت الصناعات والثروات والحكومات ، وعلوم الرياضة ، والطب ، والهندسة ، والفلك ، وهندسة البناء ، وأقنية الري ، والتقويم ، والساعات ، وصدرت دائرة البروج ، وعرفت العروض الهجائية ، والكتابة ، وانتشر العبر والورق ، وكبّلت الكتب ، وشيدت المدارس والمكتبات ، ونشأت الأداب والموسيقا والفنون ، وصنع الخزف المطلي المصقول ، والأثاث الجميل : كما نشأت مقيدة التوحيد ، ووحدة الزواج ، واستخدمت العلى ، وأدهان التجميل ، واستخدمت الرضمات ، وشربت الغور ، وولدت الألهة ، والأساطير .

□ حضارة استمد منها الغرب ثقافته :

على هذا المسرح الحضاري عرفت هذه الأشياء كلها ومنه انتشرت ، وتوزعت على العالم القديم بأسره ، عين السفن والعرب ، والعرف المكتوب . ومن هذه الأشياء كلها استمد الفرب ثقافته على، مدى القرون .

وانه بفضل موقعه الجغرافي الفريد ، في قلب العالم القديم ، وبفضل امتياز بيته ، ومزايا مجتمعه الثقافية ، والمعارنية ، والمسكرية المتغوفة، كان الهلال الخصيب ، يشكل النصبة الحضارية المشتركة على العالم العربي ، وعلى العالم القديم المعروف آنذاك .

□ احداث ملأت الدنيا :

من ممالك سومر ، الى دولة سرجون الآكادي ، الى دولة حمورابي ، الى دولة الاشوريين ، الى الامبراطورية الفينيقية (الكنعانية) ، الى الدولة البابلية الجديدة ، الى الدولة الاموية ، فالدولة العباسية ، نرى الاحداث تملأ الدنيا .

وأن من يتأمل المراحل المصرية المستمرة ، في أرض الهلال الخصيب ، منذ أكثر من خمسة آلاف سنة، ليجرب كيف يمكن هذا المجتمع الحضاري من أن يستهلك كل الأحداث الجامحة والمدمرة ، التي تالت على أرضه وبقي حياً وخلقاً، ومتعدداً، يفتدي العالم باعظام ما في تراثه من قيم وفضائل ونماهيم إنسانية راقية ورفيعة .

□ تحولات تاريخية في حياة الإنسان :

اذن في هذا الهلال الخصيب وفي البلدان المجاورة له تفجرت ثورة عظيمة حين طرأ على حياة الانسان تحولات تاريخية تقنية واقتصادية واجتماعية، في منطقة الشرق الاذني؛ وكانت اوربا القديمة وخاصة منها اوربا الشرق متوضعة ، أولى من أفاد من نتائج تلك الثورة بسبب قريبتها من آسيا الصغرى .

□ ظهور مدرسة الفلسفة وعلماء الطبيعة :

وفي القسم الآيوني من البحر الأبيض المتوسط لعب تبادل المعرفة المرتكزة على قاعدة من الخبرة الشعبية بالبياتات الشافية ، لعب دوراً بالغ الأهمية . وفي غضون الالف الأول قبل الميلاد، خلقت التحولات الاقتصادية والاجتماعية وما تبعها من تقدم تقني ، خلقت حركة فكرية قوية ظهرت بعدها مدرسة الفلسفة وعلماء الطبيعة الآيونيين ، الذين اذن تساوؤلتهم المقلانية عن الطبيعة وغاياتها وظواهرها الى ارسام أنسس « التاريخ الطبيعي » الذي ظهر فيما بعد .

□ أبحاث ارسطو :

فاراستو، ذو الفكر الكوني، بحث في التاريخ الطبيعي كما يبحث في علم النبات . وفي كنيد ، وكوس ، وفي المستعمرات الاغريقية في جنوب ايطاليا ، نشأت مدارس طبية ، وظهرت نظرية الـ « ايزونوميا » التي تقول بأن الصحة الجيدة ترجع إلى التوازن بين العار والبارد ؛ وصنفوا الأدوية والأغذية فيما بعد إلى حارة وباردة .

□ مجموعة أبو قراتط :

وبذلك بدأت تتكون مجموعة المعارف الطبية التي نسبت إلى « أبو قراتط (مدينة كوس) (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) ». وفي هذه المجموعة ورد ذكر ٢٣٠ نباتاً من نباتات الشفاء ؛ وورد فيها ، لكل داء من الأدواء ، وصف لدواء نباتي خاص به . ولقد هيمنت هذه المجموعة زمناً طويلاً على الطب الأورباني .

□ ديوكليس ، كراتيروس وديسقوريدس :

وفي القرن الثالث قبل الميلاد قام الطبيب الإغريقي « ديوكليس دوكارستوس » بتصنيف مصادر العشائش الأغريقية . وبعد ذلك بقرنين ، جاء أغريقي آخر يدعى « كراتيروس » ليكمل تصنيف « ديوكليس » . ولقد أفاد من هذا التصنيف مؤلفان من علماء القرن الأول ميلادي وهما « بين القديم » صاحب كتاب « التاريخ الطبيعي » ، والطبيب الأغريقي ديسقوريدس مؤلف كتاب المادة الطبية : « Materia Medica » . وفي هذا الكتاب عدد ديسقوريدس أكثر من ٥٠٠ عقار ، من منشأ نباتي أو معدني أو حيواني .

□ جالينوس :

وفي القرن الثاني ميلادي ، أتى طبيب إغريقي آخر ، يدعى جالينوس ، الذي درس الطب في مدرسة مهد إيسكولاب في بيرغام ، فدوّن مجموعه تضم كل هذه المعارف العلمية في فن الشفاء ، ذكر فيها أكثر من ٤٥٠ نوعاً من النباتات الطبية ؛ وكان يؤكد على ضرورة أن يكون كل طبيب مزوداً بمعرفة قوية عن النباتات والأعشاب . ولقد استمرت تعاليمه الطبية ، شأنها في ذلك شأن تعاليم أبقراط ، استمرت مهيمنة زمناً طويلاً ! والقرن اسمه بما يسمى حتى اليوم ، يعلم الصيدلة الفالينية ، التي يوجّبها ، تقوم المواد الحالة ، كالكتل والسائل والغل ، بكتيف العوامر المؤثرة للعقار ، تلك العوامر التي تستعمل في تحضير ، المراهم ، والبلعات ، وغير ذلك من الأشكال الفالينية .

□ في روما :

وكان اسهام روما في تطوير المعارف الطبية ، ضعيفاً ، وذلك لأنها كانت تعتمد على المعارف الملاجية الآتية من الخارج ولا سيما ، الأغريقية والمصرية . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كانت الكنيسة عائقاً بين الباحثين ، وبين الدراسات المستندة إلى المقل والتجربة . وهكذا بقيت أوروبا طويلاً غارقة في التكرار الممل للأراء ، بعضها صحيح وبعضها الآخر غير صحيح، وردت في مؤلفات أساتذة الطب والداواة بالأعشاب الأقدمين .

□ في الشرق الأدنى :

اما الشرق الأدنى ، فكانت تسود فيه روح الاستقلال من جهة ، وسمى التجار السوريين سيناً حيثما الى المعرفة من جهة ثانية ، مما ساعد ، في القرنين الرابع والخامس للميلاد ، على بirth الاهتمام بالنهج العلمي الأغريقي . وامتدت العركة العلمية هذه الى بلاد فارس .

□ دور العلماء السوريين :

وبفضل العلماء السوريين ، تم في مدرسة « جندي ساپور » تبادل وتفاعل الأراء والآفاق والملاجية الأغريقية والفارسية والهندية ، وقام الخلفاء العباسيون باعتماد العلماء النساطرة الى بغداد ؛ وهكذا استطاع الطبع العربي أن ينهي المعرفة الطبية والمعرفة الملاجية من متبايع مختلفة ، وأن يفتح تلك المعارف بكتشافاته الخاصة به .

□ ابن سينا :

وفي القرن العاشر للميلاد ذكر ابن سينا ٦٥٠ نباتا طبيا ، وفي هذا زيادة ملحوظة اذا ما قورن بمجموعتي « ديسقوريدس ، وجالينوس » .

□ مدرسة سالرנו :

كانت تجارة الأعشاب الطبية تمارس في الغالب من الأحيان ، في الأديرة المجهزة ببساتين خاصة بتلك الأعشاب وبمكتبات غنية بوثائقها الطبية القديمة ، التي كانت تتسع مرات ومرات من قبل رهبان متخصصين . وكان دير « مونت كاسان » الواقع بين روما ونابولي ، أحد أديرة القرون الوسطى الكثيرة والفنية بوثائق الطبية ووثائق المداواة بالأعشاب . وأهمية هذا الدير هي أنه كان على علاقات وثيقة مع المدرسة الطبية التي أنشأت في مدينة « سالرنو » في القرن التاسع الميلادي . وكانت تلك العلاقات استثناءً رائعاً ، في زمن كانت العلوم الطبية في أوروبا تعاني من الركود . وهناك أسطورة (رواية) تقول ان مدرسة (سالرن) الطبية ، تضاقت من أجل اشتهاها جهود أطباء أربعة : يوناني ، وعربي ، ويهودي ، وسالري . ولقد بقيت تلك المدرسة طليقة ثلاثة قرون ، مركزاً هاماً لتطور الطب وتقدمه .

□ الكنيسة ، المرض عقاب من الله :

وفي القرون الوسطى كان الاعتقاد الذي فرضته الكنيسة ، بأن المرض عقاب من الله ، عائقاً كبيراً أمام تقدم المعرفة الطبية . ومع كل هذا كان هناك تجديد في بعض الإرتجام ، ولا سيما في مدينة سالرنو .

□ أبعاث ابن سينا وابن زهر وابن البيطار :

وعلماء مدرسة سالرنو هذه ، هم الذين أفادوا من أبعاث علماء العرب أمثال ابن سينا ، وابن زهر ، وابن البيطار ، وعرفوا الترب بموقعتهم ، وبالعديد من مؤلفات أطباء اليونان . وكانوا يكتبون أبعاثاً في الطب رصينة ومبينة على المقل والتجربة ، دونت بمعناية وبلغة سهلة ؛ مثل ذلك كتاب « سيركا أنتستاس » ، الذي ظهر عام ١٦٥٠ م، ويدرك ٢٢٩ علاجاً نباتياً ، بينها علاجات مستجدة ، أخذت عن الطب العربي ، ذلك الطب الذي دخل إسبانيا مع الفتح العربي وازدهر فيها . وفي القرن الثالث عشر أدخل ابن البيطار الطبيب العربي (المالطي) ٢٠٠ نبات على لائحة « العقاقير الطبية » .

□ مدرسة مونبيلية وعلاقاتها مع الشرق والأندلس :

وفي مراحل لاحقة بدأت المعارف الطبية المستقاة من الكتب ، تترجم أقسامها ، وأخذت تيار الملاحظة ، والاختبار ، والإبداع ، الذي شقت له الطريق مدرسة سالرين الطبية، أخذ يشتد ويقوى . ومنذ القرن العاشر ، سارت مدرسة مونبيلية الطبية على هذا النهج ، فاكتسبت بذلك شهرة واسعة . وأنه يفضل العلاقات التجارية التي كانت مدينة مونبيلية تقيمها مع الشرق من جهة ومع الأندلس العربية من جهة أخرى ، أفادت من علم الكيمياء العربي الذي كان وراء التطور والتقدم الرائعين فيعلوم الطبية .

ثم ظهرت في أوروبا صورة العالم السويسري المشهورة « باراميلن » (١٤٩٣ - ١٥٤١) الذي استخدم على نطاق واسع عملية التقطير للدخول إلى روح وخلاصة الأدوية النباتية .

□ نباتات تحمل دلائلها :

وفي مطلع عصر النهضة انتشرت نظرية الأعشاب ذوات « الامضاءات » أو ذوات « الدلائل » تقول أن النباتات الشافية تحمل بارادة من الله هز ، وجل ، اشارات ، وعلامات ترشد الإنسان إلى فضائلها ومتانتها الملاجية ، فالبوز مثلاً الذي يذكرنا شكله وتلقيفه بشكل وتلقيف دماغ الإنسان ، ينفع في معالجة الأضطرابات العقلية ، والنباتات ذات الزثير أو تلك التي لجدها أو جذورها شكل الشعر ، تفييد في مداواة سقوط الأشعار .

□ اكتشاف الطباعة اسمه في انتشار علم النباتات الطبية :

وفي القرن الخامس عشر ، ساعد اكتشاف الطباعة على الانتشار المتزايد لعلم الأعشاب الطبية ، كما ساهم اكتشاف العالم الجديد على انتشار مفاهيم نباتية جديدة ، كالكتينا وعرف الذهب (خشب الأنبياء) ، وغيرها . وهكذا تضافرت الاكتشافات ، والتعريفات والاتصالات البشرية ، وعملت على زيادة مخزون المواد الأولية ، ذات النشا النباتي ، زيادة كبيرة . وأخذت تظهر فيما بعد ، قواعد علمية متخصصة ، لدفع عملية دراسة الطبيعة ، من حيث أوجهها المختلفة وغاياتها ، وظواهرها .

تجارة التوابيل والمستحضرات الطبية

في بلاد الشام

□ الأغريق والرومان والفرس ، وتوابيل الشرق وعطوره :

لتجارة التوابيل والمنتجات الطبية ، في بلاد الشام ، تاريخ قديم ، فمنذ أن أدت فتوحات الإسكندر الكبير ، إلى اتصال شعوب الغرب بأراضي بلاد الشرق ، أصبحت المنتجات الآتية من تلك البلدان البعيدة ، من مستلزمات الحياة عند الأغريق والرومان ، إذ كان هؤلاء يضيفون التوابيل إلى أطعમتهم ، ليجتنبوا من مذاقها ، كما أنهما كانوا يتعمرون ، وببالغون في استعمال العطور ، لذلك كان استيراد التوابيل والعلطور ، يمثل واحداً من أكبر اهتمامات التجارة في ذلك الزمان .

ونحن نعلم ، أن الفرس ، في عهدبني ساسان ، كانوا أكثر الشعوب شفقاً بمنتجات الشرق . كما أن جيش بيزنطة ، الذي كان يقوده هرقل ، عندما دحر الفرس الساسانيين ، واستولى على أحد قصورهم ، (قصر الداستاجرد) ، عام ٦٢٧، وجد في هذا القصر كنيات كبيرة من العرير ، والتوابيل ، ومنها ، الثلقل ، والتنجيل ، والمصبرة ، والعنبر ، وأغلاجون (عود اللند) الخ . . . مستوردة من الهند ، وكذلك العرب عندما استولوا على Ctesiphon (المدائن) ، عاصمة ملوكبني ساسان ، فنموا المسك ، والعنبر ، والكافور ، وخشب السنديلا .

□ الطرق البحرية :

وكانت هذه البصائر تصل الى موانئ البحر الابيض المتوسط ، والى موانئ البحر الاسود عبر طرق اتبعت منذ القدم ، إما من طريق البحر الاحمر ، وال الخليج العربي ، او من طريق آسيا الوسطى ؛ وان الطريق البحرية المؤدية الى الخليج العربي ، تهمنا بشكل خاص ، لأنها في القرنين الوسطى ، وحتى القرن التاسع عشر ، كانت تساعد على تدفق المنتجات الأجنبية على سوريا ، القديمة .

□ والنهيرية والبرية :

فمن البصرة وينداد ، كانت هذه الطريق تسهل مساعدة في مجرى الفرات الصالح للملاحة ، تحفتها على طول الشاطئ طريق ثانية للقوافل .

□ مدينة الرقة وتجارة العرير :

وعلى هذه الطريق يذكر الجغرافيون العرب مעתظين هامتين الرقة وبالس (سكنة) . أولى هاتين المدينتين (والتي سماها الرومان كاللينيكوم) ، كانت أحد المراكز الحدودية التي يؤمها لشراء العرير من الفرس ؟ ولقد عرفت ، في مهد العباسيين ، عصراً من الأزدهار ، بفضل العلاقات التي كانت تقيها مع دمشق والموصل وديار بكر .

□ مدينة بالس :

وعلى مسيرة يومين من الرقة ، تقع (بالس) والتي سماها أحد الجغرافيون « مرفا السوريين » بدليل أن السوريين ، كانوا في القرن العاشر ، ينطلقون بتجارتهم من هذا المركز . وعلى مسيرة يومين الى الغرب من (بالس) ، تقع مدينة حلب ، المركز التجاري الكبير، للشمال السوري ، وبواحة انطاكية، واليها يتوجه التجار .

□ حلب وانطاكية :

وقبل الحملات الصليبية ، كانت التجارة بين حلب وأنطاكية ، نشطة ومزدهرة .

□ اتفاق تجاري بين بزنطية وامير حلب :

كما يؤكد كمال الدين ، مؤرخ حلب ، الذي يذكر نصوص اتفاق تجاري تمَّ بين البزنطيين ، اسياد انطاكية آنذاك ، وبين أمير حلب ، اتفاق يضم من وسلامة التوافل التي بين المدينتين . ومن جملة الامتناف الوارد ذكرها في ذلك الاتفاق، نجد التوابيل .

□ تجار البنديقية وبينا وجنو وتجارة التوابيل والعرير والبروكار :

وبعد تأسيس دولات الصليبيين ، وبعد من القرن الثالث عشر ، أخذ تجار البنديقية وبينا ، وجنو ، يندون الى الشرق ، للاتجاه بالاقدسية العربية ، والتوابيل ، وأقمشة البروكار الذهبية .

وكان البيزنطيون المترکزون آنذاك ٠٠٠ في أنطاكية حوالي العام ١٢٠٠ ، يقيمون تجاراتهم داخل البلاد ، وكانوا يصلون بها حتى حلب . وفي العقبة ذاتها ، كان البدقينون ، يبرمون اتفاقيات تجارية مختلفة ، مع أمير حلب .

□ الظاهر يعني للبدقين فندقا وحماماما وكنيسة :

في عام ١٢٠٨ ، بني غياث الدين الظاهر ابن صلاح الدين ، بني للبدقينين ، في حلب ، فندقا (Fondaco) ، وحماماما ، وكنيسة : ومنهم امتيازات جمركية هامة .

□ مكانة حلب التجارية :

وفي العهد الشهاني ، احتفظت حلب بمكانة تجارية مرموقة ؛ وانتا نملك وسنا ، ذكره في القرن الثامن عشر ، الرحالة « راسيل » للدور الهام ، الذي شهد بنفسه ، والذي تلمبه في حلب التجارجة بالمنتجات الواردة من الهند .

يقول راسيل : « التجار كثي في حلب . بعضهم سافر ، وهو في سن الشباب ، حتى وصل بغداد ، أو البصرة ، وأحياناً الهند . وفي سن متقدمة ، كانوا يرافقون من وقت لآخر ، القوافل التي تحمل بضائعها إلى العاصمة استنبول . ويقول رحالة آخر ، هو « فولتي » : من حلب ، تنطلق القوافل إلى بغداد ، والبصرة ، وإلى يlad فارس ، وهي على اتصال أيضاً بمصر ، عن طريق دمشق . وبأوروبا ، عن طريق اسكندرية ، واللاذقية » .

ومن جملة المنتجات الطبيعية هذه ، والتي كانوا قد يbring ، يطلقون عليها اسماء عاماً هو « التوابيل » ، يحسن بنا ، إن نذكر :

Cannelle	القرفة	Aloès	الصبرة
L'indigo	النيلة	L'ambre	العنبر
Musc	المسك	Le bois de Santal	خشب السنديان
Alun	الشبة	Clous de Girofle	القرنفل
Câmpyre	الكافور	Oliban	اللبان
Cardamome	البيجل	Galanga	الغولنجان
Le benjoin	البغور	Gingembre	الزنجبيل
Poivre	النفل	Le Baume	البلسم

□ بلاد الشام لم تزل سوقاً هاماً للتوابيل والأعشاب الطيبة :

واذا كانت التبدلات الجغرافية والسياسية التي حدثت في القرن العشرين قد هزلت مدن بلاد الشام ، عن طريق التسويف التقليدية تلك ، التي كانت تؤمن التوابيل ، والأعشاب الطيبة ، عبر الخليج العربي ، الا أنها لم تزل تعتبر ، السوق الهامة ، لهذا النوع من المنتجات ، التي يستعملها البعض في مجال العلمي ، ويستعملها البعض الآخر ، في مجال الطب التقليدي .

النباتات التي أدخلها العرب إلى أوروبا

عندما حظت الإمبراطورية العربية ، واتسعت رقعتها ، فامتدت من المحيط الهندي إلى المحيط الأطلسي ، أمكن للمرء أن يلمسوا دوراً هاماً في نقل عناصر الحضارة المادية والثقافية إلى أوروبا ، المجاورة لأحد أطراف تلك الإمبراطورية . ولقد أضاف العرب إلى عناصر تلك الحضارة ، المستقاة من معارف يونانية ومتدية وفارسية ، أضافوا عناصر عربية صرفة ابتدعوها علماؤهم ، فأغنوا بها حضارة الغرب .

وعلى الصعيد المادي ، هناك جانب حضاري هام ، قلّما عرفه الناس ، يتصل بعملية ادخال العرب للنباتات الفدائية إلى أوروبا ، فلقد قاما ، في بعض بلدان أوروبا ، بعملية « أكلمة » لنباتات جديدة ، لم يكن الأوروبيون يعرفونها من قبل ، مثل نبات الأرز : كما انهم أعادوا ادخال نباتات أخرى ، سبق لقدماء الأوروبيين أن عرفوها ، ولكن زراعتها أهملت ، ولكن زراعتها أهملت ، فتختلفت ، ثم تلاشت كلية ، وذلك عقب انهيار الإمبراطورية الرومانية .

ويذكر المؤرخون أن النباتات التي ظهرت في أوروبا ، في أعقاب الفتح العربي لها ، والنباتات الأخرى التي عادت إلى الظهور ، ادخل العرب بعضها إلى جزيرة صقلية ، مثل الفستق الحلبي ، والبرتقال ، والليمون ، والتمر ، والتوت ، والسماق ، وقصب السكر ، والبردي ، والقطن ؛ وأدخلوا البعض الآخر إلى إسبانيا ، مثل الأرز ، والخرشوف ، وقصب السكر ، والخروب البري ، والمشمش ، والموز ، والقطن ، والتمر ، والزعفران :

١ - شجرة الفستق : Le Pistachier

أدخلها العرب إلى أوروبا عن طريق جزيرة صقلية .

٢ - البرتقال العلو : L'Orange douce

ربما كان الرومان قد عرّفوه ؟ ولقد تمت أكلمته في شبه جزيرة إيبيريا من قبل العرب ، في القرن الرابع عشر .

٣ - البرتقال المر : L'Orange amère

البرتقال المر ، أو النارنج ، تمت أكلمته في جزيرة صقلية ، في فترة الحكم العربي . ولقد تم ذلك ، على وجه التحديد ، عام ١٠٠٢ م .

٤ - شجرة الليمون : Le Citronnier

نقلها العرب إلى صقلية ، واحد أسنانها « ومنه لفظة الليمونادا » ، مشتق من الكلمة العربية ليمون .

٥ - شجرة النخيل ، التمر : Le Palmier-datier

إن وجود شجرة النخيل التمر في إسبانيا وجزيرتي صقلية وساردينيا يعود الفضل فيه إلى العرب .

٦ - شجرة التوت : Le Mûrier

ان زراعة التوت ترتبط بصناعة العرير . ولقد نقل العرب هذه الشجرة الى جزيرة مقلية .

٧ - شجرة السماق : Le Sumac

ان الكلمة الأجنبية أخذت من الكلمة العربية ، السماق : وشجرة السماق فنية بعادة البعض : ويستعمل مسحوق أوراقها وثمارها المجففة ، في الدباغة والصباغة ؛ كما يستخرج منها أيضاً البرنيق ، وصبغ الملك .

٨ - قصب السكر : La Canne à sucre

ادخله العرب الى جزيرة مقلية والى اسبانيا ثم تراجعت زراعته بعد انتهاء الحكم العربي .

٩ - البردي : Le Papyrus

ينمو نبات البردي في جزيرة مقلية ، وقد يكون العرب هم الذين أدخلوا زراعته الى تلك الجزيرة .

١٠ - نبات الغُرشُوف : L'Artichaut

العرب هم الذين أدخلوا زراعته الى اسبانيا .

١١ - شجرة الغَرْبَوب (او الغَرْبَوب) الْبَرِي : Le Caroubier

تزرع شجرة الغرّوب في الشرق ، وفي قوريينة Cyrénaique ، وهو الاسم القديم للشمال الشرقي من ارض ليبيا .

١٢ - شجرة المشمش : L'abricotier

وكلمة Abricot ، اشتقتها الفرنجة من الكلمة العربية البرقوق Barquq al : ولقد أدخل العرب شجرة المشمش الى حوض المتوسط في مطلع هذا القرن .

١٣ - شجرة الموز : Le Bananier

والاسم العلمي الفرنسي Musa ، مشتق من العربية . وأغلبظن ، ان العرب هم الذين أدخلوه الى اسبانيا .

١٤ - الزعفران : Le Safran

عرفه الرومان ، واسمه العلمي سافرانوم مشتق من الكلمة الفارسية : زعفر . يزرع من أجل ازهاره ، ومنها يستخرج صبغ أصفر ، ويصلح الزعفران لتوجة بعض الأطعمة ، ويعتقد أن العرب هم الذين أدخلوه الى اسبانيا .

١٥- الأرض ، الأرز ، الرز : Le Riz

ربما كان الأرز ، النبات الأكثر أهمية من بين النباتات التي أقلمها العرب في أوروبا . ولقد كان العالم القديم يعرف الأرز ، بفضل علاقاته التجارية مع الشرق . ولقد وصف ديودور ملك سقليا ، المعاصر لأوقيانوس امبراطور الرومان ، وصف الأرز وصفاً نقله من القادة الذين رافقوا حملة الإسكندر الكبير إلى الشرق . وفي عهد الإمبراطورية الرومانية كان الأرز يستورد من حوض المتوسط ، ولا يزرع . وانه لن المرجح أن انتشاره في حوض المتوسط بدأ من دلتا النيل ، التي أدخل العرب إليها زراعته ، ومن هناك نقلوها إلى إسبانيا . وإن الاسم الإسباني Arroz يأتي من العربية . وكلمة الأرز مشتقة أصلاً من اللغة السنسكريتية . وأما الإيطاليون ، فلقد عرفوا زراعة الأرز في القرن الخامس عشر ، حيث زرع في حقول قرب مدينة بيزا في عام ١٤٦٨ ، ويبعد ان زراعته هذه انتشرت في شبه الجزيرة ، أتية من إسبانيا لا من صقلية .

١٦- شجرة القطن : Le cotonier

إن الكلمة Coton ، الفرنسية ، مشتقة من الكلمة العربية قطن . والقطن واحد من النباتات التي كان للعرب الدور الهام في انتشارها في أوروبا . ولا يعلم بعد ، كم هي أنواع شجيرة القطن ، التي كانت تنمو نمواً غفرياً . وهناك أنواع عدّة تزرع منها نوع يسمى القطن العربي ، واسمه العلمي القطن المشبّي Gossypium herbaceum أو قطن الشرق ، وينمو في غرب آسيا ، وفي حوض المتوسط ، حيث نشر العرب زراعته فيه .

والحقيقة أن زراعة القطن واستعماله ، يعودان إلى أزمان بعيدة جداً . ولقد انتشرتا في أماكن مختلفة من العالم ، مستقلتين بعضها عن البعض الآخر . مثل ذلك ما اكتشفه الأوروبيون ، عندما عبر الأوروبيون الأطلسي ، اكتشفوا أن القطن كان يزرع في أمريكا الوسطى ، وفي أمريكا الجنوبية . وفي العالم القديم ، يبدو أن زراعة القطن تمت ، أول ما تمت ، في الهند ، قبل غيرها من البلدان . ولقد أدخل العرب زراعة القطن إلى جزيرة صقلية في القرن التاسع .

ومن المفيد أن نذكر هنا أن العرب في الجاهلية ، عرّفوا القطن ، وكانت يسمونه الطوط ، زرعوه ولبسوه . فلقد جاء في شعر أمية بن أبي الصلت المنزي ، الشفقي ، الإيادي ، وهو شاعر نصري ، أدرك الإسلام !، جاء في شعر له من قصيدة ، ضاع مطلعها ، وعدده من أبياتها ، فلم يبق منها إلا أبيات متفرقات ، تبرز فكرة الشاعر في الأرض ٠٠٠ قال ، والضمير في « فيها » من الشطر الأول للأرض :

والطوط نزرعه فيها ، فلبسه
هي القراد فما نفي لها بدلًا
ما أرحم الأرض ، الا انشنا كنثر
منها خلقنا ، وكانت امنا ، خلقت
والصوف نجتذه ما ادفا الوبير

١٧- العرير (خيط دودة القز) : La Soie

ويرتبط انتاجه بانتشار زراعة شجرة التوت . أتى به البيزنطيون من الصين . أما العرب ، فلقد أدخلوا صناعة العرير إلى إسبانيا في القرن العادي عشر ، وأما الملك روجيه ، ملك صقلية ،

فهو الذي اتى بذلك الصناعة ، من اليونان الى جزيرته عام ١١٤٨ . ومن صنقلية انتقلت صناعة الحرير الى مدينة البندقية ، التي سيطرت بها فيما بعد على الأسواق الاوربية .

ومن المفيد أخيراً ، القول ان اللغات الثلاثة: الفرنسية والاسبانية والايطالية اقتبست من اللغة العربية العديد من أسماء النباتات التي ادخلتها العرب الى اوروبا ونذكر منها على سبيل المثال :

١ - الزعفران ، واسمه :

Zafferano وبالفرنسية Safran وبالايطالية Azafran وبالاسبانية

٢ - المشمش ، واسمه :

Albicocca وبالفرنسية Abricot وبالايطالية Albaricoque وبالاسبانية

٣ - الغروب ، واسمه :

Carrubo وبالفرنسية Caroube وبالايطالية Algarroba وبالاسبانية

٤ - الليمون ، واسمه :

Limone وبالفرنسية Limón وبالايطالية (Citron) Limon وبالاسبانية

٥ - القطن ، واسمه :

Cotone وبالفرنسية Coton وبالايطالية Algodón وبالاسبانية

٦ - الغرشوف ، واسمه :

Carcifo وبالفرنسية Artichaut وبالايطالية Alcachofa وبالاسبانية

علم النبات العربي وعلماؤه

لقد برع العرب في دراسة النبات ، وفي التأليف فيه ، وأخذوا هذا العلم ، في عهد النهضة العباسية ، من كتب الهند ، ومن مؤلفات الطبيب اليوناني ديسقوريدس^(٤) . وفي عهد النهضة تلك ازدهرت وتالتقى العلوم والأداب والفنون ، وعاشت بفداء عصرها الذهبى . ثم جاء خطير المفول منذ أوائل القرن السابع للهجرة ، ليعدق بالخلافة العباسية ويتهددها . فلقد غزا المغول أرض فارس بقيادة جنكيز خان ، واستولوا على بغداد وسرقند وبلغ ، حوالي عام ٦١٦-٦١٧ م ١٢٢٠ م : ثم أخذت نوایاهم تتجه نحو غزو العراق ، الذي اجتاحته جيوشهم ، بعد معارك مختلفة ، مرت بين كر وفر ، الى أن بلغوا تغوم ببغداد ، عام ٦٣٥ م / ١٢٣٧ م ، ليحاصروها ويضربوها بالمناجيق . فكان أن سقطت بغداد عام ٦٥٦ م / ١٢٥٨ م وعاشت العراق آئذ أحلك أيامها ، وكان ذلك ايذاناً بانهيار الخلافة العباسية .

في تلك العقبة ، من التاريخ العربي ، أخذت حالة العلم ، والعلماء ، هي أيضاً تعيش أحلك أوقاتها: وأخذت شعلة الحضارة العربية والإسلامية تتصف بها رياح العروب والانتسارات ، الى ان خبت مع استيلاء المفول على بغداد .

اما في الأندلس فان العركتين العلمية والأدبية ، كانتا في أوج الازدهار والتقدم ، منذ بدء العدم العربي ، الاسلامي فيها ، وخاصة في أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الاموي ، وبن هابن العركتين ، سرعاً ما اصايهما الضف ، مع تعاقب حكم الدول على الأندلس ، الى ان سمعت في ايديه العرسج عام ٨٦٢ هـ / ١٤٦٢ م .

قلنا ان العرب اخذوا علم النبات ، في مهد النهضة العباسية من كتب الهند ، ومن مؤلفات الطبيب اليوناني ديسقوريدس . فمن قصور العباسيين في بغداد ، سيرت الرسل موتين ، الى مدينة جندىسابور ، وذلك لاستقادام جورجيوس بن جبرائيل ، رئيس اطباء مدرسة الطب الشهيرة هناك والمعروفة بالمدرسة الساسانية ، لي تعالج الخليفة ابي جعفر المنصور ، وليحل هو ، ومن بعده ابنته جبرائيل ، في قصور الخلفاء في بغداد مدينة السلام . ومع ال يختيشو انتقال التراث الاغريقي ، الذي حفظ في مدينة جندى سابور ، كما جام معهم الطبيب الهندي « منته » ، ومواطنه صالح بن بهلة ، الذي انقذ ابن هرم التخلية هرون الرشيد من براثن الموت . وبواسطة « ابن بهلة » دخلت كتب الطب الهندي الى قصور الخلفاء .

وكان اعظم اسمين في الطب الهندي هما « موشوروتا » في القرن الخامس قبل الميلاد ، و « شاراكا » في القرن الثاني ميلادي . وكانت كتب الهند ، وأهمها موسوعتا « موشوروتا » و « شاراكا » ، مصدر العرب الاول في المقاير ، ولقد امتاز قدماء الهنود ، بمعرفة العشائش وبرعوا في استخراج خواصها ، وانشروا بمعرفة اثارها في الابدان .

ولقد ترجم العرب ، وكذلك فعل الفرسان ، الى لغتيهما ، في القرن الثامن للميلاد ، موسوعتي « موشوروتا » و « شاراكا » الهندتين ، بعد ان مضى عليهما ألف عام ، واعترف الخليفة هرون الرشيد ، بالتفوق العلمي ، والطبي للهنود : واستدعى اطباءهم لتنظيم المستشفىات ومدارس الطب في بغداد . ويقول اللورد « آمبل » ، ان اوروبا ، الوسيطة والعدиشه ، مدينة يعلمها الطبى للعرب بطريق مباشر ، وللهند عن طريق العرب .

ولقد كان اهتمام العرب بكتاب ديسقوريدس في العشائش والأدوية المفردة ، اكبر منه بأي كتاب ، من كتب النباتات اليونانية . عكروا على دراسته وترجمته ، فصدرت له عدة ترجمات أشهرها اثنتان : الأولى في بغداد ، والثانية في قرطبة .

□ جعفر التوكيل :

يقول ابن جلجل ، في كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » : ان كتاب ديسقوريدس ترجم بمدينة السلام ، في الدولة العباسية ، في أيام جعفر التوكيل ، قام بترجمته من اللسان اليوناني الى اللسان العربي ، اصطلن بن باسيل الترجمان ، وتصفت الترجمة حين بن انسق المترجم ، فصححها وأجازها . فما علم اصطلن من تلك الأسماء اليونانية ما كان له اسم في اللسان العربي ، فسرره بالعربية ، وما لم يعلم له أسماء في اللسان العربي ، تركه في الكتاب على أسمه اليوناني .

□ الخليفة الناصر :

كما أن ابن جلجل يقول إن كتاب ديسقوريدس ورد من بغداد إلى الأندلس ، وهو على ترجمة أصلعن ، فانتفع الناس بالمعروف منه ، حتى أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر ، صاحب الأندلس ، الذي كاتب أرمانيوس امبراطور بيزنطية ، ملك قسطنطينية في سنة ٢٣٧ هـ / ٩٤٩ م ، وهاده بهدايا لها قدر عظيم . وكان في جملة هداياه كتاب ديسقوريدس ، صور العشائش بالتصوير الروسي العجيب .

□ الراهب نيكولا :

وسائل الخليفة الناصر الملك أرمانيوس ، أن بيده إليه برجل يتكلّم الأغريقية واللاتينية . فبعث أرمانيوس ، إلى الخليفة براهم كان يسمى نيكولا ، الذي وصل إلى قسطنطينية سنة ٣٤٠ هـ / ٩٥١ م . وكان في ذلك الوقت ، بقرطبة ، من الأطباء الباحثين عن تصحيح أسماء العقاقير الواردة في الكتاب أو تعيين تركيبها : حسدي شبروط الائراني ، وكان أيضًا واحدًا من أطباء قرطبة ، على ذلك من جهة التقرب من الخليفة الناصر ، ومحمد المعروف بالشجاع ، والبسبيسي ، وأبو عثمان الجزار ، ومحمد بن سعيد الطبيب ، وعبد الرحمن بن اسحق بن هيثم ، وأبو عبد الله الصقلي ، الذي كان يتكلّم اليونانية ويعرف تركيب الأدوية .

□ ابن جلجل :

ولقد أضاف العرب على الكتاب المترجم ، ما فات ديسقوريدس أن يذكره . ومن هؤلاء الأطباء الطبيب الأندلسي ابن جلجل أبو داود سليمان بن حسان ، وكان طبيباً فاضلاً خبيراً بالمالجات ، حيث التعرّف في صناعة الطب . الثغر في سنة ٢٧٢ هـ / ٩٨٢ م بمدينة قرطبة ، في دولة هشام بن الحكم ، المؤيد باته ، التي كتاب «تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس» . ومقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه ، مما يستعمل في صناعة الطب وينتفع به .

□ الفافي :

وفي القرن السادس للهجرة ، اشتهر أبو جعفر أحمد بن محمد بن السيد الفافي ، وكان إماماً فاضلاً ، وحكيماً عالماً . وكان يهدى من الأكابر في الأندلس ، وكان أعرف أهل زمانه بقوى الأدوية المفردة ، ومتناقضها وخاصتها وعراقتها . وكتابه في الأدوية المفردة لا نظير له في العبودة ولا شيء له في معناه ! استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس والفالضل جاليوس باوجين لفظ وأتم معنى ؛ ثم ذكر بعد للمتأخرین من الكلام في الأدوية المفردة ، فجاء كتابه جاماً لما قاله الأفضل في الأدوية المفردة ، ومستوراً يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحة منها ، ولقد درس الفافي النباتات الإسبانية والنباتات الأفريقية ، ووصفها ، ووضع أسماءها بالمرية واللاتينية والبربرية . ووصف في كتابه «الأدوية المفردة» النباتات بأدق وصف ، مع ذكر أسمائها باللغات الثلاث . وله أيضاً «كتاب الأعشاب» وهو يحتوي على ٣٨٠ رسمًا ملونًا وعطاقياً متنقلاً الرسم .

□ الادريسي :

واشتهر من علماء القرن السادس الهجري ، الشريف الادريسي ، اعظم جغرافي الاسلام ، ومن علماء النبات والصيدلة المشهورين . صنف كتبها عدة في النباتات والصيدلة، اكثراها في بلاد بالمو، وهو من الذين اشترکوا بنقل العلوم العربية الى اوروبا بحکم اقامته في مقلية . وله كتاب « الصيدلة » ، بدأه بمقديمة عامة في النباتات ، تسمى بروح البحث العلمي . ويبدو من خلال كتابه هذا أنه كان كثير الاعتماد على التقدماء من الناحية الطبية ، الا أنه كان من ناحية علم النبات ، مستقلاً في الرأي كثيراً الامتداد بالنفس . وتنتمي اوصافه للنباتات عن أن معارفه في علم النبات معارف شخصية ، خاصة وغزيرة . فقد كان حالاً يقوى الأدوية المفردة ومنابتها وذاعيتها . وله من الكتب أيضاً كتاب « الأدوية المفردة » ، وكتاب « الجامع لصفات اشتات النبات » . - ولقد ذكر الأسماء المطابقة للنباتات بلغات مختلفة ، بالمربيّة والفارسية واليونانية واللاتينية والسريانية والمعربة والهنديّة والكردية والتركية والقشتالية والبربرية والقطبية .

□ الصوري :

ومن علماء القرن السابع للهجرة ، أبو منصور ، رشيد الدين ابن الصوري . ولد سنة ثلاث وسبعين وخمسين بمدينة صور، في لبنان المنيوي، نشأ في صور ، ثم انتقل منها ، واشتغل بصناعة الطب ، وتميز فيها ، وأقام في القدس متنينا ، وكان يطبب في البيمارستان الذي كان فيها . ولقد اطلع على كثير من خواص الأدوية المفردة ، حتى تميز على كثير من أربابها . وكان قد خدم بصناعة الطب الملك العادل أبي بكر بن أيوب ، في سنة اثنى عشرة وستمائة ، لما كان الملك العادل متوجهاً الى الديار المغربية واستصحبه منه من القدس . ثم خدم بعده لولده الملك المظيم ، وخدم بعده الملك الناصر ، ابن الملك المظيم ، وبقي معه الى أن توجه الملك الى الكرك ، وتوجه هو الى دمشق فاقام فيها . وكان له فيها مجلس يتردد اليه المشتغلون بالصناعة الطبية . وقد توفي في دمشق ، في سنة تسعة وثلاثين وستمائة .

وكان رشيد الدين ابن الصوري ، قد التقى بابن أبي أصيبعة « مؤلف كتاب طبقات الأطباء » ، في دمشق ، فآهاده تاليقاً له ، يحتوي على قوائد ووصايا طبية، فكتب ابن أبي أصيبعة رسالة اليه ، يقول :

لعلم رشيد الدين في كل مشهد
انتني وصایاه العسان التي حوت
بنشر کلام کل فضل منفرد
وجلت بها ما ارتعبه وانني
منار علا ياتشه کل مهتلي

ولرشيد الدين الصوري من الكتب كتاب « الأدوية المفردة » ، بدأ بعمله في أيام الملك المظيم ، وجعله باسمه ، واستقصى فيه ذكر الأدوية المفردة ؛ وذكر أيضاً أدوية اطلع على معرفتها ومتناقضها، لم يذكرها المتقدمون . وكان عند خروجه لدراسة النبات ، في منابتها ، يستصحب مصورة ،

ومنه الأسباع على اختلافها وتنوعها . فكان يتوجه إلى الموضع التي بها النبات ، مثل جبل للنبات وغيره من الموضع التي قد اختص كل منها بشيء من النبات ، يشاهد ويفحصه ويريه للصورة فيعتبر لونه ومقدار ورقه وأصنافه ، وأصوله ؛ ويصور بحسبها ويجهد في معاكالتها . ثم انه سلك أيضاً في تصوير النبات مسلكاً مقيداً ، وذلك أنه كان يُرسِّي النبات للصورة في إثبات نباته وطراوته فيصوّره ؛ ثم يريه إياه أيضاً وقت كماله وظهور بزره فيصوّره تلو ذلك ؛ ثم يريه إياه أيضاً في وقت ذواه وببسه ، فيصوّره ، فيكون النبات الواحد ظاهراً للناظر إليه في الكتاب ، وهو على أنساء مختلفة لا تتمكن رويتها في الأرض ، مجتمعة ، في وقت واحد ؛ فيكون تعيقته له أتماً ومعرفته له أبيناً . ولابن الصوري ، كتاب « الرد على كتاب الشاج للغاوي ، في الأدوية المفردة » . ولله تعاليق وفراائد ووصايا طبية ، كتب بها إلى ابن أبي أصيبيع .

□ ابن الرومية :

هو أبو العباس النباتي ، واحد من أولئك العلماء ، الذين أدى ادزهار علم النبات والأعشاب في الأندلس ، إلى ظهورهم ، وكتبة بعض المصادر التاريخية بـ « ابن الرومية » وهي كتبة دان يكرهها ويقلل لها ، كما ذكر المؤرخ ابن عبد الملك المراكشي :

ولد أبو العباس النباتي في أشبيلية سنة ٥٦١ هـ / ١١٦٥ م . وكان واحداً من أعظم علماء الأعشاب في الأندلس : بذلك جهداً علمياً مكنته من أن يؤلف خمسة كتب في العشائش والنباتات . كان عالماً مطلعاً ، بكل ما تحمله هذه الكلمة من معنى . كان يمشق المعرفة ويتعذر أسبابها ، ويجري وراثها ؛ ولذلك لم يلتزم البقاء في مدينته أشبيلية بل قام بيلفوف في أرجاء الأندلس ، من سهل وجبل وبادية وساحل . وقد أتى لسان الدين الخطيب ، على ذكره في كتابه « الاحاطة في أخبار غربناطة » ، قال انه دخل غربناطة « غير ما مرة لسماع الحديث ، وتحقيق النبات ، وفتنه عن عيون النبات بجبارتها » . وقال في حقه أيضاً : « انه كان نسيج وحده ... وعجيبة نوع الانسان في عصره وما قبله وما بعده ، في معرفة النباتات على اختلاف أنوار منابتها حساً ومشاهدة وتحقيقاً .

ولم تكن مطامع أبي العباس العلمية ، لتتوقف عند حدود وطنه الأندلس ، بل استهضفت همه للقيام برحالة هي أطول ما أتجزء نباتي عشافي في تاريخ حضارتنا . وإذا كان تلميذه الأندلسي ، ضياء الدين بن البيطار المالقي ، قد سافر إلى بلاد الأغارقة ، وأقصى بلاد الروم ، فإن الرحالة المظموني التي حققها أبو العباس كانت أطول مسافة ، ولا تقل عنها خطراً .

لقد غادر أبو العباس أشبيلية سنة ٦٢١ هـ / ١٢١٥ م . مجااناً البحر ، إلى المدورة المغربية . ومن هناك أخذ يتنقل بين مدن شمال إفريقيا وسواحلها وسهولها وفيافيها ، مخالطاً الناس في المدينة والريف والبادية ، مستقلاً إلى ما يغمر ونه به من معلومات عندهم التي يجهدونها في مناطقهم وينتفعون بها في غذاء أو دواء ، حتى نزل الاسكندرية فالقاهرة ، ومار على ضفاف النيل ... وهو في ذلك كله يبحث عن النباتات والأعشاب ويتتحقق من منافعها .

وبعد مصر، زار أبو العباس الديار المقدسة، ثم توجه إلى الشام والمرار ، وأسمن في رحلته حتى أقليم خراسان^(٥) - ومضى فيه حتى مدينة مرو^(٦) ، التي كانت آنذاك ، حاضرة فنية بعلمانها وفقهائها ، وكانت مكتباتها تزخر بالكتب والمخطوطات .

ولقد مرَّ أبو العباس بمدينة « حaran »^(٧) في رحلته العليمة هذه التي استغرقت عامين ، وبعدها العام ، وتضخت عن تاليقه كتابة الفريد الرحلة النباتية ، الذي فاق فيه نظيراه من المشايبين في حرصه على تعلية النباتات ، أي وصفها وصفاً عليياً ، وفي دقته في هذا الوصف .

وفي الدراسة القيمة التي قام بها الباحث الأستاذ فاضل السباعي ، ونشرتها مجلة التراث العربي (المدد ٣٠ كانون الثاني - يناير ١٩٨٨) ، تلك الدراسة التي استقينا منها معلوماتنا هذه عن أبي الباس النباتي ، يقول الأستاذ السباعي :

و ولد رجوعي الى موسوعة الشاب الاندلسي ابن البيطار ، معاصر أبي العباس وتلميذه، و قفت فيها على نماذج وافية من علم أبي العباس، استمدتها التلميذ البار من كتاب أستاذه « الرحلة النباتية » . وما لاحظته في المفردات المثلثة والاثنتين، التي اقتبس ابن البيطار فيها معلومات من أبي العباس، أن ما يرد في المفردة الواحدة من المعلومات كان تنصيب أبي العباس فيها غالباً هو الأدق في : وأحياناً لم يكن يرد في المفردة إلا ما قاله نباتياً الطالمة وحده ، وهذه أحصيتها فكانت ٢٨ مفردة .

ويتابع الأستاذ السباعي قائلاً « ولكن ما يسترعى الانتباه ويستحق مزيداً من الاعجاب ، هو أن ٦٦ مفردة ، من الد ١٠٢ ، قد انفرد عالمنا الاشتبيلى بتأجليتها ، فلم يشاركه في ذلك أحد ، وذلك يؤكد تفوقه العلمي على أقرانه من العلماء في الفنون والفنانين الواحد » .

□ ابن البيطار :

ونبغ في القرن السابع الهجري (الثالث عشر الميلادي) ، العنكيم العمال ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد الباتي المالكي - نسبة إلى مدينة مالقة في الأندلس ، ويعرف بابن البيطار . ولد في الربيع الآخر من القرن السادس الهجري ، ويقول بعض المستشرقين أنه ولد سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٧ مـ ، في مدينة مالقة ، وتلقى تعليمه في مدينة الشبيبة عام ٦١٧ هـ / ١٢١٩ مـ ، على أيدي علمائها : أبي العباس الباتي ، ومبدلاه بن صالح ، وغيرهما . وأما وفاته فكانت في مدينة دمشق في شهر شعبان من عام ٤٦٦ هـ / ١٢٤٨ مـ .

وبعد أن تلقى هذا العالم، علومه في الأندلس، اتجه نحو الشرق ماراً ببلدان المغرب العربي ، ليجتمع هناك بالباحثين في علم النبات والمشتغلين به . ومن المغرب ، تابع طريقه فزار آسيا الصغرى ماراً بمدينة أنطاكية ، ليصل منها إلى سوريا ، ولينتقل بعدها إلى مصر ، ومن مصر قام برحلات إلى العجاز ، فغرة ، فالقدس ، في بيروت . وقد سافر إلى بلاد الأفارقة كما يذكر ابن أبي أصيحة ، وإلى أقصى بلاد الروم ، والتقي بجماعة يمانون في معرفة النبات ، فأخذ منهم معرفة نبات كثيرة .

وأما في مصر فقد اتصل ابن البيطار بالملك الكامل محمد بن أبي بكر ، الذي كان يعكم مصر ودمشق . واعتمد الملك الأيوبي على هذا العالم في الأدوية المفردة والخشائش ، وجعله رئيساً على سائر المشابين وأصحاب البسطoirات في الديار المصرية . ولم يزل في خدمته إلى أن توفي الملك الكامل بدمشق . وبعد ذلك توجه ابن البيطار إلى القاهرة، ليبحث في خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب ، بن الملك الكامل ، وكان ظليلاً عنده تقدماً في أيامه ، فذاع صيته واشتهر شهراً عظيمـة .

تقول المستشرقة الألمانية زيفريد هونكة ، في كتابها ، شمس العرب تشرق على الغرب : كان ابن البيطار أعظم عباقرة العرب في علم النبات . ضم في كتابه « الجامع في الأدوية المفردة » ، شرحاً لألف واربعمائة نبتة طبية ، مع ذكر اسمائها ، وطرق استعمالها، وما قد ينوب عنها يكتفي ابن البيطار بتصنيع دراسة مئة وخمسين مؤلفاً من ابحاث من سبقه من العلماء ، الذين اعتمد عليهم في بحوثه ، بل انطلق من مدحاته الام ، مالقة ، ياسبانية ، الى مراكش وشمال افريقيا ، ومصر وسوريا وأسية الصفرى ، بعثاً من النباتات الطبية ، يراها بنفسه ، ويتيقن منها فيذكرها في كتابه .

ويقول ابن أبي أسمية ، صاحب كتاب « عيون الأنباء في طبقات الأطماء » ، وتلميذ ابن البيطار ، يقول « كان ابن البيطار أوحد زمانه ، وعلامة وقته ، في معرفة النبات وتحقيقه واحتياره ، ومواضع نبتة ، ونمط أسمائه على اختلافها وتنوعها ». سافر الى بلاد الأغفارقة وأقصى بلاد الروم ، ولقي جماعة يمانون هذا الفن ، وأخذ عنهم معرفة نبات كثير ، وعاينه في مواضعه . واجتمع أيضاً في المغرب وغيره بكثيره من الفضلاء في علم النبات ، وعاين منابته ، وتحقق ماهيته ؛ وأنقذ درايته كتاب ديسقوريدس انتقاماً بلغ فيه الى أن لا يكاد يوجد من يجازيه فيما هو فيه ، وذلك أنتي وجدت عنده من الذكاء والفلطنة والدرایة في النبات وفي نقل ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس فيه ، ما يتعجب منه .

وأول اجتماعي به كان بدمشق في سنة ثلاث وثلاثين وستمائة . ورأيت من حسن عشرته ، وكمال مروعته ، وطيب أعراضه ، وجودة أخلاقه ، وكرم نفسه ما ينفع الوصف ويتعجب منه : « ولقد شاهدت منه في ظاهر دمشق كثيراً من النبات في مواضعه ، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لاسماء الأدوية كتاب ديسقوريدس ، فكنت أجد من غزارة علنه ، وذراعته وفهمه ، شيئاً كثيراً جداً ، وكان أضر لدينا عدة من الكتب المؤلفة في الأدوية المفردة مثل كتاب ديسقوريدس ، وجاليينوس ، والفالقاني وأمثالها من الكتب الجليلة في هذا الفن ، نكان يذكر أولاً ما قال ديسقوريدس في كتابه باللهظ اليوناني على ما قد صفحه في بلاد الروم ، ثم يذكر جملة ما قاله ديسقوريدس من نعمته وصفته وأفعاله ، ويدرك أيضاً جلماً من آقوال التأثرين فيه ، ومواضع الفلط والاشتباه الذي وقع لمضمونه في نعمته . فكنت أراجع تلك الكتب معه ولا أجد أنه يفader شيئاً مما فيها . وأعجب من ذلك أيضاً أنه كان ما يذكر دواء إلا ويعين في أي مقالة هو من كتاب ديسقوريدس وجاليينوس ، وفي أي عدد هو من جملة الأدوية المذكورة في تلك المقالة . »

ويقول ابن أبي أسمية الذي كان كتابه « عيون الأنباء في طبقات الأطماء » أعظم الكتب وأوفاتها في تراجم الأطماء ، من عرب وأعاجم ، يقول في كتاب ابن البيطار « الجامع في الأدوية المفردة » : « لم يوجد في الأدوية المفردة كتاب أجمل ولا أجدد منه » ، وقال ابن البيطار صنفه للملك الصالح نجم الدين أبوب بن الملك الكامل ، حين كان مقيناً في مصر .

لقد أسمى ابن البيطار ، في مجال النبات والصيدلة ، اسماماً عظيماً ، وذلك باكتشافاته العلمية الهمة سواءً عن طريق المثور على نباتات جديدة أنسان تجواله ورحلاته ، ذاكراً خواصها ، وفوائدها الطبية ، أم بالشروط واللاحظات التي دونها ، فيما يتعلق بتخزين النباتات وحفظها ، وتأثير ذلك على الواد الفعالة والمكونات الفدائية الموجودة فيها .

ولقد كانت حصيلة ما ترك ابن البيطار من كتب ومؤلفات دليلاً واضحاً وبرهاناً جلباً على تفوق هذا العالم ونبوغه في مجالات النبات والطب والصيدلة ، مما جعله يرقى إلى مصاف كبار علماء العرب والمسلمين الذين أفسوا المكتبة العربية والإسلامية ببحوثهم ودراساتهم القيمة .

وخلاصة القول :

ان علم النبات والأعشاب عند العرب ازدهر منذ القرن الرابع الهجري ، وشاع التداوي بالعشائش والأعشاب في الأندلس، على ايدي علماء الأندلسين أمثال ابن جبل ، والنافقي ، والشريف الأدريسي ، وأبي العباس النباتي (ابن الرومية) ، وضياء الدين ابن البيطار ، الذين شملت علمهم واختصاصاتهم ، مجالات النبات والطب والصيدلة، فكانوا رواداً ، يربعوا في معرفة الأدوية النباتية والمدنية والحيوانية ، وافتتحوا الصيدليات العامة في زمن النصوص ؛ كما العتوا صيدليات خاصة بالبيمارستانات . وكان للصيدلية رئيس يسمى(شيخ صيدلاني) البيمارستان . وجعلوا على الصيادة رئيساً يسمى رئيس المشابين ، ووضموا إكياً خاصة بتركيب الأدوية أطلقوا عليها اسم الأقربازين .

ولقد عُرف أبو العباس القلقشندي (المتوفى سنة ٨١٢ هجرية) ، الصيدلية الملحقة بالبيمارستان على الوجه التالي : « هي الخزانة المبشر عنها في زماننا بالشرابخانة ، وكان فيها من أنواع الأشربة والماجين التفيسة ، والمربيات الفاخرة ، وأصناف الأدوية ، والطعور الفائقة ، التي لا توجد إلا فيها؛ وفيها من الآلات التفيسة والأدوية الصينية من الزبادي البراني ، ما لا يقدر عليه سوى الملك » .

ولقد رسم العرب صوراً صيدلياتهم الخاصة في عواصم حضارتهم ، وقد ارتدى الصيدلي ثياباً بيضاء ووقف بباب صيدليته يعرف الدواء ، ومن ورائه الرفوف الممتلئة بالأدوية والتوارير . وفي أحدى الصور ، يرى الصيدلي وهو يشتري بعض العشائش من أحد المشابين المتجلولين الذين كانوا يعرفون مزايا تلك العشائش الطبية ، فيجمعونها أو يستوردونها من الصين والهند وأفريقيا الشرقية ، مع ما يستوردونه من صموغ وتوابل وقرنفل ، ومسك وكافور ، وصنقل وعنبر .

وان الأصل المعقود اليوم على باحثينا ، وعلمائنا ، في أن يولوا هذه الثروة من العلم والمرارة التي خلفها لهم الأجداد ، كل اهتمامهم وأن يتفرغوا لدراستها ، وشرحها ، ونشرها بين أبناء الجيل الحاضر .

جوزيف كلاس

□ العواشي :

- ١ - علم يبعث في أشكال الحياة في العصور الجيولوجية السابقة، كما تمثلها المتحجرات أو المستحاثات الحيوانية والنباتية.
- ٢ - « تذكر مراجع أخرى ألم يهدى تعود إلى ٣٠٠٠ سنة ق.م » .
- ٣ - ومن المفيد أن نذكر هنا قول أبولفراط ، منذ ٤٥٠٠ عام « يكن غذاؤك دواهك » . وقوله أيضاً ، « عالجو كل مرض بنبات أرضه ، فهو أجمل لشفائه » .
- ٤ - ديسقوريدوس طبيب يوناني ، ولد في عن ذرية في آسيا الصغرى ، في القرن الأول بعد الميلاد .
- ٥ - الليم خراسان ، يقع اليوم في أرض الفوستران .
- ٦ - مدينة مرو ، تقع اليوم في جمهورية تركمانيا السوفيتية .
- ٧ - مدينة حران ، تقع في الجنوب الشرقي من الجمهورية التركية اليوم .

النباتات الطبية

تاريخها ، قصصها ، وأساطيرها

المراجع العربية :

- ١ - د. احمد ذكي ، « التوابيل » - الكويت ، مجلة العربي ، ٣٦ ، دار ، ١٩٦٨ .
- ٢ - حنيفة الخطيب ، « الطب عند العرب » - « الأهلية للنشر والتوزيع » ، بيروت ، ١٩٨٦ .
- ٣ - د. شكري ابراهيم سعد ، « النباتات الطبية والمعطرة في الوطن العربي » - الكويت ، مجلة العربي ، تعود ، يوليو ١٩٨٨ .
- ٤ - محمد أمين الياباني ، « ابن البيطار » - دمشق ، مجلة التراث العربي ، تشرين أول ، وقانون الثاني ، ١٩٨١ - ١٩٨٧ .
- ٥ - فاضل السباعي ، « أبو العباس النباتي (ابن الرومية) » .
- ٦ - د. جورج بوست ، « نبات سوريا وفلسطين والقمر المصري وبواديها » - بيروت ١٨٨٦ . برخصة مجلس معارف سوريا الجليلة .
- ٧ - د. اهـ الخطيب ، دـب ، العايد ، دـج - كلاس ، دـي ، حـجـوت ، « ثـوـة حول الـأـمـشـابـ الـطـبـيـةـ فـيـ بـلـادـ الشـامـ » ، دمشق لـائـةـ الـمـعـاـضـرـاتـ ، مـكـبـةـ الـأـسـدـ ، حـزـيرـانـ (ـيـونـيـوـ)ـ ١٩٤١ .
- ٨ - زـيـفـرـيدـ هـونـكـةـ ، « شـعـنـ العـربـ تـسـطـعـ عـلـىـ الـقـبـ » ، المـكـتبـ الـتجـارـيـ للـطبـاـمةـ وـالـتـوزـعـ وـالـنـشـرـ ، بـيـرـوـتـ ، ١٩٦٩ .
- ٩ - ولـ دـيـورـانـتـ ، « قـصـةـ الـعـضـارـةـ ، الـبـعـزـهـ الـثـالـثـ ، الـجـلـدـ الـثـالـثـ » ، تـرـجمـةـ ذـكـيـ تـجـيـبـ مـحـمـودـ ، الـقـاهـرـةـ - لـجـنةـ الـتـالـيـفـ وـالـتـرـجـمـةـ وـالـنـشـرـ ، ١٩٦٨ .
- ١٠ - ابن ابي اصيبيعة ، « عـيونـ الـأـنـيـاءـ فـيـ طـبـاتـ الـأـطـيـاءـ » . منـشـورـاتـ دـارـ مـكـبـةـ الـعـيـاةـ - بـيـرـوـتـ ، ١٩٩٥ .

★ ★ ★

المراجع الأجنبية :

- Jacques Barrau,
« Les Plantes de la guérison ».
L'Histoire - N° 74 , 1984.
- Francesco Gabrieli,
« Histoire et Civilisation de l'Islam en Europe ».
Bordas, 1983.
Imprimé, à Verone, (Italie), en 1983.
Edition Française : Bordas, 1983.
- Secrets et Vertus des Plantes Médicinales,
Publié par Selection du Reader's Digest,
Première Edition Canadienne, 1988.
- Floréol SANAGUSTIN,
« Note sur un Recueil Ancien de Recettes Médicinales ».
Institut Français de Damas: Bulletin d'Etudes Orientales,
Tome XXXVI, 1984. Damas 1986.
- W. A. Emboden,
« Bizarre Plants, Magical, Monstrous, Mythical »,
London, Studio Vista, 1974.
- A. Lerol - Gourhan,
« The Flowers Found with Shanidar IV, a Neanderthal Burial in Iraq »,
Science 190, P. 562-564, 1975.
- A. G. Morton,
« History of Botanical Science »,
London and New York, Academic Press, 1981.

الْقَلْمَنْ

لأبْيِ مُحَمَّدِ السَّرَّاجِ النَّحَوِيِّ

عبد العزizin الساوري

هـ أبو بكر محمد بن السري بن سهل النحوي البغدادي المعروف بابن السراج (والسراج : يفتح السين الهملة والراء الشديدة وبعد الألف جيم ، هذه النسبة إلى عمل السروج) ، كان أحد الأئمة المشاهير ، المجمع على فضله ونبيله وجلاة قته في النحو والأداب ، صحب المبرد ، وأكثر الأخذ عنه ، وتصدر لأمر العلم .

قال المرزباني : كان أحدث أصحاب أبي العباس المبرد سناً ، مع ذكاء وفطنة ، وكان المبرد يقربه ، وقرأ عليه كتاب سيبويه ثم اشتغل بالموسيقا فسئل عن مسألة بحضور الزجاج ؛ فأخذها في جوابها فوثّخه الزجاج وقال : مثلك يُخطيء في مثل هذه المسألة ؟ والله لو كنت في منزلي لضررتك ، ولكن المجلس لا يعتدل ذلك (١) ، فقال : قد ضربتني يا أبا إسحاق ، وكان علم الموسيقا قد شغلني عن هذا الشأن ؛ ثم رجع إلى كتاب سيبويه ونظر في دقائقه ، وعوّل على مسائل الأخفش والمكوفين ، وخالف أصول البصريين في مسائل كثيرة .

وأخذ عنه جماعة من الأعيان منهم : أبو القاسم عبد الرحمن بن إسحاق الزجاجي وأبو سعيد السيرافي وأبو علي المفارسي وعلي بن عيسى الرمانى وأبو علي القالى ومحمد بن أحمد بن الأزهري وأبو القاسم الأدمي وطائفة ، ونقل عنه الجوهرى في كتاب « الصلاح » في مواضع عديدة .

(*) باحث من المغرب .. مختص في التراث الاندلسي المغربي .

وكان يلشغ في الراء ف يجعلها غيّرنا ، فأملى يوماً كلاماً فيه لفظة بالراء ، فكتبوها عنه بالفين ، فقال : لا بالفاء (كذا) ، لا ، بالفاء (كذا) يريد بالراء ، وجعل يكررها على هذه الصورة .

وتدبر المصادر أنه كان يحب أم ولده ، وكانت في القیان فأنفق عليها ماله ، وتهبأ أن قدم المكتفي من الرقة إلى بنداد ، في الوقت الذي ولـي الغلافة .

قال الأوارجي الكاتب : فجلست في ذلك اليوم أنا وأبن السراج وأبو المقاسم عبد الله بن حمدان الموصلي المفقي في رَوْشَن نتفرج لما وافى المكتفي في المساء نظرنا واستحسنـاه . وكانت هذه القيمة قد جَفَـت ابن السراج لما قـل مـالـه ، فقال في ذلك الوقت : قد حضرني شيء فاكتبـوه عنـي ، فكتبـته ، وهو قوله^(٢) :

قـاـيـسـتـ بـيـنـ جـمـالـهـ وـفـعـالـهـ
فـاـذـ الـلـاحـةـ بـالـغـيـانـةـ لـاـ تـفـيـ
حـلـفـتـ لـنـاـ لـاـ تـخـونـ عـهـودـنـاـ
كـانـاـ حـلـفـتـ لـنـاـ لـاـ تـفـيـ
وـاـهـ كـلـمـتـهـ اوـ كـالـبـلـرـ اوـ كـالـمـكـتـفـيـ
وـاـهـ كـلـمـتـهـ اوـ كـالـبـلـرـ اوـ كـالـمـكـتـفـيـ
وـاـهـ كـلـمـتـهـ اوـ كـالـبـلـرـ اوـ كـالـمـكـتـفـيـ

ومن على هذا زمان . وكان ابن زنجي الكاتب يهوى قيمة ويدعوها في أيام الجمع ويعدّث بأمرها وأمرها معها أبي العباس أحمد بن محمد بن الفرات ، فعندثنـي ابن زنجـي أنهـ غـداـ يـوـمـ سـبـتـ عـلـىـ أـبـيـ الـبـاسـ فـسـأـلـهـ عـنـ الـقـيـمـةـ فـيـ أـمـسـ وماـ غـنـتـهـ ، فقالـ : كـانـ صـوـتـيـ عـلـيـهـ :

قـاـيـسـتـ بـيـنـ جـمـالـهـ وـالـخـ الـأـبـيـاتـ

قالـ : وـسـأـلـيـ أـبـوـ الـبـاسـ عـنـهـ وـلـنـ هـ ؟ـ فـقـلـتـ : لـعـبـدـ اللهـ بـنـ المـعـزـ .ـ فـقـلـتـ
لـهـ : إـنـهـ لـيـسـ لـعـبـدـ اللهـ بـنـ المـعـزـ ،ـ وـإـنـمـاـهـ لـأـبـيـ بـكـرـ مـعـمـدـ بـنـ السـرـاجـ ،ـ وـقـصـصـتـ
لـهـ قـصـصـهـ ،ـ فـعـجبـ مـنـ ذـلـكـ وـاجـتـمـعـ أـبـوـ الـبـاسـ أـحـمـدـ بـنـ عـمـدـ بـنـ الـفـرـاتـ بـالـمـكـتـفـيـ
وـأـنـشـدـهـ أـلـيـاتـ .ـ فـسـأـلـهـ : مـنـ قـائـلـهـ ؟ـ فـقـالـ : هـيـ لـعـبـدـ اللهـ بـنـ طـاـهـ سـهـوـاـ مـنـهـ
فـقـالـ : اـحـمـلـ إـلـيـهـ أـلـفـ دـيـنـارـ .ـ فـلـمـ اـجـتـمـعـ اـبـنـ زـنجـيـ بـأـبـيـ الـبـاسـ أـخـبـرـهـ بـالـقـصـةـ .ـ
فـقـالـ لـهـ اـبـنـ زـنجـيـ : مـاـ قـلـتـ لـكـ إـلـاـ أـنـهـ الـبـدـ اللهـ بـنـ المـعـزـ وـقـدـ أـخـبـرـنـيـ بـعـدـكـ
أـلـأـواـرـجـيـ أـنـهـ لـأـبـيـ بـكـرـ بـنـ السـرـاجـ ،ـ فـقـالـ : غـلـطـتـ أـنـتـ ،ـ وـغـلـطـتـ أـنـاـ ،ـ وـقـدـ سـاقـ
الـهـ لـابـنـ طـاـهـ رـزـقاـ .ـ وـأـعـطـانـيـ الـأـلـفـ دـيـنـارـ ،ـ وـقـالـ : اـمـضـ بـهـ إـلـىـ عـبـدـ اللهـ بـنـ
عـبـدـ اللهـ بـنـ طـاـهـ ،ـ وـسـلـمـهـمـاـ لـهـ مـنـ يـدـكـ ،ـ وـأـخـبـرـهـ الـغـيـرـ ،ـ فـفـعـلـتـ فـأـخـذـهـاـ وـشـكـرـ .ـ

فانظر ما أعجب هذه القصة ، حرمتها أصحابها وأخذها غيره بالوهم .

قال الزبيدي : وأنشدني محمد بن السري لنفسه في هذه الجارية :

سوف أبكي على بكائي عليك
و زمان لم يغلق الله شيئاً
كان فيه أهزء من عينيك
أظنت الصبي يغنى عليه
قبح ما تعلمين في ثوابيك
حب أعمى وليس يضر شيئاً
أين ما قد يفوح من ابطيك
فاطلبي صاحباً أصم ضريراً

وبعد هذا كله لم يمت ابن السراج حتى ملك المقينة ، وأولدها ولده . وكان يحبه حباً شديداً لعبها .

قال بعض الرواة : حضرت مجلس ابن السراج وهو يقرئ الناس التنعو وغيره من أنواع الأدب ، والى جانبه ابن له صغير ، وهو شديد العنوان عليه ، فقال له بعض الحاضرين : أتعبه أيها الشيخ ؟ فقال متمنلاً :

احبه حب الشعير ماله قد كان ذاق الفقر ثم ناله

قال الأولاجي : وأنشدني ابن السراج لنفسه ، وقد جُدَر ابن يانس المفمني وكان من أحسن الناس وجهها ، وكان قد علق به وهو يه :

يا قمراً جُدَر لما استوى فزادني حُزناً وزادت همومي
أظنه غنىًّا لشمس الضعى فقطنه طرباً بالنجم

قال أبو الفتح عبيد الله بن أحمد المنحوي : توفي أبو بكر بن السراج يوم الأحد لثلاث ليالٍ بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة وثلاثمائة ببغداد في خلافة المقتدر .

وصنف أبو بكر بن السراج كتاباً جليلة ، منها :

١ - احتجاج القراء .

٢ - الاشتقاد : في المصادر الا أنه «لم يتم» ، وقد نشره محمد صالح التكريتي في بغداد سنة ١٩٧٣ ، كما نشره عمد علي الدرويش ومصطفى المدرسي في دمشق سنة ١٩٧٣ كذلك .

٣ - الأصول في النحو : حققه د. عبد الحسين الفتلي ، ونشره بمؤسسة الرسالة بيروت سنة ١٤٥٠ هـ - ١٩٨٥ م في ثلاثة أجزاء ، وصنع ورتب فهارسه د. محمود محمد الطناحي في كتيب صغير صدر عن مكتبة الغانجي بالقاهرة سنة ١٤٦١ هـ - ١٩٨٦ م ، وقد شرحته الرّمانى^(٢) (ت ٣٨٤ هـ) وأبن بايزاد (ت ٤٥٤ هـ) وأبن الباذش (ت ٥٢٨ هـ) والجزولي (ت ٦٧٧ هـ) .

وحكى الرّمانى عنه قال : كان أبو بكر بن السراج يقرأ عليه كتاب الأصول الذي صنفه^(٤) ، فمر فيه بباب استحسن بعض العاضرين فقال : هذا والله أحسن من كتاب المقتضب . فأنكر عليه أبو بكر ذلك ، وقال : لا تقل هذا ، وتمثل بيبيت ، وكان كثيراً يتمثل فيما يجري له من الأمور بأبيات حسنة ، فأنشد حينئذ :

ولكن بكت قبلي فهيج لي البكا بتكاما فقلت : الفضل للمتقدّم

٤ - الجمل : شرح الرّمانى ثم شرح أبياته ابن حميد المتنوفي سنة ٥٥٠ هـ .

٥ - جمل الأصول أو مجلل الأصول وهو الأصول الصغير .

٦ - الخط : حققه د. عبد الحسين الفتلي ، ونشره بمجلة (المورد) العراقية م ٥ ع ٣ ص ١٠٣ - ١٣٩٦ هـ - ١٩٧٦ م .

٧ - الرياح والهواء والنار .

٨ - شرح كتاب سيبويه (في سبعة أسفار) .

٩ - الشعر والشعراء أو أحكام الأشعار .

١٠ - الشكل والتقطّع : شرحه الرّمانى .

١١ - العروض : حققه د. عبد الحسين الفتلي ، ونشره بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد ع ١٦ ص ٤١١ - ٤٤٠ سنة ١٩٧٢ م .

١٢ - علل النحو .

١٣ - القلم : وهو هذا الكتاب الذي نحققه ونشره لأول مرة ، وسنفصل فيه المقول فيما بعد .

١٤- المواصلات والمذاكرات في الأخبار .

١٥- الموجز في النحو : نُشر مرتين : الأولى : بتحقيق مصطفى الشويمي في مؤسسة بدران للطباعة والنشر بيروت سنة ١٩٦٥ م ، والثانية : بتحقيق د. محمد محمد سعيد في مطبعة الأمانة بالقاهرة سنة ١٤٠٠ هـ - ١٩٨٠ م ، وقد شرحه الرمانى .

١٦- الهجاء : شرحه الرمانى .

١٧- الهمز .

وصف المخطوطة

هي نسخة وحيدة محفوظة في مكتبة الخزانة العامة بالرباط في المغرب تحت رقم ١٠٠ ق (مخطوطات الأوقاف) ، ويحفظ معهد إحياء المخطوطات العربية في القاهرة التابع لجامعة الدول العربية مصورة عنها (ميکرو فیلم) تحت رقم ١٥٧ (خط ، معارف عامة)^(٥) ، وقد حصلت على نسخة عن تلك المصورة ، فللقارئين على المعهد شكري وامتناني لتمكنى من ذلك ، وهي في مجموع نفيس جداً ، يضم الكتب التالية :

١- الموجز في النحو لابن السراج (١-٣٤ ب) .

٢- القلم لابن السراج (١٣٥) .

٣- المؤقت في النحو لمحمد بن أحمد بن كيستان (٢٥ ب - ٤٦ ب) .

٤- الكتاب لابن درستويه^(٦) (٤٧ ب - ٩٢ ب) .

٥- النحو لأبي علي الحسن بن محمد المعروف بلطفة الاصبهاني (٩٣ ب - ١٠١ ب) .

٦- الخط لابن السراج (١١٠٢ - ١١٦ ب) .

٧- شرح ما يكتب باليء من الأسماء المقصورة والأفعال مؤلفاً على حروف المعجم لابن درستويه^(٧) (١١٧ - ١١٠) .

- ٨ - مختصر المذكر المؤنث للمفضل بن سلمة^(٨) (١٢٥ ب - ١٢٠ ب) .
- ٩ - المقصور والمدحود لفلام ثعلب (١٢٦ ب - ١٢٥ ب) .
- ١٠ - العروض لابن السراج (١٢٧ ب - ١٣٥ ب) .
- ١١ - المختصر في فك دوائر العروض لمجهول (١٣٥ ب - ١٣٧ ب) .
- ١٢ - القوافي لأبي القاسم الطيب بن علي التميمي (١٤١ ب - ١٢٨ ب) .

وكتاب «القلم» لابن السراج في هذا المجموع عبارة عن صفحة واحدة (١٣٥)^(٩) فقط ، مقاس ٢١×١٦ سم ، في الصفحة ٢١ سطراً ، ومتوسط كلمات السطر الواحدة ١٨ كلمة ، وهي مكتوبة بخط «ال تستعليق » مضبوط بالشكل أحياناً بقلم محمد بن إبراهيم بن عبدالله الأصبهاني المكنى بأبي الفرج وقد فرغ منها يوم الخميس لأربع خلون من ذي الحجة سنة اثنين وخمسين وثلاثمائة (١٣٥٢هـ)^(١٠) .

ولم أجده أحداً من الذين ترجموا له قد ذكر أن لابن السراج كتاباً في القلم ، ثم ان الفهارس العربية لم تذكر نسخة أخرى لهذا الكتاب لكن أسلوب ابن السراج واضح فيها كل الوضوح .

وأعتقد أنه ليس مؤلفاً كاملاً ، ويبدو أنه جزء من كتاب أكبر ، وهذا الجزء الذي بين أيدينا ليس في فضل القلم وما به فيه من الحكم واشتقاقه وأوصافه ، وإنما هو خاص بكيفية إمساك القلم عند الكتابة ووضعه على السورق بالعرض والطرف الأعلى والأسفل تارة أو تدويرة الهلال والمعطف والاختلاس تارة أخرى ، وهذا موجود في بعض كتب الخط والقلم^(١٠) .

كتاب القلم لابن السراج

بسم الله الرحمن الرحيم

قال أبو بكر محمد بن السري السراج النحوي رحمه الله : إذا أردت الكتابة فابتدئ ببسم الله ، الباء برأس القلم كله ثم اخططنها بعرضه واختتمها بأسفله ، والله مثلها .

واكتب السين والشين والمطة العليان الصاد والمضاد والطاء والمظاء برأس القلم الأعلى ، واكتب الجيم برأس القلم كله ثم اعطفها بعرضه كأنك تريد أن تكتبها مفردة ، واكتب الدال برأس القلم؛ فان كنت في كتاب تحبس فيه يدك ؛ فاعطه رأس القلم كله على بياض النذال ، واكتب الراء والزاي والمطة السفلى من الصاد والمضاد والطاء والمظاء والكاف بالقلم كله ، واكتب كل حرف مرسل والهاء التي تكون آخر الكتاب برأس القلم الأسفل ، إلا أنك تجعل وسط التاء والنون بعرض القلم .

وابتدئ العين الأول ^(١) برأس القلم الأعلى بوضع القلم كله حتى إذا كانت بمثيل الهلال فأجر القلم عليها بعرضه ، والذين مثلها ، واكتب العين التي وسط الكلام برأس القلم الأسفل ثم ارفع رأسه الأعلى ثم اردد القلم برأسه كله على بياض العين فاحشّها به ثم صلّها بالكتاب من وسطها ، واكتب الميم برأس القلم كله كأنك تريد أن تكتب سينين إلا أن تكون في كتاب جليل أو سجل تمسك فيه يدك ؛ فتكتبها برأس القلم عرضاً ، وابتدىء القاف برأس القلم الأسفل حتى [إذا] ^(٢) صارت كأنها الهلال فضع رأس القلم ثم أخلسها وكذلك الفاء والمواو ، واكتب الهاء برأس القلم الأسفل .

تم الكتاب والحمد لله وصلى الله على محمد وآلـه وسلم تسليماً .

* * *

انظر ترجمة ابن السراج في :

اشارة التعبين من ٣١٣ رقم ١٨٤ والمعدون من الشعراه من ٤٧٠ - ٤٧٣ رقم ٣٠٦ ومعجم الادباء من ١٧٣/١٨ - ٢٠١ رقم ٥٣ وبقية الوعاء من ١٠٩/١ - ١١٠ رقم ١٨١ و تاريخ الادب العربي ٢ - ١٨٦ - ٢٢ رقم ٢٧ وتاريخ بغداد ٣١٩/٥ - ٣٢٠ رقم ٢٨٤٢ وانباه الرواية ١٤٥/٣ - ١٤٩ رقم ٦٥٣ والاعلام ٦/٧ ومعجم المؤلفين ١٩/١٠ ووفيات الاصيائين ٣٣٩/٤ - ٣٤٠ رقم ٦٤١ وشدارات الذهب ٢٧٣/٦ - ٢٧٤ وسمى اعلام النبلاء ٤٨٣/١٤ - ٤٨٦ رقم ٣٦٨ والتاجوم الزاهرة ٤٢٢/٣ ونزة الاباء من ١٨٦ - ١٨٧ وطبقات التعبين واللثنيين من ١٢٢ - ١٢٥ وال عبر ٤٧٢/١ والتكامل في التاريخ ١٨٠/٨ وابيضاح المكنون ١٤٢٢ ، ١٤٢١ ، ١٣٩٢ ، ١٠٦٤/٢ ، ٦٠١ ، ١١١ - ١٥١ ، ٣٠٦ ، ٢٨٦/٢ - ٢٨٧ وكشف الظنون ١٥/١ - ١٥١ واللباب في تهذيب الانساب ٥٣٨/١ ومرآة الجنان ٢/٢٧ - ٢٧١ والواقي بالوفيات ٨٦/٣ - ٨٨ ورقم ١٠٠٢ والبداية والنهاية ١٥٧/١١ والمنتظم ٣٥٣ رقم ٢٢٠ وفهرسة ابن خير ٣٠٧ - ٣٠٨ ، ٣١٦ ، ٣٠٨ - ٦٧ والفالقة في تاريخ آفة اللغة ٢٢٢ - ٢٢٣ رقم ٣٤٢ وtour القبس من ١١٧ رقم ٤٦١/٣ - ٤٦٢ مادة (السراج) وعيون التواريخ (مخطوط) ٢٥/١١ - ٧٦ وعقد العممان (مخطوط) ١٧٨/٦ ومسالك الاصمار (مخطوط) ٢٩٣/٤ - ٢٩٤

□ العواشي :

- ١ - بعدها في بعض المصادر : « وما زلت نشبهك في الذكاء بالحسن بن رجاء » .
- ٢ - قال الصقلي : هذه الآيات في غاية الحسن ومع لطفها وحسن ما فيها من الاستطراد جاء فيها لزوم للنحو قبل الفاء وقد تداولها الناس وملأوا بها مجاليهم واشتهرت إلى أن قال ابن سنان الملك :

وحلية بالحسن يسفر وجهها
بالبدر يهزا زيهها بالفرق
لا ارتضى بالشمس تشبيها لها
والبدر بل اكتفى بالمعنى

وقال اليافعي : يحسن استعارة هذه الآيات لوصف الدنيا .
- ٣ - منه نسخة خطية في مكتبة سليم آغا في اسطنبول بتقريبا في مجموع يحمل ١٠٦٦ .
- ٤ - يقال : « ما زال النحو مجتنا حتى عقله ابن السراج ياصوله » .
- ٥ - انظر : قائمة مخطوطات المعهد (بعثة المغرب الثانية) ١٤٤١/٥ مسلسل ٨٣٨ .
- ٦ - حققه د. ابراهيم السامرائي و د. عبد العسين القتلي ونشر بدار الكتب الشافية بالكويت سنة ١٣٩٧ هـ - ١٩٧٧ م .
- ٧ - دقته د. عبد العسين القتلي ونشره بمجلة كلية الآداب جامعة بغداد - ع ١٧ من ١٥٢ - ١٧١ سنة ١٩٧٣ م .
- ٨ - حققه د. رمضان عبد التواب ونشره بدار التراث بالقاهرة سنة ١٩٧٢ م .
- ٩ - انظر : الموجز في النحو (طبعة القاهرة) ص ٤١ - ٢٢٩ .
- ١٠ - انظر : صبح الأعشى للقلقشندي ١/٣ - ٢٢٦ والت كتاب لابن درستويه ص ١١٣ - ١٢٧ .
- ١١ - جرى المؤلف هنا على تذكرة العرف ثم اثنى بعد ذلك وكل هذا جائز .
- انظر المذكور والمؤثر للقراء من ٦٤ تعييق د. رمضان عبد التواب دار التراث القاهرة ١٩٩١ .
- ١٢ - زيادة لازمة موقع الفاء في الجملة .

★ ★ ★

نشاطات في خدمة التراث :

التراث والثقافة

في مهرجان الجنادرية من

«أدب الطفل»

عبداللطيف الأرناؤوط

المهرجان الوطني الثامن للتراث والثقافة في الجنادرية^(١) . علامة

متميزة أثارت اهتمام الأدباء والمفكرين والمثقفين في العالم العربي .

بما قيمه من فعاليات متنوعة وأنشطة مختلفة^(٢) . اتسمت بمواكبية التطور العصاري والثقافة المعاصرة . والعرض على تعميق رسالة الموروث الشعبي وعلاقته بالابداع الفني والفكري بهدف ابراز الدور الثقافي الأصيل

لأمتنا بوعي عميق ونظرة ثاقبة واراك قوي .

إن ربط الثقافة المعاصرة بالتراث المجيد . يفتح أمام الأجيال المتعاقبة الصور الغالدة المضيئة التي يزخر بها تراثنا الضخم والذي يجب أن نحييه بمزيد من الوعي المتجدد . والتاكيد على أهميته والعمل على صيانته والمحافظة على سماته وابراز ملامحه النبيلة .

وقد أبرز الشيخ [عبد العزيز بن عبد المحسن التويجري]^(٣) في كلمته أبعاد الجانب التراثي في المهرجان فقال :

(يجمع هذا المهرجان في خيمته من بطون الأودية والأحداث والتاريخ في شبه الجزيرة العربية ما كان لهذا الشعب من تراث صعباً وراء التراث العربي الإسلامي بتراث واحد يعتز به كل عربي ومسلم ، وينفي عنه الدخيل والفاشي . . . فكل من ليس له ماض من القيم والمثل العليا عليه علية استفهمان في

علمنا العربي والاسلامي بعيدة وقريبة الظنون من حوله تُسائل الماضي عنه ..
هل تعرفه .. هل له مunk نسب ؟ هل له نصيب في مكارم الأخلاق والسلوك
الأمثل ، فما تعانبه أمتنا الاسلامية من تصدع وخلافات وجروح سببها كله الدخيل
على تراث أمة الاسلام من مكائد الأعداء ، وهذا ما يشفل اليوم تفكير العالم
والمفكر والمثقف وكل المخلصين على وجه الأرض لتراث الأمة) .

كما شرح الدكتور (عبد الرحمن سبيت السبيت)^(٤) أسباب اختيار قرية
الجنادرية لإقامة نشاطات المهرجان . . . فقال :

[ان المهرجان الوطني للتراث والثقافة قد ارتبط بالجنادرية كموقع ثابت ومتكملاً
بالتجهيزات الكاملة لنقل الصور التراثية بالمملكة . . . وتقع - قرية الجنادرية - في موقع
وسط يتيح لجميع سكان المناطق المشاركة فيه والوصول اليه] .

ويرتكز ملتقي الجنادرية على قاعدة متينة من التراث الأدبي والثقافة ذات
الهوية المتعلقة بالأرض والوطن . بهدف إيجاد تواصل بين حاضر الأمة وماضيها .
وكانت اللحمة البارزة للمهرجان الثامن . . . الندوات المتخصصة عن « أدب
ال الطفل » .

فقد أكد الدكتور (عبد العزيز بن عبد الرحمن الشعيل)^(٥) ذلك الهدف
بقوله : [في هذا العام حدد أدب الطفل معيولاً مطروحاً لنقاشه طواهر هذا الأدب
من مختلف الأديباء في العالم العربي ، وإن طرح موضوع « أدب الطفل » هو استكمال
لما قدمه المهرجان من دراسات وأنشطة للطفل خلال الدورات السابقة .. كالمتساقبة
الثقافية ومرسم الطفل . . . وألعاب الجنادرية المقترحة . . . وهذا يدل على أن
المهرجان يعتبر الطفل نصف العاضر والمستقبل كله) .

لقد تضمنت أنشطة المهرجان الثامن لهذا العام ١٤١٣ هـ . . . ندوات ثقافية
متخصصة حول الموروث الشعبي وعلاقته بالابداع الفني والفكري في الوطن
العربي . . . وكان مدار البحوث التي قسمها المفكرون والمثقفون عن (أدب
ال طفل) . . . مستمدة من تجاربهم الخاصة وأطلاعاتهم العامة . . . وهي :

١ - السيرة الشعبية في أدب الطفل :

للأستاذ : أحمد سويلم

طرح المحاضر في مقدمة تناول عدة تساؤلات شائكة وجسورة أظهرت مدى أهمية المشكلة موضوع الدراسة ، فإذا كانت السيرة الشعبية تمثل جانباً مهمّاً من ملامح الثقافة العربية ورافداً كبيراً من الموروث الشعبي لهذه الأمة العريقة فالى أي مدى يصلح أن يقوم هذا الرائد لأطفالنا ؟ وما الجذور التي يجنيها الطفل من استعادة قراءة السير الشعبية ؟ وهل من الصواب أن تقدم السيرة الشعبية الى الطفل ملخصة أو سيرة أو كما هي أو علينا أن تقدمها في ضوء العصر ؟

وفي نهاية عرضه قدّم مثلاً تطبيقياً للسيرة الشعبية من خلال سيرة عنترة .

بدأ الباحث [أحمد سويلم] حديثه باعطاء المضور فكرة عن السيرة الشعبية . فقال: إنها حكاية شعبية طويلة ذات حلقات وفصول وهي تشمل حقائق لا سبيل الى نكرانها، وتشمل كذلك خرافات أو خيالاً محضاً لا سبيل الى إثباته .

ويراوح اسلوب السير بين النثر والشعر ويدور حول البطولات والفروسيّة والعرب .

ومن أهم أبطال السير الشعبية المعروفيين عنترة بن شداد وسيف بن ذي يزن وأبو زيد الهلالي والأميرة ذات الهمة والظاهر بيبرس .

وقد جاءت السير الشعبية تصوّرياً أحياً للبطل العربي الذي لا يقهـر، وتتضارـف هذه الصورة مع الأبطال الذين يحاربون الشر الذي يرمـز له ، ويمـسُّ في كل السير بالكفر والغروـج على الدين .

فكان فكرة الغير والشر قد تشكلت في هذه السير تشكلاً إسلامياً مع العقيدة الإسلامية ولا تعارضها ، ولهذا تقسم السير الى عالمين : عالم المؤمنين وعالم الكفار .

ثم قال : ان السيرة الشعبية تعد مصدراً من مصادر أدب الأطفال وبالرغم من أن السيرة الشعبية التي وصلت إلىنا قليلة العدد ، إلا أن الكتاب أقبلوا عليها يقدمونها في أشكال مختلفة من التبسيط والقيم القديمة .

ثم انتقل بالحديث الى ما توصل اليه بعض الباحثين حول أهمية السيرة الشعبية بالنسبة للطفل مؤكداً أن السيرة هي أهم الأشكال التي تصلح للطفل ، وهي تعد العلامة الكبرى في التراث الأدبي الشعبي .

فالسيرة تقدم صورة اجتماعية كاملة تسمح بأن تكون متطرفة مع الزمن، وهذه السمة بالذات هي التي تمني الكاتب بتقديم السيرة الشعبية برأى مختلف للkids والصفار على السواء .

و حول القوالب التي يمكن أن تقدم فيها السيرة الشعبية للأطفال قال الباحث : أن ذلك يأتي في أحد القوالب الآتية :

- الصورة الدراسية السريعة .
- تقديمها في قصص قصيرة .
- التعبير عنها .

- وسائل الاعلام المرئية والسموعية .

و أكد الباحث على أن كل هذه القوالب لا بد أن تقدم في صورة تعترف عقلية الصغير وما يتناسب مع مرحلة عمره ومستوى إدراكه وثقافته .

وبعد ذلك عرض المحاضر نموذجاً تطبيقياً للسيرة الشعبية التي يمكن تقديمها للطفل وهي سيرة عنترة بن شداد، أما لماذا اختار الباحث سيرة عنترة ولم يختار غيرها كنموذج ؟ فهذا ما أجاب عليه بنفسه عندما قال : إن ذلك كان ٠٠٠ لأن هذه السيرة هي أول الأعمال التي عرفها راثنا الأدبي ولأن بطلها شاعر جاهلي معروف ، كما أن له دوراً مشهوراً في الدفاع عنبني عيسى ضدبني ذبيان . إن سيرة عنترة ترسم مكانة الفارس العربي في مجتمعه ، وهي بذلك تعد نموذجاً للأدب الذي يشعل وهج العزيمة في وجادان الصغار وهم يتمثلون شخصية البطل الذي يرفض الهزيمة في كل المواقف ، والعزم والإرادة القوية من القيم التي ينبغي أن نربي عليها أبناءنا .

وفي نهاية عرضه قال : إن قصدنا من هذا أن نلقي الضوء على سيرة عنترة لنستشف منها قيمها ، وما يكن أن تضفيه إلى عقله الصغير في عصرنا الحديث .

وأرجو أن تعطي محاولتي هذه بعض المؤشرات من أجل إصلاح شخصية هذا الكائن البريء الذي أصبحنا نخشى افتقاده لبراءته في ظل قسوة الحياة ، وتفير القيم والانفتاح على كل ما يقتضي شخصيته بلا ضابط أو أحكام .

★ ★ *

المدخلات والتعقيبات :

وابرز المدخلات حول بحث (السيرة الشعبية في أدب الطفل) كان تعليق الأستاذ عبد العميد أحمد .. فقد تحدث عن أهمية الموضوع التصصي الذي يقدم للطفل، وأشار الى أن هناك كما هائلًا من السير الشعبية مثل: أبو زيد الهلالي والزير سالم ، والستدياد ، وعلى الزبيق ، بالإضافة الى الكثير من الموروثات الشعبية والأعمال الأدبية الأخرى .

وتطرق الى أدب الطفل ، وقال : إنه لم يكن معروفاً عند الغربيين ، ولم يكتب عن أدب الطفل ، حيث لم يقبل الكتاب على مثل هذه الأنواع من الاتجاه الأدبي . وتباروا في تقديمها التصصي للكبار فقط .

وأشار الى عدد من الملاحظات حول موضوع الندوة ومن ذلك :

- إن السيرة الشعبية توجد بكثرة هائلة إلا أن توظيفها في أدب الطفل قليل جداً .
- بينما نجد أن الكتاب الغربيين اعتمدوا على الموروث الشعبي العربي ونحن كعرب مقلدين لهم في بعض قصصهم .
- ما تزال الترجمات التي كتبت عن أدب الطفل هي جهود فردية ، ولم تتبنها مؤسسات ودور نشر متخصصة .
- لا بد أن تتولى المؤسسات التعليمية والإعلامية دعم أدب طفل واتجاهاته حتى يكون لدينا أدب أطفال على المستوى المطلوب .

★ ★ *

٢ - نظرة مستقبلية في أدب الأطفال :

للأستاذ : عبد التواب يوسف

استعرض المحاضر الأستاذ عبد التواب يوسف في محاضرته جوانب أدب الأطفال في الماضي والحاضر مع استشراف مستقبل هذا الأدب ، وأكد أن ماضي أدب الطفل وخاصة بعد عصر الحضارة العربية والإسلامية هو ماضٍ ثري أمرًا الإنسانية بكتنز رائعة من الحكايات التي امتلأت بها كتب التراث . وكان هذا الماضي أرهاصاً لما يقدم في العاضر .

وانتقد هذا الحاضر الذي اعتمد في رأيه على صياغة ما انتجه السابقون فقال : إن مأساة أدب الأطفال في العاضر تمثل في ركون بعضهم إلى صياغة القديم فحسب .

وذكر أن أدب الأطفال بدأ شعراً على يد أحمد شوقي ونشرأ على يد كامل الکيلاني (١٩٢٧ م) .

وازدهر أدب الأطفال في الغرب ازدهاراً كبيراً ، ويتبدى ذلك في ما يزيد على ثلث مليون كتاب في مكتبة واحدة في ميونخ بألمانيا . وذهب المحاضر إلى أن المأساة الحقيقة في انفصام أدبنا للأطفال عن الأدب العالمي ! وطالب بأن ننصف جسوراً بيننا وبين كتاب الأطفال المرموقين على المستوى العالمي .

فليس هناك كاتب واحد عالمي معروف للناس غير [اندرسون ولويس كارول] . وبعد العرب العالمية الثانية أصبح هناك سيل ينهر من الأعمال الأدبية الرائعة التي لم تصل إلينا ، بل ليس لدينا من يعرف اسم فائز واحد بجائزة أندرسون . هذا الأدب لم يصل إلينا ، في حين الحلت علينا المؤسسات التجارية التي تبيع لنا انتاجها الذي هو في تقاديرنا تدمير لهذا الأدب (والـ ديزني وغيره) الذي يغفل الاحتياجات الضرورية للأطفال ، الأمر الذي جعل النقاد يوجهون إليه انتقادات حادة .

و حول مستقبل أدب الأطفال ذكر المحاضر أن مستقبل أدب الأطفال العرب يعتمد على ظهور « مبدعين » جدد وفي الوقت ذاته على انتهاء عهد المقصوصية في هذا الأدب والذين يغلقون الطريق أمام هؤلاء المؤلفين .

ولا بد من الكشف المبكر عن المبدعين ورعايتهم ومنع التفرغ لهم ، ولن يتأتى ازدهار الأدب إلا إذا لقى تشجيعاً حقيقياً ، ووضعنا أيدينا على الأدب المتكر .

إن أمريكا وحدها يصدر فيها سنويًا خمسة آلاف كتاب للطفل ، ولا ندرى في عصر انفجار المعرفة كيف يكون المستقبل هنا !؟

وقال إننا نعني أدب الأطفال شعرًا وثراً ٠٠ قصة ورواية ٠٠ تمثيلية ومسرحية ، وليس أدبيات الأطفال وما يكتب لهم من معارف ومعلومات ٠ ثم انتهى من استعراضه إلى تناول الأدب الإسلامي للأطفال وذكر أن الكتابات الإسلامية ما تزال قاصرة على التاريخ الإسلامي والسير والبطولات أما كاتب الأطفال الإسلامي الذي يكتب عن المقدمة والقرآن الكريم والحديث والقيم فهذا نادر ، وتنمى أن تأخذ هذه الموضوعات طريقها في المستقبل إلى أدب الأطفال الذي نحرص فيه على ترسير القيم الإسلامية في نفوسهم ٠

* * *

المدخلات والتعقيبات :

وعلى الأستاذ نجيب الرفاعي على المعاشرة ٠٠ فقال : من خلال التجربة الفنية التي خضتها مع الأطفال في التليفزيون ، بروزت لدى تصورات عديدة مؤداها أن هذا الجهاز يمكن أن يقدم قضايا الطفل بطريقة إبداعية متميزة إذا توفرت الامكانيات ، واختيرت الشخصيات التي توظف من أجل إيجاد مادة أدبية للطفل العربي ٠

وبعد هذا التعقيب القصير تحدث الأستاذ محمد بن سعد بن حسين ، فأشار إلى ضرورة ترسير المفاهيم الإسلامية في عقول الأطفال من خلال المادة التصصصية ، وتقديم ذلك بأسلوب سهل وشائق وأكدى على أهمية تنمية القدرات اللغوية عند الأطفال وتحبيب العلم والعلماء إليهم ٠ وقال: إن كتاب أدب الطفل يقع عليهم جزء من المسؤولية للقضاء على حالات الاضطراب والقلق التي تحدث عند الأطفال في عالمنا العربي والإسلامي ، وذلك العلاج يمكن في ترسير القيم الإسلامية في نفوسهم وتنشئتهم على قيم الصبر والسماحة والحب وغيرها ، وهذا ما يحتاج إلى كتاب متخصصين ٠

٣ - القصة والمسرح في أدب الطفل :

للأستاذ : أحمد عبد السلام البقالى

تناول الأستاذ أحمد عبد السلام البقالى (من المغرب) ما يتعرض له أطفال الأمة العربية من غزو أجنبى قد يتعارض جذرياً مع ما نريد أن نفرسه في نفوسهم من قيم دينية ومبادئ أخلاقية ، وحضر من وجود عدد كبير من الكتب الرديئة واللامسئولة التي أملتها الروح التجارية .

وأورد عدداً من المبادئ والأهداف التي تتحكم في تقنيات كتاب الطفل ، ومن ذلك غرس القيم الأخلاقية العالمية وخلق عالم جديدة وجميلة، وكذا تشويط ملكة الخيال عند الطفل ، ومن ذلك أيضاً حرص الكاتب على أن يجعل من الطفل إنساناً سوية ينفع نفسه ومجتمعه في المستقبل وأن يحب إلى الطفل في كتاباته العمل اليدوى والمهارات العلمية .

ثم انتقل للحديث عن الطريقة التي يكتب بها للطفل سواء في مجال القصة أو المسرح .

وفيما يتعلق بـهندسة البناء القصصي تناول الباحث العدث في القصة وذكر منها التجارب الشخصية للكاتب ، وتجارب الآخرين وحكايات التراث والتاريخ واستثمار مملكة الحيوان لـإيراد القصص على ألسنة الحيوانات .

وقال : انه ينبغي للكاتب وهو يكتب للأطفال أن يفرق بين مرحلة الطفولة ، فمرحلة السن تتحكم في أسلوب الكتابة وطول الجملة وتراتكبيها ، كما ينبغي أن يراعي عامل جنس الطفل بحيث تغاطب لغة القصة الولد والبنت في آن واحد .

ولأن الكتابة للطفل المعاصر لم تعد مجرد حكايات وسرد لأحداث خيالية ومسلية ، فقد أكد المحاضر على أهمية أن يقرن كاتب أدب الأطفال التسلية بالفائدة بمعنى أن يكون ما يكتبه أدباً هادفاً وليس كما يقال « الفن للفن » .

وذكر مبدأ هاماً يتعلق بشعور الكاتب أثناء الكتابة ، فإذا كان متھمساً لما يكتب فان عدوى ذلك الشعور ستنتقل حتماً إلى قرائه ، أما إذا أحس الكاتب أن الكتابة في وقت معين واجب ثقيل ، فالأحسن أن يتوقف عن الكتابة إلى أن تعود الرغبة والحماس إليه .

ثم تناول عناصر الكتابة للطفل، ومن ذلك ، عنصر التشويق والصراع بين شخصيات ، والمقدمة في القصة كذلك الحركة وما تعنيه من ترتيب للأحداث بطريقة مشوقة ودقيقة ، ومن ذلك تقسيم القصة الى مشاهد ومقاطع وتحدث عن «الجوانب الفنية في اخراج كتب الأطفال» وهي كما قال : عملية تكمل العملية الابداعية للكاتب ، إذ لا بد أن يجد الطفل بين يديه قصة تحتوي على مادة قصصية جديدة : وفي الوقت نفسه مخرجة بطريقة شائقة وجذابة وبغاءة أغلفة القصص التي تعتبر باب القاريء الى ما في داخله .

ولم ينس أن يذكر بارتفاع أثمان كتب الأطفال والذي أرجعه الى ارتفاع تكاليف انتاج مثل هذه الكتب ، الأمر الذي أدى الى انصراف قاعدة عريضة من الأطفال العرب عن الكتاب وانجذابهم الى وسائل أخرى قد لا تغني عن الكتاب .

وبهذا الخصوص أوصى المعاصر المسؤولين عن التعليم والثقافة والاعلام والشبيبة ببلادنا العربية أن يخصصوا ميزانيات كافية لتشجيع الابداع في مجال الطفل ، وكذلك تشجيع الناشرين على طبع أكبر عدد من النسخ بحيث يصبح سعر النسخة في متناول الطفل الفقير .

ولأن المسرح يعتبر أداة تربوية وثقافية ممتازة بالنسبة للطفل ، فقد تحدث عنه ضمن تناوله لموضوع تقنية الكتابة للطفل . فذكر أن مسرح الطفل خصوصيات وفوائد وانعكاسات تربوية نفسانية لا توفرها له مصادر أخرى .

ومن هذه الفوائد : غرس قيمة العمل الجماعي ، تشجيع الطفل على المشاركة مع الآخرين في العمل المسرحي، وهي العملية التي تلقنها درساً في جدوى التعاون مع الآخرين في انتاج شيء جميل وكبير .

كما يتعلم الطفل من هذا العمل التضحيّة بوقت فراغه وشغله في عمل مفيد ، فضلاً عن روح المسؤولية التي يتعلّمها الطفل .

وخلص المعاصر الى أن مسرح الطفل مكاسب تربوية ومعرفية كثيرة ، وهذا ما يحتم علينا أن نأخذ مسرح الطفل بكامل الجدية وأن نوليهزيداً من اهتماماً وقال : إنه إذا كانت المؤسسات التربوية جريصة على شغل وقت الأطفال بما

يفيدهم ، فان اقامة المهرجانات المسرحية أثناء العطلات الدراسية أمر مفيد للغاية، فضلا عن تراكم الأعمال المسرحية الناجحة سينضيف الى تراثنا الثقافي العربي اضافات مشرفة قد تصبّع عبر الزمان في مقام المعلقات ، أو غيرها من النفائس والذخائر الثقافية العربية .

* * *

المدخلات والتعقيبات :

وعلى الأستاذ (أحمد نجيب) فأشار في معرض حديثه الى ما أسماه بالقطيعة التي قامت منذ زمن بين المثقفين والكتاب المبدعين قال : لقد ذكر الأستاذ البقالى أنه لم يعثر على أي كتاب يتناول التقنية الحديثة في الكتابة للأطفال ، في حين أن كثريين من الأدباء كتبوا في هذا المجال وأكده على أهمية الاعتبارات السلوكية والاعتبارات الابداعية لدى الطفل بحيث لا تستخف بما يقوله أو يفعله هذا الطفل .

أما الأستاذ (علوي الصافي) فقد ركز في تعليقه على اسراف الأستاذ عبدالسلام البقالى في استخدام الكلمات والمصطلحات باللغات الأجنبية ، وشدد على ضرورة متابعة المنظومة الاجتماعية في المجتمع والتي يشكل الطفل أهم أعضائها بحيث تكشف مواطن الخلل في هذه المنظومة ، ونقدم لها الملاج اللازم ٠٠ ثم علق الأستاذ (محمد حسن بريش) فأكده على ضرورة تقديم الأعمال التراثية التي كتبت عن الطفل ، فقد وردت بعض الكتايات عن الطفل وأدب الطفل في كتب السيوطي ، والبرد والجاحظ ، والغزالى وغيرهم .

وقال : إن أهم الوسائل التي تعكس التقدم الحضاري والأخلاقي لأي أمة هو اهتمامها بالأدب ، خاصة اذا كان هذا الأدب يجسد القيم والأمور المقايدة كما نأمل أن يكون عليه أدب الطفل عندنا .

* * *

٤ - الشعر والأغنية في أدب الطفل :

للدكتور : ابراهيم أبو عباء

بدأ الدكتور [ابراهيم أبو عباء] بحثه بتحديد معنى الطفولة ومراحلها مشيراً إلى أن سن الطفولة تمتد من ساعة خروج المولود من بطن أمه إلى أن يبلغ العلم، ويصبح مخاطباً بالتكليف الشرعية . . وأضاف قائلاً : إن هذه المرحلة من حياة الإنسان تعد من أخطر المراحل وأهمها ، ففيها تنموا مداركه وتقوى حواسه ، وهو في هذه السن أرض خصبة تقبل كل ما يلقى فيها إن خيراً وإن شرًا .

ثم تحدث عن أهمية أدب الطفل فذكر أن الأدب بالنسبة للطفل في مراحل عمره الأولى مطلب ملح وحاجته إليه شديدة ، وذلك لأسباب عدة منها :

- أن هذا الأدب يسلّي الطفل ويسعده بالملائكة والخيالات .
- يعرفه على البيئة التي يعيش فيها .
- يسهم في اطلاعه على أفكار وآراء الكبار .
- ينمي القدرات اللغوية عنده .
- يسهم في النمو الاجتماعي والمعقولي، والعاطفي له .

وقال : إن الأطفال حظوا بقسط وافر من أدب الطفولة في تاريخنا الإسلامي والعربي . . ونجد ألوان هذا الأدب في قصص الأخبار والمغازي وحكايات الأبرار والصالحين ، ونجدتها فيما ورد في القرآن والأحاديث النبوية من قصص ، وكذلك قصص الفتوحات الإسلامية ، وقصص الأسفار والتجار ، وبعض قصص الجن والملائكة ، وقصص على لسان الحيوانات والطيور وغير ذلك .

وعرج المحاضر للحديث عن الشعر والأغنية فأكمل أن الشعر والأغنية والنشيد لون من ألوان الأدب وشكل من أشكاله الجميلة والمحببة إلى عقلية الطفل . والأطفال يحبون الشعر ويطربون لأنغامه وإن لم يفهموه في سنهم الأولى ، وتحرص الأم (كل أم) على هددها طفلها بالكلمات الموزونة المقناة ذات اللحن أو الإيقاع ، ويشعر الطفل عند ذلك بالرضا والارتياح ، وعندما يكبر يحفظ بعض الأشعار ذات البغور القصيرة إذا سهل لفظها ومعناها .

وأضاف قائلاً : لقد أدرك العرب القدماء بفطرنهم النقاية الأصول التربوية التي تدخل على صغارهم الفرحة والبهجة فقدموا لهم من شعر المناقة ما يوفر لهم صفاء النفس وهدوء الخاطر ، وحرصوا على نظم الأبيات الشعرية الخفيفة التي تترنم بها الأم من أجل تنمية صغيرها أو أثناء لعبه .

ثم قدم نماذج من هذه الأشعار ، ومن ذلك ما قالته هند بنت عتبة وهي تلاعب صغيرها « معاوية » :

إنبني معرق كريم محبب في أهله حليم
ليس بفحاش ولا لثيم ولا بطغور ولا سئيم

ومما قاله الزبير بن عبد المطلب وهو يرقص ابنته أم الحكم :

يا حبذا أم الحكم كانها ريس أحسم
يا بعلها ماذا يشم ساهم فيها فسهم

وأشار إلى الكلمة الأغنية الواردة في عنوان المحاضرة . . وقال : هي جمع أغان ومصدرها الغناء ، وكل من رفع صوته ووالاه فصوته عند العرب غناء .

وفي حديث عائشة رضي الله عنها . . « وعندى جاريتان تفنيان بغناء بعاث » أي تنشدان الأشعار التي قيلت يوم بعاث . . ولم ترد الغناء المعروفة بين أهل اللهو واللعبة ، وقد رخص عمر بن الخطاب رضي الله عنه في غناء الأعراب ، وهو صوت كالعداء ، أما إذا صاحبه شيء من آلات اللهو والموسيقا فإنه حينئذ يكون محظياً كما يفتى بذلك كثير من علماء الأمة المعتبرين .

وأضاف المحاضر قائلاً : إن مادفعتي إلى هذا الإيضاح والتنويه ما رأيته في بعض الكتب التي تناولت أدب الأطفال من تساهل كبير في مسألة الموسيقا ، وأنه جزء مكمل للأغنية لا تنفصل عنها .

ثم قال: أما موضوعات شعر الأطفال فمنها : الشعر التوجيهي والتربوي ، ومنها الشعر والنثيد الوطني ، والشعر الاجتماعي ، والشعر الترفيهي .

وانتقل للحديث عن العصر الحديث فقال: إن هذا العصر شهد تطوراً في شعر الطفولة واتخذ أشكالاً متعددة كرس القائمون عليها جهدهم لاخراج شعر يتلاءم مع الأجيال الجديدة . ويعتبر الشاعر أمجد شوقي رائداً في مجال شعر الأطفال خاصة ما كتبه من قصص شعري على لسان الحيوان ، وقد سبق شوقي في طرقه الحكاية على السنة الحيوانات الشاعر محمد مثمن ، خلال عام ١٩٩٨ . إلا أن المخطوطة كانت كبيرة في مسيرة شعر الأطفال لم تكتمل وتنتهي إلا عام ١٩٢٢ م على يد الشاعر محمد الهاوي . ثم جاء الكاتب كامل الكيلاني الذي حرص فيما كتبه للأطفال شمراً ونشرأً على غرس القيم الدينية والاجتماعية .

واختتم المحاضر عرضه بالحديث عن أهداف شعر الطفولة فأكمل : أن للشعر وظيفة ورسالة ينبغي أن يسعى جاهداً إلى إيصالها إلى جمهور المتلقين ، وتأتي هذه الرسالة امتداداً لرسالة الإسلام في هذه الحياة .

فالسلسلة البعثة أمر مرفوض ، وهي ليست هدفاً في حد ذاته ، ولكنها مطلوبة في سياق الأهداف الأساسية التي منها : إثراء خيال الطفل وبناء شخصيته وتنمية الذوق ، والحس عنده وغرس القيم الدينية والمبادئ الخلقية في نفسه .

ثم قال : ويظل شعر الأطفال شمراً ملتزماً بقيم الإسلام وتصوراته شأنه شأن الأدب الإسلامي بصفة عامة ومن هذا المنطلق يستطيع الشعر أن يؤدي وظيفة هامة ذات أبعاد عقدية ، وجمالية وشمورية ووجودانية وفكرية .

★ ★ ★

المداخلات والتعقيبات :

كانت للأستاذ « علي الصقلي » إضافة أكد فيها أن الأغنية تدور على السنة الآلاف من الأطفال لذلك يلزم التعرفي في تأليفها حتى تكون سالمة من كل ما يخدش الدين والأخلاق ، وما يفسد الذوق ويسيء إلى الجمال .

وقال : إن واقع شعر الأطفال يجعل لنا الفتن أكثر من السفين .. لفة ضعيفة .. أسلوب هزيل .. اجترار وتكرار وخلل في الأوزان والقوافي .. أما الناشرون

فما زالوا يتاجرون بشره في كتب الأطفال دون اكتراث بمستوى ما يعرضون من أشعار ودواوين .

وخلص الى أن ترجمة بعض الأغاني شرعاً الى العربية أمر لا يأس به ، شريطة أن تكون حاملة لمعان إنسانية سامية ، وان تلبس حلة عربية قشيبة لا تسمح بشعر رائعة الترجمة الديئة لفظاً وتعبيرأ !!

* * *

٥ - المنعطفات الرئيسية في تطوير أدب الطفل :

للدكتور : علي العديدي

استهل الباحث الدكتور (علي العديدي) حديثه بابراد مقدمة قصيرة حول اهتمام الحضارات القديمة بالطفل نظراً لوجود المفاهيم الخاطئة حول الطفولة ، وأكد أن الحدث البارز هو ظهور الاسلام الذي غير الكثير من مفاهيم المجتمعات القديمة حول الطفولة ، فكانت تعاليم الاسلام وأراء علمائه ومفكريه كانت تطوراً حقيقياً في تاريخ الأطفال .

ورغم هذا الاهتمام الذي أولاه العلماء العرب المسلمين للأطفال في تعليمهم وتربيتهم إلا أن اهتمام الأطفال كان شديداً من جانب الأدباء فقد أسقطت الأدباء العرب الأطفال من حسابهم ، وأهملوهم اهتماماً كاملاً فيما يقدمون من فنون أدبية .

وأضاف المحاضر قائلاً : أن الكتابة للأطفال لم تكن حتى وقت قريب مألفة أو مستساغة بين الأدباء .

وتتبع مسيرة أدب الأطفال التاريخية أولاً : من منظور عالمي ، وذلك من خلال منعطفات ثلاثة : في نهاية القرن السابع عشر ، وبعد الحرب العالمية الأولى ثم بعد العرب العالمية الثانية .

وانطلق الى الحديث عن مسيرة أدب الأطفال في لقتنا العربية فتحدث عن المصور القديمة التي ظلت قصص الأطفال مستمدة فقط من قصص الكبار ، ولم يكن هناك أدب مميز للأطفال .

ومع نهاية القرن التاسع عشر اجتاز أدب الطفل العربي المنعطف الأول عندما استقل عن أدب الكبار ، وذلك على يد الشاعر أحمد شوقي عام ١٨٩٨ م .
ثم دخل أدب الطفل العربي منعطفاً ثانياً منذ العقد الثالث من القرن الميلادي على يد الشاعر محمد المهاوي ثم كامل الكيلاني ثم حامد القصبي .

وقال : ان من خلال النظرة العامة لما كتب من أدب الأطفال في الخمسينات والستينات نجد منوعاً من الكتب ، كثیر المدى إلا أن أكثره كان مقتبساً أو مترجماً .
أما الأطفال السبعينيات والثمانينيات من هذا القرن ، فقد كانوا أكثر حظاً من جميع الأجيال السابقة حيث أخرج الناشرون طوفاناً غامراً من القصص والمسرحيات التي جادت بها قريحة أدباء الأطفال ، وإن ظلل الاهتمام بالكم والعدد هو الغالب دون اهتمام بالملامح الرئيسية لأدب الأطفال ، أو دون رعاية لما تحويه كتابات الأدباء من مضامين ضارة بأجيال المستقبل .

أما المنعطف الثالث من المنعطفات الرئيسية في أدب الطفل العربي فكما أكد الدكتور المحاضر فان بلادنا العربية لم تدخله دخولاً حقيقياً وما زالت تقف متربدة في أوله تحكمها التقليدية التي مازالت تنظر إلى أدب الطفل نظرة غير جادة . فلم يأخذ أدب الأطفال طريقه إلى الانتشار بين أجيال المسلمين العرب ، ولم يرسم العلماء المتخصصون في البحوث الأدبية ومقاييسها النقدية .
كذلك لم تقدم هيئاتنا العلمية والتربوية من الدراسات – إلا القليل – ما يرسم السبيل لمن يتصدى لأطفالنا .

ويعد علماء النفس من أن ما تبنيه الأسرة والمدرسة والمجتمع ، يتهمد على يد الذين يكتبون للأطفال دون علم أو دراية بأوليات الأصول العامة لأدب الأطفال .

ويبدو أن الدكتور (علي العديدي) قد قرأ على وجوه المشاركين والعاصرين صدى كلماته التي توحى بالتشاؤم واليأس من مستقبل أدب الطفل – رغم أنه يتحدث عن واقع حقيقي ماش – ولهذا حاول في نهاية حديثه أن يضيء بصيغة من الأمثل عندما ذكر أن هناك فتنة قليلة من الكتاب أهملوا في أدب الأطفال اللغة العربية للدخول مرة جديدة في مسيرة العالمية ، وتناولوا أدب الأطفال بنظرية

جديدة ترى فيه وسيلة أدبية تهدف عن طريق التسلية والامتناع إلى التعليم والتثقيف وأضاعف في حسبانهم النواحي النفسية والأدراكية والزمنية والمكانية للأطفال ، فساروا بهذا اللون من الأدب قدماً في بلادنا العربية ومنحوه دفعات قوية من التطور ووصل بعضهم بمنتجه الأدبي للأطفال إلى مستوى عالمي .

* * *

المدخلات والتعقيبات :

عقب الدكتور (محمد الديل) على المحاضرة ٠٠ فقال : بحث جيد متكامل عن الطفولة ٠٠ وأردف :

إننا أوغلنا بالحديث عن الاتجاهات، ولم نتكلم عن الابداعات في مسار آداب الطفل، والذي يتميز بالصعوبة والخطورة لحساسية هذا الموضوع . لذلك يجب أن يتتبه أدباء الأمة ومتذكروها لأدب الطفل، وخاصة الطفل المسلم وسط هذه التيارات المتصارعة فيجب أن نترك كل الأفكار الدخيلة ، وذلك عند الكتابة للطفل .

ثم تحدث بعد ذلك الدكتور (عبدالله بن صالح العربي) حول الموضوع المطروح ، بأن أغلب سكان العالم العربي والإسلامي هم في سن الشباب ، وتمني نو أن المحاضر قد تعرض لما يمكن أن يسمى في تطوير أدب الطفل على المستوى التاريخي ، ثم تحدث : عن المنعطفات التي تساعد على تطوير أدب الطفل ، وأسهب في الحديث عن المضمون في أدب الطفل الذي هو أهم المنعطفات في أدب الطفل وركز على ضرورة الاتجاه للأدب الإسلامي عند الكتابة للأطفال ، ونوه إلى ضرورة أن تقوم الجامعات بتدريس أدب الطفل ضمن مناهجها التعليمية واستعرض في نهاية تعليقه بعض ملاحظاته حول الورقة وايجابياتها .

وآخر المتدخلين في التعليق على المنعطفات الرئيسية في تطور أدب الطفل كان الدكتور (أحمد عطيه زلط) فيبدأ بالحديث عن المفاهيم في الأدب والفن ، وتتحدث عن المراحل العمرية في أدب الطفل . كما ناقش الوظيفة في الأدب وأكد أن الجنور الإسلامية والعربية يجب أن تكون الوظيفة الأولى في أدب الطفل ، وتتحدث عن أربعة منعطفات في أدب الطفل : ١ - المنعطف التراشي ، ٢ - المنعطف الخاص بالتدوين ، ٣ - منعطف البيث والإحياء الأدبي ، ٤ - المنعطف الرابع الذي نعيش حالياً هو منعطف الترجمة والتاليف والاتجاه الوظيفي .

الهوامش :

- ١ - تم الافتتاح فعاليات مهرجان « الجنادرية » الثامن الذي يقيمه الحرس الوطني سنوياً في يوم الاربعاء ١٥ شوال ١٤١٣ هـ الموافق ٧ نيسان ١٩٩٣ وانتهى يوم الاحد ٢٤ شوال ١٤١٣ هـ الموافق ١٦ نيسان ١٩٩٣ وحضر حفل الافتتاح الامير عبد الله بن عبد العزيز رئيس الحرس الوطني ٠٠ والاعييل يدر بن عبد العزيز نائب رئيس الحرس الوطني ٠٠

٢ - اشتمل النشاط الفني على برنامج حافل ٠٠ اهم بذرده في :

 - ١ - العروض الفولكلورية والرقصات الشعبية ٠٠ لقد تضمن العigel عروضاً للفرمان والهجن ٠٠ وفرق رمزية لفرايد الحرس الوطني ٠٠
 - ٢ - اغانيات والألعاب الشعبية جسدت جوانب من حياة الانسان العربي ٠٠ والهدف من ذلك حفظ وتوليق الالعاب الشعبية التي مارسها الاجداد ٠٠
 - ٣ - عرض الفنون التشكيلية ٠٠ الذي شكل بعده فنياً وثقافياً لحركة الابداع الفني ٠٠
 - ٤ - معرض الكتاب ٠٠ شارك فيه العديد من الجهات التعليمية والهيئات الخاصة والقطاعات الحكومية اضافة الى دور النشر في السعودية ٠٠
 - ٥ - نشاطات أخرى مختلفة كالفنون التشكيلية وسباق التحمل الأول ومعرض الوثائق والصور وغيرها ٠٠
 - ٦ - الشيف بن مهد المحسن التويجري : باحث متخصص يهتم بالثقافة التراثية ٠٠ ونائب رئيس الحرس الوطني المساعد ٠٠
 - ٧ - الدكتور عبد الرحمن سبيط السبيط : اديب مشتق ٠٠ وكيل الحرس الوطني للشؤون الثقافية والتعليمية ٠٠ ورئيس اللجنة العامة لمهرجان « الجنادرية » ٠٠
 - ٨ - الدكتور عبد العزيز بن مهد الرحمن الشليل : اديب مشتق ٠٠ يهتم بالثقافة التراثية ٠٠ وله اهتمامات بالاداب العالمية ٠٠ وهو المدير العام لادارة المهرجان الوطني للجنادرية ٠٠ له خيرة ممتازة في تنفيذ البرامج المتعددة للنشاطات المختلفة ٠٠ وقد شارك سنتين في برامج المهرجان منذ عام ١٤٠٥ هـ ٠٠ ويساهم في تحقيق نجاح المهرجان كلة من الشباب المتفانين المخلصين ٠٠ مثل الاستاذ (حسن عبد الله خليل) ٠٠ وغيره ٠٠

★ ★ ★

التعريف بالمحاضرين :

- ١- احمد سويلم : (مصر) يهتم بادب الاطفال والدراسات الشعرية . كتب (١٦) معلمات للاطفال .
 - ٢- عبد التواب يوسف : (مصر) يهتم ببعوث ادب الطفل ونواته . من نتاجه لطفل « ٢٠٠ » قصة (١٠) كتاب في ادب الطفل .
 - ٣- احمد عبد السلام البقالي : (المملكة المغربية) كتب الشعر والقصة . وحكايات الاطفال . له (٤٤) قصص للاطفال و (٣) دواوين شعرية للمغاربة .
 - ٤- ابراهيم ايوب عباء : (السعودية) اهتم بادب الطفل والفكر الاسلامي والشعر . كتب الشعر للطفل وللشبان .
 - ٥- د- علي العيداني : (مصر) كتب بعضاً عديدة من ادب الطفل وائزه في تربية الناشئة . ومحنة ادب الاطفال العربي . وادب الاطفال بين الحكاية الشعيبة والإبداع الشعبي .

فهرس السنة الثالثة عشرة

من مجلة التراث العَزِيزِي

تشرين الأول ١٩٩٣ - أيلول ١٩٩٣

إعداد: مهنا رأفت ووط

البحوث والدراسات

عنوان البحث	الكاتب	الصفحة العدد
- الائتلاف رأس الوجه البلاغية	يسين الأيوبي	٨٩
- ابن الأثير الجزري	عبداللطيف أرناؤوط	١٠٩
- ابن رواحة العموي	عدنان قيطاز	٤٨
- ابن قتيبة في مقدمة / الشعر والشعراء /	عيسى فتوح	١١٦
- ابن شخص الأندلسي - حياته وشعره	أحمد عبد القادر صلاحية	٩٢
- اتهام الجلال السيوطي بين التبرئة والإدانة	عدنان درويش	٧٩
- إسهام السيوطي بالاتفاق	محمد الزحيلي	١١٢
- الألفاظ المرببة في القرآن الكريم وموقف السيوطي	محمد يوسف الشربجي	١٣٧
- أهمية الفهرسة الوصفية	عدنان درويش	٢٨
- البعد المكاني في سور ذي الرمة الفنية	اسامة سلمان اختيار	٤١
- التراث النقدي وقراءة الندات المعاصرة	ماجدة حمود	١٢٠
- التراث والثقافة في مهرجان الجنادرية الثامن	عبداللطيف أرناؤوط	١٣٩
- جلال الدين السيوطي - الإنسان	عبداللطيف أرناؤوط	٥٣
- جلال الدين السيوطي ، موقعه في عصره	عبد الكري姆 اليافي	٧
- الحياة حلم والنائم يقطنان	عبد الكريم اليافي	٧
- سمات الأدب النسائي في «بلاغات النساء»	عبداللطيف أرناؤوط	١٠٤
- لابن طيفور	لابن طيفور	٥٠

الباحث أو الكاتب	عنوان البحث	الصفحة	العدد
حرف الالف			
أبو جيب ، سعدي	٦٣	٦١	٥١
ـ السيوطي ٠٠ علامة عصره	١٢٥	٤٩	٤٩
أيو الهيجاء ، فواه حسن	٦٣	٦١	٥١
ـ المارف العلمية في كتاب «نهاية الأدب في فنون الأدب»	١٢٥	٤٩	٥٢
الكتاب			
ـ السيوطي ٠٠ علامة عصره	٦٣	٦١	٥١
ـ السيوطي ٠٠ امام التفسير بالتأثر	١٠١	١٠١	٥١
ـ الشرط والقسم وواد الحال عند النعجة	١٤٦	١٤٦	٥٠
ـ عمر جلال الدين السيوطي	٤٣	٤٣	٥١
ـ علاقات الناس وموتهم			
ـ السيوطي ٠٠ علامة عصره	٧	٤٩	٤٩
ـ علم المجمعة عند العرب	١٣٠	٥٠	٥٠
ـ العلوم العربية في الأندلس	٦٤	٤٩	٤٩
ـ عمرو بن أحمر الباهلي ٠٠ الشاعر المخضرم	٥٦	٥٠	٥٠
ـ فهرس السنة الثالثة عشرة :	١٥٦	٥٢	٥٢
ـ القلم لأبي محمد السراج التحوي	١٣١	٥٢	٥٢
ـ الكتابة باللغة العربية بين الواقع والطموح	١٤٦	٤٩	٤٩
ـ مشتهي المقول في منتهى التقول	١٦٣	٥١	٥١
ـ مشهد العيون في القصيدة الجاهلية	١٠٣	٤٩	٤٩
ـ مصطلحات تاريخية مستعملة في المصور			
ـ الثلاثة : الأيوبي - الملوكي - العشانى	٣٣	٤٩	٤٩
ـ المارف العلمية في كتاب			
ـ نهاية الأدب في فنون الأدب »	١٢٥	٤٩	٤٩
ـ المعاني القرآنية في الشعر الجزائري الحديث	٨١	٤٩	٤٩
ـ مؤلفات جلال الدين السيوطي			
ـ المحفوظة والمطبوعة	١٧٧	٥١	٥١
ـ مقومات الأخلاق عند الفرزالي	٦٦	٥٢	٥٢
ـ نجدة ومقاتلة المشعرية	٧	٥٢	٥٢
ـ النباتات الطبية - تاريخها - قصصها -			
ـ وأساطيرها	كلاس	١٠٣	٥٢
ـ وحوشيات أبي تمام	كمال	٢٨	٥٢

٥٢	٦٦	أحمد ، عزت السيد — مقومات الأخلاق عند الفرزالي
٥٢	٤١	اختيار ، اسامي سلمان — البعد المكاني في صور ذي الرمة الفنية
٤٩	١٠٩	أرناؤوط ، عبداللطيف — ابن الأثير الجزري
٥١	٥٣	جلال الدين السيوطي .. الإنسان
٥٠	١٠٤	سمات الأدب النسائي في « بلغات النساء » لابن طيفور
٥٢	١٣٩	مهرجان الجنادرية الثامن للتراث والثقافة « أدب الطفل »
		أرناووط ، منار
٥٢	١٥٦	فهرس السنة الثالثة عشرة من المجلة
٥٠	٨٩	الأيوبي ، ياسين — الائتلاف رأس الوجوه البلاغية
		— حرف الباء -
٥١	٤٣	البابا ، محمد زهير — عصر جلال الدين السيوطي
		— حرف العجم -
٤٩	١٠٣	جمعة ، حسين — مشهد العيون في القصيدة الجاهلية
		— حرف العاء -
٥٠	١٢٠	Hammond ، ماجد — التراث النقدي وقراءة الذات المعاصرة
		— حرف الشاء -
٥١	١٧٧	الخازندار ، أحمد — مؤلفات جلال الدين السيوطي المخطوطه والمطبوعه
		— حرف الدال -
٥١	٧٩	درويش ، عدنان — اتهام البلاط السيوطي بين التبرئة والادانة
٥٠	٢٨	— أهمية الفهرسة الوصفية

اللقاء ، عمر

– العلوم العربية في الأندلس وأثرها في أوروبا

حرف الزاي

الزعبلاوي ، صلاح الدين

– الشرط والقسم وواؤ الحال عند النهاة

الزحيلي ، محمد

– اسهام السيوطي بالافتاء

الزحيلي ، وهب

– السيوطي ، امام التفسير بـ المأثور

– حرف السين –

الساوري ، عبدالعزيز

– القلم لأبي محمد السراج النحوي

حرف الشين

الشريجي ، محمد يوسف

– الألفاظ العربية في القرآن الكريم و موقف السيوطي

الشيباني ، محمد ابراهيم

– مؤلفات جلال الدين السيوطي المحفوظة والمطبوعة

– حرف الصاد –

صلاحية ، أحمد عبد القادر

– ابن شخيص الأندلسي – حياته وشعره

حرف الفاء

فتوح ، عيسى

– ابن قتيبة في مقدمة « الشمر والشعراء »

الفيصل ، سمر روحى

– الكتابة باللغة العربية بين الواقع والطموح

٦٤ ٤٦

١٤٦ ٩٠

١١٢ ٥١

١٠١ ٥١

١٣١ ٥٢

١٣٧ ٥١

١٧٧ ٥١

٩٢ ٥٢

١١٦ ٤٩

١٤٦ ٤٩

حرف القاف

قاسم ، محمد أحمد
علم المعجمة عند المرب

٥٠ ١٣٠

حرف الكاف

الكيلاني ، ابراهيم

ـ مصطلحات تاريخية مستعملة في المصور الثلاثة

- | | | |
|-------------------|-----|---|
| ٤٩ | ٢٣ | ـ الأيوبي - الملوكى - المنشانى » |
| ٥٢ | ١٠٣ | ـ النبات الطبية - تاريخها - قصصها - وأساطيرها |
| ٥٢ | ٢٨ | ـ كمال ، محمد |
| ـ وخشيات أبي تمام | | |

حرف اللام

اللعام ، بدیع السید

ـ مشتهى المقول في منتهى النقول

حرف الميم

مينو ، محمد محبى الدين

ـ عمرو بن أحمر الباهلى

ـ هنفى ، عبد القادر

- | | |
|--|--|
| ـ المانى القرائية في الشمر الجزائري الحديث | |
|--|--|

ـ حرف الياء -

اليافى ، عبد الكريم

- | | |
|---|--|
| ـ جلال الدين السيوطي ٠٠ موقعه في عصره | |
| ـ « الحياة حلم » و « النائم يقطنان » | |
| ـ علاقات الناس وميولهم « الأب انسناس ماري الكرملي » | |
| ـ نجد ومقاتنه الشعرية | |